

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجَالِسُ الْمَلِكِ كَلِيدٍ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الثامن والسُتون بعد المائتين

الآيتان ١٩٧-١٩٨ سورة آل عمران

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل ضيائي

أساذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً على نعمه التي لا يحصي عددها وكيفيتها ومنافعها إلا هو سبحانه ، قال تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(١).

الحمد لله على إحصاء الحسنات وتوثيق الملائكة لها ، وكثرة الشهود عليها من الإنس والجن ، والجوارح والأرض والرياح ، وعلى مضاعفتها ، قال تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا...﴾^(٢).

الحمد لله الذي فتح باب العفو والمغفرة ، ومحو ما نرتكبه من السيئات . وهل يختص هذا المحو في أيامنا في الحياة الدنيا ، الجواب لا ، إذ يستمر بعد مغادرة الإنسان الحياة الدنيا ، من جهات :

الأولى : ثناء الحسنات بعد الممات بفضل من الله عز وجل .

الثانية : منافع الدعاء لما بعد الموت ، ومنها سؤال العفو والمغفرة ، والنجاة من ضغطة القبر ، ومساءلة منكر ونكير .

الثالثة : دعاء الذرية والمؤمنين واستغفارهم للميت .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (قال : كان في بني إسرائيل عابد فأوحى الله تعالى إلى داود أنه مرأى قال: ثم إنه مات ولم يشهد جنازته داود عليه السلام .

(١) سورة يس ١٢.

(٢) سورة الأنعام ١٦٠.

قال: فقام أربعون من بني إسرائيل فقالوا: اللهم لا نعلم منه إلا خيرا، وأنت أعلم به منا فاغفر له .

فلما وضع في قبره قاموا أربعون غيرهم وقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيرا وأنت أعلم به منا فاغفر له .

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ما منعك أن تصلي عليه ؟ قال: الذي أخبرني به عنه، قال : فأوحى الله إليه أنه قد شهد له قوم فأجزت شهادتهم وغفرت له، وعلمت ما لا يعملون^(١).

ومحو الذنوب بعد الممات للإطلاق في قوله تعالى ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢).

وتقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : يمحو الله ما يشاء من الذنوب في حياة العبد .

الثاني : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بعد وفاة العبد وفي عالم البرزخ .

الثالث : يمحو الله ما يشاء من الذنوب يوم القيامة .

وما يمحوه الله يوم القيامة هو الأكثر والأعظم .

وقال التابعي (قيس بن عباد : العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب يعني اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل)^(٣) ولا أصل لهذا القول وتعيين مخصوص لمضمون آية المحو ، ففي كل طرفة عين يمحو الله ما لا يحصيه إلا هو من الوقائع والأحداث والحسد والنحوسة أو الفتن ومقدمات الإبتلاء والقحط والفقر والضرر وغيرها ، ومنه محو الذنوب عن الأحياء والأموات .

(١) البحار ١٥٠/١٠٢.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٢٩٦/٧.

الحمد لله على النعم التي قسمها لنا من غير استحقاق منا ، وزاد عليها من فضله أضعافاً مضاعفة ، وقد ورد قوله تعالى ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ في الآية ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١).

وعن ابن عباس (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أقرض أخاه المسلم فله بكل درهم وزن أحد وثبير وطور سيئاء حسنات .

لتبين الآية الحسن الذاتي والنفع العام والآجل للإقراض والإنفاق للإنفاق في سبيل الله.

وهل تختص الأضعاف الكثيرة بالقرض ، الجواب لا ، إذ يشمل الإحسان والرحمة والعفو والإقالة ، وإخراج الزكاة ، والخمس ، والحقوق الشرعية ، وأعمال البر .

فمن فضل الله عز وجل جعله الحياة الدنيا دار الحسنات ومضاعفتها ، ويدل الحديث النبوي أعلاه على أن أضعاف القرض ونحوه من أعمال البر لا يقدر على إحصائها إلا هو سبحانه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾^(٢).

الحمد لله على آلائه في الآفاق وفي النفوس ، ومنها تفضله بخلافة الإنسان في الأرض بقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) هذه الآية الجامعة للآفاق والنفوس وتعاقب السنون .

لتغبط الخلائق الناس على اختصاصهم بهذه النعمة ، ولييان أن الله عز وجل يهب النعم العظيمة ، ومنها خلق آدم في الجنة ، ونفخ الله عز وجل فيه

(١) سورة البقرة ٢٤٥.

(٢) سورة النبأ ٢٩.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

من روحه، وبسط وتوالي الرزق على الأجيال المتعاقبة من ذريته، وتحتمل أسباب هداية الناس لأداء الفرائض العبادية وجوهاً :

الأول : موضوعية الخلافة في الأرض .

الثاني : النفخ في آدم من روح الله لبقاء هذا النفخ عند أجيال الناس جبلاً يجعل روح الإنسان متصلة مع مقام الربوبية .

الثالث : هداية الناس للعبادة آية من عند الله سبحانه .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، ولكن الذين كفروا اختاروا الجحود والعناد والصدود .

الحمد لله الوهاب الذي عطاؤه غير محدود ، وأيهما أكثر هبات الله بالسؤال أم هباته من غير سؤال ، المختار هو الثاني ، إذ تتزاحم وتتدافع الهبات والعطايا من الله في كل دقيقة بما لا يسعه وقت السؤال وطلب الحاجة .

ويعجز الإنسان عن إحصاء الهبات بل وعن معرفتها وإدراكها ، وهل تعرض عليه يوم القيامة ، الجواب نعم ، وهو من أسرار صيرورة هذا اليوم ﴿كَأَنفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١) وقال تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٢).

سبحان الله الذي جعل رزق العباد في السماء ذات المكان الذي خلق فيه آدم وحواء ، ونفخ من روحه في آدم ، لبيان فضل الله بأن آدم لم يهبط إلى الأرض إلا وقد ضمن الله له ولذريته رزقهم في السماء ، قال تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(٣) وفيه مسائل :

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة ق ٢٢.

(٣) سورة الذاريات ٢٢.

الأولى : تجليات عظيم سلطان الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(١).

الثانية : بيان الصلة والاتحاد الموضوعي بين السماء والأرض .

الثالثة : فضل الله بكتابة وتهيئة أرزاق الناس من قبل أن يخلق آدم .

الرابعة : بيان قانون اللطف الإلهي بتهيئة الرزق للإنسان قبل أن يخلق .

الخامسة : قانون دعوة الإنسان لعبادة الله عز وجل بعد ضمان رزقهم في السماء .

السادسة : وجوب شكر الناس لله عز وجل ، ونسأله تعالى أن يجعل كتابة أجزاء التفسير هذه وبلوغها مائتين وثمانية وستين جزء من الشكر لله عز وجل وأن يتفضل علينا بإصدار أجزاء أخرى .

السابعة : ليس من قوة وسلطان في الأرض يستطيع منع أرزاق الناس ، فالسما والارض ملك طلق لله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^{(٢)(٣)}.

الثامنة : قانون الرزق في الأرض كالمال والأنعام والغلات مما هو مكتوب للناس في السماء .

التاسعة : من الرزق في السماء نزول المطر فينتفع منه البر والفاجر ، قال تعالى ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

(١) سورة الذاريات ٥٨.

(٢) سورة آل عمران ١٨٩.

(٣) لقد صدر الجزء السادس والعشرون بعد المائتين من هذا السفر خاصا بتفسير هذه الآية.

العاشرة : في إخبار القرآن بأن رزق الناس في السماء بشارة فتح خزائن وكنوز ومعادن السماء والكواكب للناس ، ووفرة الأمطار .

لذا يمكن تقسيم الرزق إلى قسمين :

الأول : الرزق الأرضي ، وهو على شعبتين :

الأولى : الرزق المعلوم .

الثانية : الرزق من الغيب .

الثاني : الرزق السماوي ، وهو من علم الغيب ، ولا يعلمه إلا

الله عز وجل .

وأيهما أكثر ، الجواب كل منهما كثير ولا متناهي ولا يحصيه إلا الله ، نعم الرزق السماوي أضعاف مضاعفة للرزق الأرضي ، والرزق الغيبي أضعاف الظاهر والمعلوم منه .

وهل منه السباق الدولي المحموم للصعود في الفضاء في هذا الزمان ، الجواب نعم .

الحادية عشرة : تأكيد أن السموات ملك طلق لله عز وجل ، لا مشيئة فيها لسكانها من الملائكة .

الثانية عشرة : إكرام الله عز وجل للناس بادخار ونزول رزقهم من السماء .

الثالثة عشرة : ترغيب الناس بالدعاء ، وسؤال الرزق الكريم من عند الله عز وجل .

الرابعة عشرة : زجر الناس عن الخلاف والخصومة بخصوص الرزق ومن غير تفريط ، وفي التنزيل ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(١) .

الخامسة عشرة : قلة وضآلة نسبة الأرض إلى سعة السماوات السبع ، والأجرام السماوية المرئية فقط .

(١) سورة الروم ٢٤ .

(٢) سورة النحل ٩٦ .

فالأرض جزء من النظام الشمسي الذي هو جزء من مجرة درب التبانة التي تضم أكثر من مائة مليار نجم ، وأكثر من مائة مليار كوكب .

ومن الإكتشافات العلمية ما قيل باستغراق دورة الشمس حول حركة مجرة درب التبانة في (٢٣٠) مليون سنة ، وهو من بديع صنع الله ، ودعوة للإنسان والناس مجتمعين لمعرفة ضآلة وجودهم وأثرهم في الكون ، ولزوم التطامن من خشية الله .

وقد وصفت آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يُنْسِ الْيَهُادُ﴾^(١) كثرة أسفار الذين كفروا بأنها متاع قليل بلحاظ فضل الله وإنقطاع أيام الإنسان في الحياة الدنيا ، جيلاً بعد جيل مع تبدل الحال بأشراقه شمس الإسلام ، وهداية الناس ، وصيرورة القلب في البلاد بطاعة الله عز وجل .

لقد أقسم الله عز وجل بأن رزق الناس مقدر ومعلوم وحاضر ومضمون في السماء لا تصل إليه الأيدي ، وأن صعدوا في الفضاء وبلغوا بعض الأفلاك ، إذ قال تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(٢) وفيه دعوة لإقبال الناس على عبادة الله عز وجل شكراً وإقراراً بعظيم سلطانه .

ولكن الآية لا تدعو إلى القعود والخمول ، بل إنها وآيات القرآن الأخرى تدعو إلى السعي والكسب ، منها قوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٢) سورة الذاريات ٢٢ .

(٣) سورة الجمعة ١٠ .

وجاء قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(١) بصيغة الأمر لوجوب السعي والعمل في المكاسب المتعددة ، وقيل أن الأمر هنا بمعنى الإباحة لجلب الرزق ، ووردت أحاديث عديدة في السنة النبوية تبث على طلب الرزق بالعمل منها قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه)^(٢).

وهل في طلب الرزق ثواب ، الجواب نعم ، ويجوز أن يطلب امتثالاً لأمر الله لإفادة قصد القرية في المستحبات وما فيه من الثواب العظيم .

ويبين قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾^(٣) ، بأن نزول المطر من رزق الله للناس المدخر في السماء للأجيال ، وأنه أصل تنفر عنه الزراعة والصناعة وتوفير الغذاء لأهل المدن والقرى ، واستدامة الحياة . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (التمسوا الرزق في خبايا الأرض)^(٤).

وذهب المفسرون إلى أن المراد الحرث والحفر ، ولكن جاء العلم الحديث والتطور الصناعي ليبين أن من مصاديق الحديث إخراج كنوز الأرض من النفط والغاز والمعادن النفيسة مما هو مخبوء ومستور في باطن الأرض .

(١) سورة الجمعة ١٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/١٣.

(٣) سورة ق ٩.

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ١٠٦/٢.

اللهم ارزقنا رزقاً كريماً متصلاً بفضل ولطف ورأفة منك ،
وانت سبحانك القائل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ
كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^(١).

ومن أسمى العلوم علم التفسير، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه
وهو القواعد الكلية التي تتخذ وسائط وسبلاً لاستنباط الأحكام
الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة والإجماع
والاستفادة منها.

وهذا الجزء الذي بين يديك هو **الثامن والستون بعد المائتين**
من تفسيري للقرآن (معالم الإيمان في تفسير القرآن) ويختص بتفسير
الآيتين ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزِّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(٢)، وهما من أواخر آيات سورة آل عمران .

وكله تأويل واستقراء واستنباط من مضامين ذات الآيتين مع
تأسيس (٢٤١) قانوناً في المقام ، وكل قانون منها مدرسة ، وهو من
لطف الله عز وجل وفيه بيان لقانون علوم القرآن من اللامتاهي ،
وفي التنزيل ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

حرف في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ١٤٤٧
٢٠٢٥/٩/٥

(١) سورة الإسراء ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٧-١٩٨.

(٣) سورة النحل ١٨.

قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

الآية ١٩٧ آل عمران

الأعراب واللغة

متاع : خبر لمبتدأ محذوف أي عيشهم متاع ، مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

قليل : صفة مرفوعة وعلامة رفعها الضمة الظاهرة على آخرها .

ثم : حرف عطف للتراخي .

مأواهم : مأوى : مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر ، والهاء في محل جر بالإضافة .

جهنم : خبر مرفوع بالضمة .

وبئس : الواو حالية ، بئس : فعل ماض لإنشاء الذم .

المهاد : فاعل مرفوع بالضمة ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره : جهنم .

والمَتَاعُ الشئ القليل الذي ينتفع به إلى أجل محدود .

والمَأْوَى : الملجأ والملاذ ، اسم مكان من أوى ، والمهاد : الفراش .

(وقد مَهَّدْتُ الْفِرَاشَ مَهْدًا: بَسَطْتُهُ، وَوَطَّأْتُهُ)^(١) .

في سياق الآيات

صلة آية البحث بالآيات الأربعة السابقة لها :

الوجه الأول : صلة آية البحث بالآية السابقة ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا

فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) وفيها مسائل :

(١) الصحاح في اللغة ٢/ ١٨٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

المسألة الأولى : آية البحث مدد وعون للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وعموم المسلمين ، فبعد أن أخبرت الآية السابقة عن تقلب الذين كفروا في البلاد ، وكثرة أسفارهم واحتمال صيرورة هذا التقلب سبباً للإفتتان بهم كثرة وتوالي النعم عندهم ، وذات التقلب في البلاد نعمة وسبب لكسب قريش الأموال ، لأنهم لا يتنقلون بين البلدان للسياحة مثلاً ، إنما يقومون بالتجارة والكسب ، وتسيير قوافل التجارة ، فمثلاً قافلة أبي سفيان التي ادعت قريش أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه تعرضوا لها ، وأرادوا الإستيلاء عليها ، كانت مؤلفة من ألف بعير محملة بمختلف البضائع ، وقد شارك فيها وبرأس مالها عامة أهل مكة ، مما يدل على كثرة أموالهم ، وهي من الشواهد على تقلبهم في البلاد والضرر العام لهذا التقلب لاتخاذها مادة للفتنة وسبباً ومقدمة للقتال يوم بدر .

المسألة الثانية : إن قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ إبطال لسحر وبريق تقلب الذين كفروا في البلاد ، إذ وصفة الآية هذا التقلب بوصفين : الأول : المتاع : وهو ما ينتفع به مما يكون قريباً من الناس ، فأى إنسان قد يستطيع بذل الجهد والوسع لنيل المتاع .

الثاني : قلة ما في أيدي الذين كفروا ومنه تقلبهم في البلاد ، وفيه بشارة زوال الجاه ونعمة كثرة الإسفار عند كفار قريش بشروق شمس الإسلام على ربوع الجزيرة .

وتقدير الجمع بين الآيتين : لا يغرنك متاع الذين كفروا القليل . المسألة الثالثة : آية البحث تعزيد وتأکید للنهي الوارد في آية السياق ، وفيه تيسير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالتقيد بالنهي عن الإغترار بالذين كفروا ، وتقلبهم في البلاد ، فما كان متاعاً قليلاً لا تميل إليه النفوس ولا يستحق ترك حلاوة الإيمان بسببه .

فمن معاني الجمع بين الآيتين قانون تعزيد آية الأوامر والنواهي بالآية التي تليها ، وهو من إعجاز نظم القرآن .

المسألة الرابعة : آية البحث مادة للإحتجاج على الذين كفروا ، وإذ تضمنت الآية السابقة نهى المسلمين عن الإغترار بالذين كفروا في قلوبهم في البلاد وكثرة أسفارهم فإن آية البحث عون للمسلمين للإحتجاج عليهم من وجوه:

المسألة الخامسة : لقد ذكرت الآية السابقة كثرة أسفار الذين كفروا ، وهو شاهد على كثرة أموالهم وانشغالهم بها ، وتسخيرهم لها في المعاصي ، واللهو والملذات ، بينما ذكرت آية السياق انقطاع المؤمنين إلى الدعاء ، وأكثرهم الفقراء خاصة أيام التنزيل .

وقد وصفهم القرآن بالإستضعاف تارة وبالقلة أخرى ، وبالذل والضعف بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَتَمُّ إِذْ لَقُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾^(١).

لماذا متاع قليل

ليكون نعت آية البحث كثرة الأسفار بأنها متاع قليل ، وهو إعجاز من وجوه :

الأول : مواساة المسلمين .

الثاني : دعوة المسلمين للصبر .

الثالث : قانون زجر القرآن عن الإفتتان بالذين كفروا سواء بكثرة أسفارهم وأموالهم ، أو ما عندهم من الجاه والسلاح والأتباع والخدم والسلطان .

الرابع : قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ بشارة زوال النعم عن الذين كفروا ممن حارب النبوة والتنزيل بالسلاح والمال والتنقل في البلاد لتحريض القبائل وجمع الرجال لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد والخندق وحنين .

الخامس : آية البحث بشارة قرب نصر وظهور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن معاني قلة المتاع سرعة الزوال ، وليس من حصر

لمصاديق هذه السرعة منها معارك الإسلام الأولى والتي كان المشركون هم الغزاة فيها فرماهم الله عز وجل بسرعة زوال النعم ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾^(١).

أما ذكر آية البحث ليوم القيامة فقد ورد بذكر النار مثوى للذين كفروا ، بعد أن كانوا يكثرون من السفر في البلاد بلهو وبهجة .
فان قلت هل كثرة الأسفار مع صيغة الكفر تستلزم دخول النار ،
الجواب نعم .

فيه وجوه :

الأول : قانون مغادرة الدنيا على الكفر والجحود يدخل صاحبه النار .
الثاني : قانون بعث القرآن الناس للإيمان .

الثالث : قانون وجوب السعي لإكتساب الحسنات ودخول الجنة ، فنذكر في علم الفقه والأصول الأحكام التكليفية الخمسة ، الوجوب ، الندب ، والإباحة ، والكرهية ، والحرمة .

ولم يذكر وجوب السعي لدخول الجنة ، لأن التقيد بالأحكام التكليفية يقود إلى الجنة ، ويبعد عن النار ولأن التكليف عمل وجهد ، قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّنُ أَجُورُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢).

الرابع : ذات الموت على الكفر يدخل صاحبه النار ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ يُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلُّ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف ٤٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران ٩١.

تأسيس علم الآخرة

قد صدر بفضل من الله عز وجل الجزء الثالث من كتابي (معراج الأصول) وهو من تقارير بحثي الخارج في الأصول على فضلاء الحوزة العلمية من سنة (٢٠٠٠) للميلاد ، نسأل الله عز وجل القبول واستدامة النعم والنفع العام بها ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾^(١).

وموضوع كل علم المسائل التي تتعلق بعوارضه الذاتية ، فمثلاً موضوع علم الطب بدن الإنسان والصحة والمرض والوقاية والعلاج .
وموضوع علم النحو الكلمة وتكوين الجملة ، وقواعد الإعراب ،
وموضوع علم الفقه الأحكام التكليفية الخمسة ، والحلال والحرام ، بينما يختص علم أصول الفقه بالقواعد والضوابط الكلية الفقهية .
ويبحث علم المنطق القواعد العامة للتفكير السليم ، وهو آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير وموضوعه : التعريف والإستدلال ومناهج وصيغ البحث .
وأؤسس هذا اليوم لعلم جديد في استقلاله وهو (علم الآخرة) ويبدأ هذا العلم بفصول منها :

الأول : الإستعداد لعالم الآخرة .

الثاني : البشارات والإنذارات لخصوص الآخرة .

الثالث : عالم البرزخ من حين دخول القبر ، بلحاظ أنه من عالم الآخرة.

الرابع : البعث من القبور عند النفخ في الصور .

الخامس : مواطن يوم القيامة ، طول يوم الحساب ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ

كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

(١) سورة هود ٦١.

(٢) سورة الحج ٤٧.

السادس : الخوض .

السابع : الشفاعة .

الثامن : العبور على الصراط .

التاسع : الميزان .

العاشر : ثم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١) في خلود دائم .

إنذار الذين كفروا

من معاني الجمع بين الآيتين اتحاد الموضوع ، وكأن آية البحث معطوفة على الآية السابقة .

ترى ما هي النسبة بين ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ قد يتبادر أن النسبة بينهما هي التساوي ، ولكن المختار أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق ، فمتاع قليل أعم ولا يختص بتقلب وتنقل وأسفار الذين كفروا ، وسيأتي مزيد من البيان في باب التفسير .

ابتدأت آية البحث بجملة اسمية بقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ وهل هي من ضمن الإخبار والنهي الموجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الآية السابقة والذي تلحق به الأمة بالإمتناع عن الإغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد ، الجواب نعم .

لإفادة آية البحث تأكيد مضامين الآية السابقة مع بيان إضافي ، فصحيح أن كثرة أسفار الذين كفروا متاع وتمتع إلا إنه سريع الزوال .

قلة كلمات الآيتين

من الإعجاز في آية البحث والسياق قلة كلمات كل منهما ، ولكن مضامينها قدسية وذات دلالات يدركها كل إنسان ، وهو من إعجاز القرآن بتعدد معاني الكلمة القرآنية الواحدة ، وأنها من جوامع الكلم .

لقد اتصفت الآيات والسور المكية قبل هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بالقصر مع تضمنها الوعد والوعيد ، وتخويف الذين كفروا لإقامتهم على الكفر وعبادتهم الأوثان ، وذم الذين غادروا الدنيا على عبادة الأوثان.

وهذا الذم من أسباب سخط رجالات قريش ، وعزمهم على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه ليلة الهجرة ، لأنهم ظنوه شتماً لأبائهم .

إنما هو بيان حكم سماوي مطلق يشمل أفراد الزمان الطولية ما قبل البعثة النبوية ومدتها وما بعدها ، ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^(١). وبعد الهجرة ونصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في معركة بدر وأحد صارت تنزل آيات الأحكام ، وقوانين الشريعة السمحاء ، إلا أن هذا لم يمنع من مجئ الآيات العظيمة التي تتضمن الوعد كما في آية البحث والآية السابقة لها التي جاءت خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واخباراً عن سرعة زوال النعم التي عند الذين كفروا . وتبين كل من آية البحث والآية السابقة بديع قدرة الله بايصال المعارف العالية إلى الناس بكلمات قليلة ، ومنه إحاطة كلمات القرآن المحدودة باللامحدود من الوقائع والأحداث ، وإلى يوم القيامة .

الوجه الثاني : الصلة بين آية البحث بالآية قبل السابقة

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا

(١) سورة الأنبياء ٩٨.

وَقَتُلُوا لَآكْفَرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَدْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ^(١).

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : بيان التباين الموضوعي بين الآيتين ، فيبينما تتضمن آية البحث ذم الذين كفروا ، والإخبار بأن كثرة أسفارهم وضربهم في الأرض متاع زائل لن يدوم كثيراً ، فإن آية السياق ذكرت بالثناء المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤدون الفرائض العبادية .

وأخبرت عن استجابة الله عز وجل لهم ، وفيه شاهد على التضاد في الدنيا بين المؤمنين والذين كفروا ، إذ تأتي الإستجابة من الله عز وجل للمؤمنين بينما ينزل الإنذار للذين كفروا.

وهل يخص الثناء على المؤمنين في الآيات المتقدمة بالمواظبة على أداء الفرائض ومنه إقامة الصلاة بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

الجواب ذكرت الصلاة لأنها عمود الدين ، وتدل إقامتها على تعاهد سنن الشريعة لقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٣) ، وليبيان قانون الصلاة فرض على المؤمنين من أيام أدينا آدم ، وليس من نبي إلا وجاء بوجوب أداء الناس للصلاة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة آل عمران ١٩١.

(٣) سورة العنكبوت ٤٥.

(٤) سورة النساء ١٠٣.

وعن الإمام علي عليه السلام (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم ، فان صحت نظر في عمله، وإن لم تصح لم ينظر في بقية عمله)^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام (الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الاوتاد والاطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب)^(٢).

المسألة الثانية : ابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بينما ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ وفيه بعث للشوق في النفوس للإيمان ، وبيان ما يمتاز به من المنافع بالفوز باستجابة الله عز وجل لدعاء المؤمنين ، وقضاء حوائجهم ، بينما يكون الكفر والضلالة برزخاً دون استدامة النعم .

ومن فضل الله عز وجل على الخلائق أنه يعطي بالآتم والأوفى ، إذ وردت الإستجابة في آية السياق لأدعية ومسائل متعددة من أدعية المسلمين ، وذكرت في الآيات الأربعة المتقدمة .

وهل توجهوا بالدعاء في هذه الآيات في مجلس واحد ، الجواب لا ، لبيان إحصاء الله لأدعية المسلمين في كل زمان ، وجمعها في آيات متعددة ، ونزول الإستجابة لها دفعة واحدة مع الزيادة على هذه الإستجابة كما تبينه آية السياق بأخبارها عن حفظ الله عز وجل لكل عمل صالح قام به المسلم أو المسلمة ، مع حفظ دعائه ، وأن الله تعالى يثيب الذين هاجروا من ديارهم لسلامة دينهم ، والذين دافعوا عن النبوة والتنزيل .

المسألة الثالثة : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء واختبار ، وتفضل وأخبر بأنها إلى زوال وانقطاع بخلاف الآخرة التي تتصف

(١) البحار ٢١٨/٧٩ .

(٢) البحار ٢١٨/٧٩ .

بالدوام والخلود ، قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(١) أي أن الآخرة هي الحياة الباقية والدائمة .

وعن الإمام الباقر عليه السلام (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان ، وهو يسعى لدار الغرور)^(٢).

ويبين الجمع بين الآيتين تضاد المنازل يوم القيامة بين المؤمنين والذين كفروا بصيرورة الحياة الدنيا مرآة للآخرة ، إذ تخبر آية البحث عن سرعة زوال نعم الذين كفروا ثم إقامتهم الدائمة في النار .

بينما يتخذ المؤمنون من الحياة الدنيا وعاء ومناسبة للعمل الصالح والدعاء والذي يدل على التسليم بأن مقادير الأمور بيد الله عز وجل وأنه تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وتفضل الله عز وجل بآية البحث لبعث النفرة في النفوس من الكفر ومفاهيمه ، وتفضل بآية السياق للترغيب بالإيمان وسبل الصلاح . وفيها وجوه :

الأول : قانون سرعة الإستجابة ، ابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابْ﴾ .

وذكر أن (الفاء) في (فاستجاب) للإستئناف ، والمختار أنها للعطف والإستئناف للإتصال الموضوعي والسبب والمسبب .

الثاني : استجابة الله عز وجل لأدعية المؤمنين فضل ورحمة منه تعالى ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

الثالث : إن الله عز وجل يعطي بالأتم والأوفى مع الزيادة والفضل .

(١) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٢) سورة .

(٣) سورة الأعراف ٥٦ .

وقد أخبرت آية السياق عن استجابة الله عز وجل للمؤمنين .
ويحتمل تقدير الآية وجوهاً :

الأول : فاستجاب لهم ربهم في في أدعيتهم في هذه الآيات .

الثاني : فاستجاب لهم ربهم في أدعية أخرى .

الثالث : فاستجاب الله عز وجل لهم في أدعية في الزمن اللاحق
للإستجابة والله عز وجل يعلم حالهم وعملهم وأدعيتهم من قبل أن يخلق
آدم عليه السلام .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق آية السياق .

وورود الفعل استجاب ثلاث مرات في القرآن ، وتتصف بمسائل :

الأولى : بيان قانون لا يقدر على الإستجابة العظمى إلا الله عز وجل .

الثانية : مجئ الضمير المتعدد ، مرة فاستجاب لهم بصيغة الغائب ، كما
في آية السياق ، وأخرى بصيغة لغة الخطاب للمسلمين يوم معركة بدر بقوله
تعالى ﴿ فَاسْتَجَابْ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾^(١) .

الثالثة : الإستجابة للنبي يوسف عليه السلام بصيغة المفرد ، والقضية
الشخصية ، قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
وَهَلْ استجابة الله عز وجل ليوسف خاصة به ، أم أنها وردت في القرآن
من باب المثال والمراد إستجابة الله الفورية للأنبياء .

الجواب هو الثاني ، وفيه شواهد عديدة من قصص الأنبياء في القرآن ،
منها في آدم عليه السلام ، قال تعالى ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

(١) سورة الأنفال ٩ .

(٢) سورة يوسف ٣٤ .

إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١) وفي نوح قال تعالى ﴿وَوَحَا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^(٢)﴾

في إبراهيم ورد في التنزيل ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ^(٣) .

فمع حاجة إبراهيم للولد خاصة مع تقدمه في العمر فانه لم يطلب الولد مجرداً بل في صفات خاصة بأن يكون من الصالحين لعلمه بأن أفعال العباد بيد الله عز وجل ، وهو الذي يهدي من يشاء ، وفي دعاء يونس عليه السلام واستجابة الله ، قال تعالى ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ^(٤)﴾ وورد ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ بحرف الفاء الذي يفيد التعقيب والفورية.

وفي موسى ورد قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى^(٥)﴾ ، ومما استجاب الله عز وجل لعيسى عليه السلام نزول المائدة من السماء ،

(١) سورة البقرة ٣٧.

(٢) سورة الأنبياء ٧٦.

(٣) سورة الصافات ١٠٠-١٠١.

(٤) سورة الأنبياء ٨٧-٨٨.

(٥) سورة طه ٢٥-٣٦.

وفي التنزيل ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَنَنْ يَكْفُرُ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

الرابعة : سرعة الإستجابة من عند الله ، ويتجلى بلحاظ الجمع بين آية البحث وآية السياق أعلاه التباين بين المتاع القليل للذين كفروا ، وبين نعمة الإستجابة التي فاز بها المؤمنون .

آية السياق نعمة عامة

تبلغ عدد كلمات آية السياق أربعين كلمة ، بينما تبلغ كلمات آية البحث ست كلمات ، لبيان أن كثرة كلمات آية السياق وما فيها من الإستجابة للمؤمنين نعمة أخرى ، وبيان لفضل الله عز وجل عليهم .

وبينما جاءت آية البحث بصيغة الإنذار للذين كفروا تضمنت آية السياق البشارة المتعددة للمؤمنين ، وهو من التمايز والتضاد بين المؤمنين والذين كفروا في الحياة الدنيا ، ليكون مقدمة للتباين بينهم في لبث المؤمنين الدائم في الجنة ، وإقامة الذين كفروا في النار ، وهو الذي أخبرت عنه آية البحث بقوله تعالى ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢).

وتضمنت آية السياق مسائل :

الأولى : ابتدأت الآية بالإخبار عن إستجابة الله عز وجل لأدعية المؤمنين ، وإخبار القرآن حق وصدق ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (٣) .

(١) سورة المائدة ١١٥.

(٢) سورة آل عمران ١٩٧.

(٣) سورة فصلت ٤٢ .

الثانية : أخبرت آية السياق أن الله عز وجل هو الذي استجاب للمؤمنين لبيان إنعدام الوساطة بين الله عز وجل وبينهم ، وليس من حاجب يحول دون مصاديق استجابة الله عز وجل للمؤمنين ، وفيه خزي للشيطان وللذين كفروا .

الثالثة : قانون اقتران الإستجابة بالوعد من عند الله عز وجل ، ولا يقدر على كل منهما إلا الله عز وجل ، وكذا في إجتماعهما ، فبعد قوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾^(١) ، بصيغة الغائب انتقلت الآية إلى لغة الخطاب ، وهو المسمى في إصطلاح البلاغة بالإلتفات بقوله تعالى ﴿ أَنِّي لَأُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ... ﴾^(٢) .

النسبة بين الإستجابة والوعد

النسبة بين الإستجابة والوعد في آية السياق العموم والخصوص المطلق ، فالوعد هنا أعم ، فيأتي الوعد ابتداء من عند الله وثواباً على عمل الصالحات ، كما يأتي استجابة لدعاء الصالحين ، وتترتب الإستجابة على الدعاء والمسألة ، فسواء سأل المؤمنون الله عز وجل الثواب ، وقصدوا القربة في كل عمل لهم ، أو لم يقصدوها فإن الله عز وجل لا يضيعه إنما يكتبه لهم ، ومنه على سبيل المثال قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٣) .

وعن (ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تصدقوا فإن أحدكم يعطي اللقمة أو الشيء فتقع في يد الله عز وجل قبل أن

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٦١ .

تقع في يد السائل ، ثم تلا هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾^(١) فيريها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله فيوفيه إياه يوم القيامة^(٢).

وجاءت آية السياق بصيغة الجمع لتشمل المؤمنين من الأولين والآخرين ، وتشمل أدعية الأنبياء ، وكان إبراهيم عليه السلام رجلاً دعاءً ، ومنهم خاتم النبيين الذي توثقت أدعيته في القرآن والسنة .
لبعث المسلمين على الإجهاد في الدعاء ، فهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣).

موضوع آية البحث هم الذين كفروا ، والمندوحة والسعة التي عندهم في أيامهم في الدنيا وتفريطهم بها بامتناعهم عن الإيمان الذي هو شرط لازم لاستدامة النعم ، لبيان قانون اختيار الكفر مانع من دوام النعم ، قال تعالى ﴿لَنْ شُكِرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٤).

ليكون من مفاهيم آية البحث الترغيب بالإيمان ، فليس من عاقل إلا ويسعى لجلب المنفعة ودفع الضرر عن نفسه .
ومن خصائص القرآن أنه كلام الله ، وكتاب الوعد الكريم ، والإستجابة في أمور الدنيا والآخرة .

وجعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الوعد ، ودار الإستجابة لبيان تعدد وكثرة الأبواب التي ينتفع منها المؤمن في الحياة الدنيا والآخرة .
وأخبرت آية البحث بأن تقلب الذين كفروا في البلاد نعمة زائلة ، ومن معاني نعتها بأنها متاع قليل عدم توارث الكافرين لها ، منها كثرة النعم في

(١) سورة التوبة ١٠٤.

(٢) الدر المنثور ١٥٧/٥.

(٣) سورة الأحزاب ٢١.

(٤) سورة إبراهيم ٧.

الدنيا كامال والجاه الذي يرثه الابن عن الأب ، والجماعة والطائفة عن الأخرى ، فأخبرت آية البحث عن قانون الكفر برزخ دون توارث النعمة . لقانون بعث الآية القرآنية الخيبة والقنوط واليأس في قلوب الذين كفروا لقانون ملازمة الخيبة للكفر ، وتدل عليه خاتمة قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَقًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١) فمن لم يسارع إليه الموت والهلاك من الذين كفروا تصاحبه الخيبة والحسرة والأسى .

وصحيح أن سبب نزول الآية أعلاه هو واقعة أحد ، ولكن موضوعها أعم ، ومضامينها متجددة إلى يوم القيامة .

ومع أن آية البحث مدنية ، نزلت في المدينة بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إليها ، فهي تشبه الآيات المكية من جهات :

الأولى : قلة كلمات الآية وعددها ست كلمات .

الثانية : لغة الإنذار والتخويف في الآية .

الثالثة : الإخبار عن سوء عاقبة الذين كفروا .

وهل كل تقلب في البلاد متاع قليل ، الجواب لا ، إنما يخص موضوع وحكم الآية الذين كفروا ، لبيان قانون وراثته المؤمنين نعمة التقلب في البلاد ، واستدامة هذه النعمة بالإيمان ، وهو من مصاديق قانون التضاد بين الإيمان والكفر في الدنيا ، ليكون هذا التضاد مقدمة ومرآة للتضاد والتناقض الجلي والبين في الإقامة الدائمة في الآخرة ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾^(٢) وقال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة هود ١٠٦.

(٣) سورة هود ١٠٨.

ومن معاني سعدوا في الآية أعلاه استدامة نعمة القلب في البلاد والضرب في الأمصار في الحياة الدنيا ، مع تعظيم شعائر الله وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعادة العظمى دخول الجنة واللبث الدائم فيها ، وهل تشمل السعادة المؤمن في عالم البرزخ ، الجواب نعم .

قانون الإستجابة على الفور

ابتدأت آية السياق بالفاء التي تفيد التعقيب والإخبار بأنه ليس من فترة بين دعاء المؤمنين وبين إستجابة الله عز وجل لدعائهم المتعدد في الآيات السابقة ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤ من سورة آل عمران.

فان قلت لم تذكر هذه الآيات المؤمنين ، الجواب لقد ذكرتهم بالملازمة والعلامة بتفكرهم في خلق السموات والأرض من منازل الإيمان ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١) لبيان أن التفكير في بدائع الخلق من مصاديق الإقرار بالتوحيد والتسليم بالعبودية لله عز وجل .

وحياة الإنسان إذا كانت مملوءة بالتفكر في الخلائق بما يتضمن الإقرار بالتوحيد ، وأن الله عز وجل ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) وبأداء الفرائض العبادية وباللجوء فانها ليست متاعاً قليلاً ، وفيها نجاة من عذاب النار .

ومن مصاديق عظيم قدرة الله أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ووجه للعباد ودوام فضله على الناس ، وسرعة استجابته تعالى للدعاء ، لتكون آية البحث دعوة لزيادة الإيمان وحسرة في قلوب الذين كفروا ، وهو الذي يتجلى بالجمع بين قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(٣) ، وبين متاع قليل ، فالذين استجاب الله لهم أعم من الذين يسألون الله عز وجل أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يؤتهم ما وعدتهم على السنة الرسل الذين بعثهم الله عز وجل

(١) سورة آل عمران ١٩١.

(٢) سورة الأنعام ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

فلا تكون أيامهم في الحياة الدنيا متاعاً قليلاً ، ولا النعم التي يتنعمون بها متزلزلة أو سريعة الزوال ، قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾^(١) .

لتكون الدنيا دار الفضل من الله ، واستجابته الدعاء على الفور ، وفي التنزيل ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٢) إذ تدل الآية على عدم وجود فترة بين الدعاء والإستجابة .

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾^(٣) وفيها مسائل :

المسألة الأولى : من إعجاز الجمع بين آية البحث وآية السياق ذكرهما لعالم الآخرة ولكن مع التباين الموضوعي والحكمي ، وقد تقدمت آية السياق في نظم القرآن لتذكر الأمن من الخزي يوم القيامة ، وبصيغة الدعاء من المسلمين .

وهل يدل سؤال المسلمين الله عز وجل السلامة من الخزي يوم القيامة وبصيغة الدعاء وتلاوة القرآن في الصلاة وخارجها ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ على سؤال دخول الجنة ، الجواب نعم من جهات :

الأول : قانون إنتفاء البرزخ بين الجنة والنار ، قال تعالى ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾^(٤) .

(١) سورة غافر ٥١ .

(٢) سورة غافر ٦٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٤ .

(٤) سورة الشورى ٧ .

الثاني : مجئ آيات تتضمن أن وعد الله عز وجل للمؤمنين هو دخول الجنة ، قال تعالى ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(١).

الثالث : ورود أحاديث نبوية في استجابة دعاء المؤمنين بالفوز بالجنة .
(و) عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، أنت المنان بديع السماوات والأرض ، ذو الجلال والإكرام ، أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لقد كاد يدعو الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى^(٢).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (عن أبيه عن جده علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله : صلاتكم علي ، مجوزة لدعائكم ، ومرضاة لربكم ، وزكاة لأبدانكم).

وبهذا الاسناد قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله : اربع جعلن شفعاء : الجنة ، والنار ، والخور العين ، وملك عند رأسي في القبر.

فاذا قال العبد من امتي : اللهم زوجني من الخور العين ، قلن : اللهم زوجناه.

واذا قال : العبد اللهم اجرني من النار ، قالت : الله اجره مني .
واذا قال : اللهم اسألك الجنة ، قالت الجنة : اللهم هبني له.

(١) سورة مريم ٦١.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ٤/٤٠٤ .

وإذا قال : اللهم صل على محمد وآل محمد ، قال الملك الذي عند رأسي : يا محمد ان فلان بن فلان صلى عليك ، فاقول : صلى الله عليه ، كما صلى علي^(١).

الصلة بين خاتمتي الآيتين

أخبرت آية السياق عن قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل لا يخلف الميعاد ، وأن وعده في القرآن حق وصدق ، وجاءت الآية بصيغة الخطاب والدعاء ، وقد ورد ذات المضمون بصيغة الإطلاق أربع مواضع من القرآن منها بخصوص أهل الجنة ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ مُنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾^(٢).

ليبان الوعد الأخروي بالجنة واللبث الدائم في النعيم حق .
وأما الوعيد بالعذاب فتطراً عليه الرحمة والمغفرة الإلهية والشفاعة لمن شاء الله عز وجل من عباده.

وجاءت خاتمة آية البحث بالتحذير والوعيد للذين كفروا بأن مواعدهم نار جهنم ، وأنه مضجع ونزل عذاب لقوله تعالى ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣).
فالذين كفروا مهدوا لأنفسهم هذا الفراش الذي يحشرون إليه بتقلبهم في البلاد برداء الكفر ، والتجاهر بالمعصية ، وتحريض الناس على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وإصرارهم على الجحود ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٤) لبيان التضاد والتناقض التام بين حال المؤمنين وحال الكافرين في الآخرة .

(١) الوسائل ٢٥٤/٥ .

(٢) سورة الزمر ٢٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٤) سورة البقرة ٢٠٦ .

كما تبين آية البحث أن الذين كفروا هم الذين اختاروا لأنفسهم سوء العاقبة ، وبعد إقامة الحجة عليهم من الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن الغيري بعث خاتمة آية السياق الغبطة والسرور في نفوس المؤمنين ، وهي دعوة لهم للإقامة في منازل الإيمان والاجتهاد في طاعة الله عز وجل ، وترغيب للناس بالتوحيد ، ونبد الكفر ومفاهيم الضلالة ، أما خاتمة آية البحث ففيها مسائل :

الأولى : إنذار وتخويف الذين كفروا .

الثانية : شهادة آية البحث في الآخرة على الذين كفروا .

فمن خصائص القرآن حضوره يوم القيامة للشهادة والحجة والإحتجاج ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢).

الثالثة : نهى آية البحث الذين كفروا عن الإقامة على الضلالة .

الرابعة : غياب لذة التنقل في البلاد عن الذين كفروا لإخبار آية البحث بأن هذا التنقل متاع قليل وزهو زائل يتعقبه عذاب أليم ، فمن إعجاز آية البحث عدم إكتفائها بالإخبار عن قلة متاع الذين كفروا في الدنيا بل أخبرت عن حكم إلهي يتعلق بعالم الحساب والجزاء لسوء عاقبة الذين كفروا .

الخامسة : بعث النفرة في نفوس المسلمين والناس جميعاً من الكفر والجحود ، وهو من مصاديق بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً للناس جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٣).

(١) سورة الأنعام ١٤٩.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

(٣) سورة سبأ ٢٨.

وجاءت خاتمة آية السياق لتثقل الناس من حال النفرة من الكفر إلى سبل الهداية والإيمان لقانون انتفاء البرزخ بين الإيمان والكفر ، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(١).

ومن معاني الجمع بين قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَخِفُّ الْمِعَادَ﴾^(٢) ، وبين ﴿مَا وَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبُشِّرَ الْمَهَادَ﴾^(٣) دخول الذين كفروا النار بمشيئة ووعيد من عند الله ، وليس في يوم القيامة من ملك ومالك إلا الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٤).

فمن مصاديق قانون التعضيد بين خاتمتي كل آيتين من القرآن تأكيد بشارة المؤمنين في خاتمة آية السياق لسوء عاقبة الذين كفروا ، ودعوة آية البحث الناس للهداية والإيمان ، هذه الدعوة التي تتجلى في منطوق ومفهوم كل آية قرآنية ، سواء كانت في الأحكام أو المعاملات أو قصص الأمم السابقة وما لاقاه الأنبياء من الأذى الشديد .

وهل منه كثرة أسفار الذين كفروا ، الجواب نعم ، لتسخيرهم هذه الأسفار في المعاصي ، وتكذيب النبوة والوحي وإعانة أعداء الأنبياء بالمال والجاه .



(١) سورة الحجرات ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٩٤.

(٣) سورة آل عمران ١٩٧.

(٤) سورة الحج ٥٦-٥٧.

قِلةُ كَلِماتِ الآيَاتِ

كل من آية البحث والسياق من سورة آل عمران ، وهي سورة مدنية ، ويلاحظ قلة كلمات الآيتين ، مما يدل على أن قصر الآيات لا يختص بالسور المكية وآياتها .

فهناك آيات في ذات السورة المدنية تتألف من بضع كلمات ولكن معناها عظيم منها الآية الأولى والثانية من سورة آل عمران ﴿م * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١) وأقصر آية في القرآن عدا الحروف المقطعة هي ﴿مُذَاهِمَاتَانِ﴾^(٢) وهي مكية.

ومنها الآية السابقة ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٣) والتي بخصوصها الجزء الخامس والستون بعد المائتين من هذا السفر مع قلة كلماتها ، وكله تأويل واستنباط من مضامين الآية ، وفيه (١٨٣) قانوناً . ومن فضل الله أقوم بتأليف أجزاء التفسير وكتبي الفقهية والأصولية والكلامية وتصحيحها ومراجعتها بمفردي والحمد لله . مع قيامي بتدريس البحث الخارج وتوالي الإجابة على الإستفتاءات ، ومن الآيات المدنية القصيرة ، قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٤) وقوله تعالى ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٥) . ومنها قوله تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٦) .

(١) سورة آل عمران ١-٢ .

(٢) سورة الرحمن ٦٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٦ .

(٤) سورة آل عمران ٤٨ .

(٥) سورة آل عمران ٥٤ .

(٦) سورة آل عمران ١٣٨ .

وقد صدر بخصوص الآية الكريمة أعلاه الأجزاء ١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩ من هذا السفر المبارك .

ومنها قوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحَقِّقَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) .
ومنها قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢) .
دلالة صيغة الجمع (وَلَا تُخْزِنَا)

من الإعجاز في صيغة معاني ودلالات الجمع ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ وجوه :

الأول: عطف الدعاء على سؤال تفضل الله بتنجز ما وعد المؤمنين مما ورد من التنزيل على السنة الرسل ، ومن فضل الله عز وجل أنه لا يقبل مسألة من الدعاء ويرد الأخرى ، وهو سبحانه يعطي بالأوفى والأتم .

الثاني : تسليم المسلمين بلحوق الخزي يوم القيامة بشرط من الناس ، ولقد ذكر القرآن والسنة صفات الذين يلحقهم الخزي يومئذ من الذين كفروا ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣) .

الثالث : بيان آية السياق لقانون الحاجة للدعاء للنجاة من الخزي يوم القيامة ، ولو دعا الذين كفروا بالنجاة من الخزي يوم القيامة فهل ينفعهم هذا الدعاء ، الجواب لا ، قال تعالى ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٤) .

وصحيح أن الآية أعلاه وردت بخصوص أهل النار وجواب الملائكة على سؤالهم تخفيف العذاب عنهم يوماً واحداً إلا أن موضوعها أعم ، وهو قانون من الإرادة التكوينية ، وقد وردت صيغة الإطلاق في قوله تعالى ﴿لَهُ

(١) سورة آل عمران ١٤١ .

(٢) سورة الواقعة ٨٥ .

(٣) سورة النحل ٢٧ .

(٤) سورة غافر ٥٠ .

دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَذِبُهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١﴾ .

وعن (أبي الدرداء) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون
بالطعام ، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع .
فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا
يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب .

فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد .
فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، وإذا دخلت بطونهم قطعت ما
في بطونهم .

فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم إن { ادعوا
ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب } ^(٢) فيقولون { أو لم تك تأتيكم
رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في
ضلال } ^(٣) .

فيقولون ادعوا مالكا فيقولون { يا مالك ليقض علينا ربك } ^(٤) فيجيبهم
{ إنكم ماكثون } فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون {
ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا
ظالمون } ^(٥) فيجيبهم { اخسئوا فيها ولا تكلمون } فعند ذلك يسوا من كل
خير ، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل ^(٦) .

(١) سورة الرعد ١٤ .

(٢) سورة غافر ٤٩ .

(٣) سورة غافر ٥٠ .

(٤) سورة الزخرف ٧٧ .

(٥) سورة المؤمنون ١٠٦-١٠٧ .

(٦) الدر المنثور ٢٢٧/٧ .

لماذا الواو في ﴿رَبَّنَا وَآتْنَا﴾

جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية بخصوص حال المتاع الذي يتنعم به الذين كفروا في الدنيا ، وأنه قليل مع بيان سوء عاقبتهم بالخلود في الجحيم ، أما آية السياق فوردت بصيغة الإنشاء والدعاء مع التباين الموضوعي بينهما ، إذ تختص آية السياق بالمؤمنين ، ولم تذكر الآيات السابقة بالتصريح بأن الذين يدعون إليه في آية السياق هم المؤمنون ، ولكنها وصفتهم ﴿أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾^(١) قبل أربع آيات ، ثم ذكرت خصائصهم ومنها عبادة الله ، والإقرار بربوبيته وسؤالهم الله عز وجل العفو والمغفرة ، كما أن آية السياق تدل على صبغة الإيمان التي يتصفون بها من جهات :

الأولى : التوجه إلى الله بالدعاء ، وبما يدل على إقرارهم بالحاجة إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة .

الثانية : من إعجاز آية السياق ورود حرف الواو ، والمختار أنه للعطف والإستئناف بين النداء ﴿رَبَّنَا﴾ وبين ﴿آتْنَا﴾ .

ليبان أن قول أولي الألباب (ربنا) إقرار بالعبودية لله عز وجل ، وبراءة من الشرك وعبادة الأوثان .

ولا يختص هذا الإقرار بالمسلمين وأيام بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما بعدها ، إذ يشمل موضوع الآية المؤمنين من آدم عليه السلام وإلى يوم القيامة .

لذا تفضل الله عز وجل وخلق آدم في الجنة ، إكراماً له ولذريته ، وليرى الآيات ، ويتحدث مع الملائكة ويؤسس للإيمان بقوة في الأرض .

الثالثة : الإيمان بالأنبياء والرسل .

الرابعة : التصديق بما جاء به الرسل من عند الله عز وجل .

(١) سورة آل عمران ١٩٠ .

الخامسة : الإقرار بالمعاد وسؤال الله عز وجل النجاة من الخزي يوم تطاير الصحف .

السادسة : التسليم بأن مقاليد الأمور بيد الله عز وجل .
مع أنها تضمنت الإختصار بسقوط (يا) النداء في أولها ، ومن معاني ورود الواو في المقام مسائل :

الأولى : الإستئناف بعد نداء (ربنا) مما يدل على موضوعية هذا النداء ، وأنه بذاته كنز يفتح آفاق الرحمة .

الثانية : نداء (ربنا) أمر مستقل بذاته .

الثالثة : نداء (ربنا) باب لقضاء لحوائج ، ولو واظب المسلم على قول ﴿ربنا﴾ من غير ذكر مسألة الحاجة فهل تقض حوائجه ، المختار نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١) .

الرابعة : الأجر والثواب في نداء (ربنا) وحده .

الخامسة : ترغيب المسلمين والمسلمات على التوجه إلى الله بالنداء (ربنا) في مناسبة وغير مناسبة .

السادسة : قول المسلم (ربنا) بصيغة الجمع سبب لنزول رحمة الله على عامة المسلمين والمسلمات .

فمن فضل الله عز وجل أن المسلم يدعو الله فتعم الإستجابة المسلمين ، بينما قوله تعالى في آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يتضمن تضرر الذين كفروا من تقلب بعضهم في البلاد .

(١) سورة الزمر ٣٦ .

قانون الإيمان واقية من الخزي

لقد تضمنت آية السياق دعاء المؤمنين للنجاة من الخزي يوم القيامة ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

والنسبة بين الخزي في الآخرة وبين دخول الذين كفروا النار عموم وخصوص مطلق ، فالخزي أعم ، ويشمل عالم البرزخ ومواطن الحساب ، ومنها الميزان ، وأخذ الذين كفروا كتبهم بالشمائل ومن خلف ظهورهم ، والحوض ، وعجزهم عن المرور على الصراط ، وحرمانهم من الشفاعة ، قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأُزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِّينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾^(٢).

والأزفة أي القرية لبيان قرب يوم القيامة في أوانه ، وقربه من الناس ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾^(٣) أي اقتربت الساعة.

وجاء الدعاء ولا تخزننا يوم القيامة بالمعنى الأعم ورجاء النجاة من الخزي في كل موطن من مواطن يوم القيامة ، ومن معاني الخزي الهوان والعار والفضح بين الناس .

وعن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث (وكل ما هو آت قريب)^(٤).

قانون نزول الآية خزي للذين كفروا

ابتدأت آية السياق بالنداء والدعاء ﴿رَبَّنَا﴾ وهو من المقدمة الحسنة في الدعاء والمسألة لما فيه من التسليم بربوبية الله عز وجل المطلقة ، والإقرار

(١) سورة آل عمران ١٩٤ .

(٢) سورة غافر ١٨ .

(٣) سورة المعارج ٦-٧ .

(٤) الطوسي الأمالي ٢/٢٦٥ .

بأن مقاليد الأمور بيد الله تعالى ، وأن الدنيا إلى زوال و﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(١) وهي دار الحساب والجزاء ، وفيه حجة على الذين كفروا الذين اتخذوا من أيامهم في الحياة الدنيا لهواً وزهواً وغروراً ، ليفيد الجمع بين الآيتين أموراً :

الأول : بيان التضاد بين الإيمان والكفر.

الثاني : عمارة الأرض واستدامة الحياة فيها بذكر الله وعبادته تعالى ، وهل يعني هذا ان للمؤمنين فضلاً على الذين كفروا في دوام النعم العامة ، الجواب نعم ، قال تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾^(٢).

الثالث : من خصائص آية السياق أنها حجة على الذين كفروا في تقلبهم في البلاد بزهو ، وإمتناع عن الإقرار بالتوحيد ، وصدود عن سبيل الإيمان . لقد ركب الغرور مشركي قريش لكثرة أموالهم ، وإكرام القبائل العربية لهم ، وسير قوافلهم في أرجاء الجزيرة من غير أن يتعرض لها أحد بسبب جوارهم للبيت الحرام ، فنزلت آية البحث لتخبر بأن الذي عندهم متاع قليل لا يدوم ، وأن عاقبة الكفر إلى النار .

وهل فيه دعوة لهم للإيمان ، الجواب نعم من وجوه :

الأول : بيان قانون كل آية من القرآن تذم الذين كفروا بالمنطوق أو المفهوم .

الثاني : قانون بعث كل آية من القرآن الأسى في قلوب الذين كفروا .

الثالث : قانون في كل آية قرآنية نازلة من السماء خزي للذين كفروا .

الرابع : قانون بعث الآية القرآنية الثفرة في نفوس الناس من الذين كفروا ، وهذه الثفرة مقدمة للمنع من نصرة الذين كفروا في حربهم وقتالهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة العنكبوت ٦٤.

(٢) سورة الفرقان ٧٧.

الخامس : قانون ذم الذين كفروا دعوة للإيمان والصلاح .

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاء بآيات التوبيخ والتبكيث للذين كفروا ، والتي كانت تنزل تبعاً في مكة وبجوامع الكلم وتتضمن تقبيح عبادة الأوثان وسوء عاقبتها ، والوعيد للذين كفروا وتذكيرهم الناس جميعاً باليوم الآخر وعالم الحساب ، ومن الآيات المكية التي أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل هجرته قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّدَةٌ ﴾^(١).

ومن الآيات التي تنخص على الذين كفروا تمتعهم قول الله تعالى ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٢).

(ربنا) دعاء مستقل

لقد ابتدأت آية السياق بدعاء التوسل والخشوع لله ﴿ ربنا ﴾ لقانون تسليم المؤمنين بأن الله عز وجل ربهم ورب الناس جميعاً ، وقول (ربنا) وحده من مصاديق العبادة المأمور بها الناس في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٣) ، وهو من الدلائل على مجيئ واو العطف والإستئناف بعد نداء (ربنا).

وهو مقدمة استكانة للسؤال والدعاء وبث الحاجة إلى الله عز وجل الذي يسمع ، ويرى كل شئ ، ويعلم بدعاء العبد قبل أن يخلق ، ويصرف عنه الضر قبل وأثناء وبعد دعائه لبيان فضل منافع الدعاء حتى قبل النطق به

(١) سورة الزلزلة ١٩-٢٠.

(٢) سورة الزلزلة ١-٨ .

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

، أما آية البحث فأنها تخبر عن ابتعاد الذين كفروا عن الدعاء والمسألة ، لقانون الكفر حاجز للدعاء والمسألة ، فهم في لهو وكثرة أسفار .

فارسل الله عز وجل النبي محمداً ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ومنهم الذين كفروا ببيان قلة المتاع الذي يتنعمون فيه ، وما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الأليم ، ومن حين دخولهم القبر ، إذ تبين آية البحث أن الموت أمر وجودي ، وحال انتقال من عالم إلى آخر ، من دار الإمتحان إلى دار الإمتحان ، ومن مزرعة العمل إلى دار الحساب والجزاء .

ومن معاني الجمع بين الآيتين حال السكينة التي عليها المؤمنون بذكرهم لله ولجوئهم إليه ، ومناجاتهم له ، ورجائهم فضله ورفده ، ووقايتهم في الدنيا والآخرة ، بينما تبين آية البحث سرعة زوال النعم عن الذين كفروا ودخولهم النار يوم القيامة .

ومن خصائص الآية القرآنية أنها لا تقف عند الإخبار وحده ، إنما يكون الخبر القرآني مدرسة في الصلاح وضيء ينير دروب الهداية ، وذخيرة ليوم القيامة ، لذا يتلو كل مسلم ومسلمة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) سبع عشرة مرة في اليوم على نحو الوجوب العيني ، ومع كل تلاوة لها هناك مصاديق للهداية تنعكس في قول أو فعل المسلم أو في الأسباب والمقدمات التي من حوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

الدعاء لغة واصطلاحاً

الدعاء لغة هو النداء والطلب ، أما في الإصطلاح فهو استدعاء العبد من الله عز وجل المعونة مع بيان الحاجة والإفتقار إلى رحمته وفضله ، وفيه إقرار بأن الحول والقوة المطلقة لله عز وجل وحده وأنه سبحانه يقرب البعيد

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

، ويبعد القريب ، ومع كثرة ترديد المسلم للقول (لا حول ولا قوة إلا بالله) فانه لم يرد في القرآن ، وكذا القول عند القيام من السجدة الثانية . ولكن هذا القول ورد في السنة النبوية القولية والفعلية وعلى نحو متعدد ومتواتر .

وقد وصفه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كنز من كنوز الجنة ، إذ ورد (عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أدلك عن كنز من كنوز الجنة قلت : بلى يا رسول الله . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة . قلت : فالصلاة يا رسول الله ، قال : خير موضوع ، فمن شاء أقل ومن شاء أكثر .

قلت : فالصوم يا رسول الله ، قال : قرض مجزىء . قلت : فالصدقة يا رسول الله؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله مزيد .

قلت : فأيتها أفضل ، قال : جهد من مقل وسر إلى فقير^(١).
(وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ سَجْدَ وَجْهِي لِمَنْ خَلَقَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ^(٢) .
ومن معاني بحول الله ، فلا حيلة ولا أمر ينفذ إلا الله عز وجل ، وهو الذي يصرف الآفات بقدرته ولطفه وإحسانه ، ولا حركة ولا استطاعة ولا استدامة لحياة الإنسان إلا بفضل ومشئته الله عز وجل .

أما قول (وقوته) فالمراد عظيم قدرة الله عز وجل الذي لا تستعصي عليه مسألة ، وفي التنزيل ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(٣) .

وتبين آية السياق قانون استجابة الله عز وجل لدعاء المؤمنين ، وقانون حضور دعاء المسلم عند الله عز وجل ، ولا بد أن تتجزأ له استجابة من عند

(١) الدر المنثور ٢/٢١٥ .

(٢) مسند أحمد ٥١/٤٩ .

(٣) سورة البقرة ١٦٥ .

الله بخصوص موضوع الدعاء أو غيره ، وفي العاجل أو الآجل ، وفي الدنيا أو الآخرة أو هما معاً لأن الله عز وجل يعطي بالآتم والأوفى ، وهو الذي تدل عليه آية السياق ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾^(١).

والنسبة بين العمل في الآية أعلاه وبين الدعاء عموم وخصوص مطلق ، فالدعاء عمل مبارك .

ومن إعجاز القرآن أمور :

الأول : قانون الدعاء لأموال الدنيا والآخرة.

الثاني : قانون التوثيق السماوي لأدعية المؤمنين.

الثالث : قانون بيان القرآن لسنخية الأدعية في أمور الدنيا والآخرة ، كما

ورد قبل ثلاث آيات ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٢).

وقد يطلق الدعاء على الثناء على الله عز وجل وتمجيده ، وتقديس مقام الربوبية المطلقة ، والإقرار بالتوحيد وصيرورته مقدمة لسؤال الحاجات.

وعن الإمام علي عليه السلام (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

اللهم اجعل في سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي قلبي نوراً .

اللهم اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأعوذ بك من وسواس الصدور ، وتشنت الأمور ، وعذاب القبر.

اللهم إنني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ، وشر ما يلج في النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، شر بوائق الدهر)^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة آل عمران ١٩٤.

وسئل عطاء (ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله خير الدعاء دعائي، ودعاء الانبياء قبلي، وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلى آخر ما مر، وليس هذا دعاء وهو تقديس وتحميد، فقال عطاء: هذا كما قال امية بن أبي الصلت^(٢):

أَذْكُرُ حاجتي أم قد كفاني ... حَيَاؤُكَ إِنِّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ

أفيعلم ابن جدعان ما يراد منه بالثناء عليه، ولا يعلم الله تعالى ما يراد منه بالثناء عليه^(٣).

وفي التنزيل ورد بخصوص أهل الجنة وثنائهم على الله ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).
(و) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا قالوا سبحانك اللهم أتاها ما اشتهاوا من الجنة من ربهم^(٥).

بين الدعاء وطلب الرزق

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الدعاء الذي هو جبل وقوس صعود من العبد إلى عالم الملكوت، ويسمعه الله عز وجل حالما يصدر من العبد ويعلم به وإن كان دعاء خفياً وفي السر، ولا بد في الدعاء من قصد وسؤال فضل الله، ورجاء الإستجابة منه تعالى.

ولا يتعارض الدعاء مع السعي للكسب وطلب الرزق للذات والعيال، وهل هذا السعي مقدمة للإستجابة.

(١) الدر المنثور ١/٤٥٧.

(٢) أي في مدح عبد الله بن جدعان.

(٣) البحار ٢٥٦/٨٣ / الإشتقاق ١/٤٨.

(٤) سورة يونس ١٠.

(٥) الدر المنثور ٥/٢١٥.

الجواب قد أخبر القرآن باستجابة الله عز وجل للدعاء مطلقاً سواء مع السعي أو بدونه ، ولكن السنة النبوية بينت لزوم السعي والكسب .
وعن الإمام الصادق عليه السلام (إن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: كفيينا فبلغ ذلك النبي .

فأرسل إليهم فقال: ما حملكم على ما صنعتُم ؟ فقالوا: يا رسول الله تكفل لنا بأرزاقنا، فأقبلنا على العبادة فقال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب^(١).

ومن خصائص الجمع بين الدعاء وطلب الرزق أن ضرب المؤمن في الأرض ليس متاعاً قليلاً كما في ذم آية البحث للذين كفروا ، ففي تنقلهم في البلاد تعظيم لشعائر الله وأداء للصلاة في أوقاتها ، وإقرار بأن الأرض ملك له سبحانه.

آداب الدعاء

الدعاء سياحة في عالم الملكوت ، وابتعاد عن هموم الدنيا ، وانتقال بالروح في طبقات السماء ، وكأن الجسد تابع لها .
ومن فضل الله عز وجل أن الإنسان يدرك أثناء الدعاء أن الله عز وجل قريب منه ويسمعه ولا يخيب رجاءه ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾^(٢).

وللدعاء آداب وأحكام منها :

الأول : ابتداء الدعاء بالثناء على الله عز وجل ، والحمد له تعالى والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآله ، وهل يستحق التوفيق للدعاء الحمد والشكر لله .

(١) البحار ٢٨١/٦٧ .

(٢) سورة هود ٦١ .

الجواب نعم ، فذات الإنشغال بالدعاء نعمة عظمى حرم الذين كفروا أنفسهم منها ومما في الدعاء من اللذة واتبعوا أهواءهم فجاء الإنذار والوعيد لهم في القرآن.

الثاني : إخلاص النية في الدعاء واقبال القلب والجوانح مع التسليم واليقين بالإستجابة .

و(عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتهم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)^(١).

الثالث : حسن الظن بالله وتوقع الإستجابة وانتظارها ، والثقة بما عند الله عز وجل فقد ورد في الحديث القدسي (انا عند ظن عبدي بي فلا يظن بي الا خيراً)^(٢)، ان الله عز وجل لا يخيب رجاء من رجاء.

ومن فضل الله قانون الإستجابة أعم من موضوع الدعاء وذات السؤال.

الرابع : قانون الدعاء مرآة الإيمان ، ومظهر اليقين ، وقانون الدعاء مصداق التوكل على الله وهو واقية من الشيطان وإغوائه.

الخامس : احضار المعرفة بأن الله عز وجل قادر على كل شيء وانه الضار النافع الذي لا تستعصي عليه مسألة ، والعطية على قدر المعرفة، وان كانت هذه المقولة لا تصلح قاعدة في الهبات الإلهية لأن الله سبحانه واسع كريم يعطي على مسمى المعرفة فيزيد من فضله، أي انها دعوة للتفقه ، والتدبر والتفكر في بديع خلائق الله تعالى وعظيم سلطانه .

و(عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله عز وجل: من سألني وهو يعلم اني اضر وانفع استجبت له)^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٥٠٨/١ .

(٢) البحار ٣٠٥/٩٠ .

(٣) البحار ٣٠٥/٩٠ .

السادس : الرزق الحلال وطيب المكسب وتنزيه البطن باجتناّب الحرام وفي الحديث القدسي (لا يحجب عني دعوة الا دعوة آكل الحرام)^(١)، وورد في الحديث (ان رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احب ان يستجاب دعائي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : طهر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام)^(٢)، وهل هذه الأحاديث تصلح ان تكون مقيدة لعمومات قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.^(٣)

وتفيد هذه الأحاديث إرادة كمال التوجه إلى الله في الدعاء بالنية والعمل والتحلي بالتقوى واستجابة الله عز وجل مطلقة ، وهو تعالى هو الرحمن الرحيم الذي يعطي ابتداء وفضلاً منه .

السابع : قانون الإلحاح بالدعاء والتحلي بالصبر عند الدعاء ابتداء واستدامة وعدم العجلة فيه ، وسرعة الإنصراف عنه .

والدعاء مناسبة للصبر ، ووسيلة للتدبر في عظيم قدرة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

الثامن : رفع اليدين بالدعاء مع التضرع ، وهو عنوان مشاركة الجوارح بالدعاء والمسألة ، وعدم انحصار الدعاء باللسان والتلفظ ، وفي رفع اليدين إخبار عن الإشتغال بالدعاء وإعلان عن التوجه إلى الله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(٥).

ورفع اليدين عند الدعاء سنة نبوية ، وهو نوع لجوء إلى الله عز وجل ، وإظهار للفقر إلى رحمته ، ومما يدل على مشروعية رفع اليدين بالدعاء ما

(١) الوسائل ١٧/١٧٢.

(٢) الوسائل ١٧/١٧٢.

(٣) سورة غافر ٦٠.

(٤) سورة البقرة ٢٠.

(٥) سورة الزخرف ٨٤.

ورد عن سلمان المحمدي (عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً . وفي لفظ : يستحي أن ييسط العبد إليه فيردهما خائبين)^(١).

و(أخرج البيهقي عن سلمان قال : إني أجد في التوراة . أن الله حي كريم يستحي أن يرد يدين خائبتين يسأل بهما خيراً)^(٢).

التاسع : الدعاء بالخواتج سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، وعموم الدعاء هذا من شواهد الإيمان وحسن التوكل على الله ، وإزاحة للعوائق التي تحول دون الرزق .

العاشر : الإجتماع في الدعاء ، فانه اقرب الى الإستجابة لتعدد السائل والإلتقاء في المسألة والحاجة ، (وروي ان الله عز وجل اوحى الى عيسى عليه السلام : يا عيسى تقرب الى المؤمنين ومرهم ان يدعوني معك)^(٣).
وهو باب لنشر الصلاح ، وتثبيت لأدب العبودية .

التأمين على الدعاء

التأمين^(٤) على الدعاء فانه مشاركة في الدعاء ، وسؤال الحاجة وتوسل اضافي وتوكيد للطلب وعنوان للصدق في المسألة، وفي رسالة علي بن عقبة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) مسند أحمد ٢٢٤/٤٨ .

(٢) الدر المنثور ٣٩١/١ .

(٣) الوسائل ١٧١/١٣ .

(٤) أمنت على الدعاء تأميناً؛ قلت عنده أمين ومنه فلان يؤمن على دعاء فلان، وأمين: اسم فعل مبني على الفتح وفيه اربع لغات اكثرها استعمالاً بالمد بعد الهمزة من غير امالة، وما ذكر له من المعاني انه يعني: اللهم استجب، وأمين ليست من القرآن ولم تكتب في أي مصحف .

وأله وسلم : دعا موسى وأمن هارون وأمنت الملائكة فقال الله تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾^(١) (٢).

والتأمين على الدعاء في الخير مستحب .

والتأمين في وقت صدور الدعاء ، أما التأمين على الدعاء في الخير على صوت مسجل أو في شبكة التواصل الاجتماعي أو الدعاء المكتوب في ورقة ، فالمختار أنه جائز لعمومات الأدلة .

وقال تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣) ، إذ يبغض الله عز وجل التعدي مطلقاً في الدعاء وغيره .

ومن التعدي في الدعاء الدعاء على ذوي الرحم وعلى المؤمن وغيره من عباد الله بالبلاء والضرر.

و(عن عبد الله بن مغفل . أنه سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : أي بني سل الله الجنة وتعوذ به من النار ، فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور)^(٤).

لقد وازب الإمام السجاد عليه السلام على الدعاء والتنسك من دون ان يثنيه شيء عن الإنقطاع الى الله وتعلقت روحه بالعالم العلوي من غير ان يخاف الغوائل واسباب الإيذاء وابواب الضرر والمكائد التي تُحاك ضده. (روي ان الحجاج بن يوسف الثقفي كتب الى عبد الملك بن مروان: ان اردت ان يثبت ملكك فاقتل علي بن الحسين، فكتب عبد الملك اليه: اما بعد فجنبي دماء بني هاشم واحقنها فاني رأيت آل أبي سفيان لما اولغوا فيها لم يلبثوا ان ازال الله الملك منهم.

(١) سورة يونس ٨٩ .

(٢) الوسائل ١ / ٤٢٤ .

(٣) سورة الأعراف ٥٥ .

(٤) الدر المنثور ٤ / ٢٤٩ .

وبعث بالكتاب سراً فكتب علي بن الحسين عليه السلام في الساعة التي انفذ الكتاب الى الحجاج: وقعت على ما كتبت في دماء بني هاشم وقد شكر الله لك وثبت لك ذلك، وزاد في عمرك وبعث به مع غلام له بنفس الساعة التي انفذ فيها عبد الملك كتابه الى الحجاج فلما قدم الغلام اوصل الكتاب اليه فقراه عبد الملك وكان فيه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتاني في النوم فعرفني ما كتبت به اليك وبالشكر من ذلك.

ووجد عبد الملك ان تأريخ الكتاب مطابق وموافق لتأريخ كتابه الى الحجاج، فلم يشك في صدق زين العابدين ففرح بذلك وبعث اليه بوقر دنانير وسأله ان يسط اليه جميع حوائجه وحوائج اهل بيته ومواليه لقد تفضل سبحانه بحجب وحواجز تقي الإمام السجاد. وهو منقطع إلى ذكر الله وكان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة .

نعمة الدعاء

لقد أخبر الله عز وجل الملائكة بجعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) فاحتج الملائكة على مسألة مخصوصة ضمن عمارة الإنسان في الأرض بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)، فهم لم يحتجوا على أصل الخلافة وهم وجميع الخلائق يفتقرون إلى الأهلية للإحتجاج ، إنما احتجوا على قيام أفراد وجماعات من أهل الأرض بما يتناقض مع مصاديق الخلافة إذ يرتكبون المحرمات وينشرون الفساد ويؤذون الخليفة ، ويسرقون ويزنون ويقتلون النفس التي حرم الله ، فاجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

ومن علم الله عز وجل أنه لا يترك الناس وشأنهم ، إنما يبعث الأنبياء والرسل ، وينزل الكتب السماوية ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(١).

ولابد من استجابة أمة من الناس في كل زمان للأنبياء والتنزيل ، ومن قوس الصعود الهداية إلى الدعاء والتوجه إلى الله تعالى بالمسألة ، وهو من اللطف الإلهي في خصائص الخلافة في الأرض ، وأسباب فوز الناس بمرتبة لم ينلها جنس من الخلائق غيرهم .

وقد جعل الله عز وجل القرآن جامعاً للأحكام والسنن ، ومنها الدعاء ومصاديقه ومضامينه القدسية ، وفرض على كل مسلم ومسلمة تلاوة القرآن خمس مرات في الصلاة اليومية على نحو الوجوب العيني .

وهل يجعل الله عز وجل تلاوة المسلم لآيات الدعاء دعاء له ، أم أن هذه التلاوة جاءت بقصد القرآنية والجزئية من الصلاة ، الجواب هو الأول ، ومعه قانون ساعات الحياة الدنيا وعاء زماني للدعاء والمسألة سواء في الصلاة أو خارجها ، وفي حال الرخاء أو الشدة ، وتدلل على الإطلاق في المقام آيات منها قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢).

لم يرد لفظ (ادعوني) في القرآن إلا في الآية أعلاه .

ومن فضل الله عز وجل على الناس مجئ الخطاب في الآية أعلاه للناس جميعاً ، وليس للمسلمين وحدهم ، مع ذم الآية للظالمين الذين يستكبرون عن عبادة الله عز وجل لبيان أمور :

الأول : قانون الدعاء عبادة .

الثاني : قانون حرمة الإمتناع عن الدعاء .

(١) سورة القيامة ٣٦ .

(٢) سورة غافر ٦٠ .

الثالث : قانون سخط الله عز وجل على الذين يستكبرون عن الدعاء ، ويمتنعون عن أداء الفرائض العبادية .

الرابع : قانون الدعاء غنيمة وباب لقضاء الحوائج ، ومنه ما تدل عليه آية السياق من استجابة الله عز وجل للمؤمنين في أمور الدنيا والآخرة ، لبيان حضور مشيئة الله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة من أمورهما .

ويصح الدعاء لوجوه :

الأول : الدعاء للذات .

الثاني : الدعاء للغير ، القريب أو البعيد .

الثالث : الدعاء الأعم للذات والغير ، الحي والميت .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دعا أحدكم فليعم، فإنه أوجب للدعاء)^(١).

بحث عرفاني

ابتدأت آية السياق بالنداء ﴿رَبَّنَا﴾ ويتضمن مسائل :

الأولى : لم يرد في آية السياق حرف النداء (يا) الذي يستعمل للقريب والبعيد ، مما يدل على أن الله عز وجل أقرب للمؤمنين من القريب ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢) .

الثانية : لقد ورد ذات النداء في آيات عديدة مثل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا...﴾^(٣) وفي نوح ورد في التنزيل ﴿رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ...﴾^(٤) ، وفي خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال

(١) الكليني / الكافي ٦٧٠/٢ .

(٢) سورة ق ١٦ .

(٣) سورة آل عمران ٨ .

(٤) سورة هود ٤٥ .

تعالى في آخر آية من سورة المؤمنون ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١).

الثالثة : وردت أداة النداء مع (رب) في آيتين من القرآن في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٢)، وقال تعالى ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

مما يدل على أن مناداة الله عز وجل رب العالمين من مقام العبودية من غير حرف النداء هو الأكثر ، وقد ورد في الآية قبل السابقة مرتين ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٤) كما ورد في الآيتين اللتين قبلها.

الرابعة : في سقوط حرف النداء في هذه الآيات ثناء على المؤمنين ، وبيان لحسن سميتهم ، وصدق دعائهم وتضرعهم ، وفيه بشارة الإستجابة من الله والتي ذكرتها الآية السابقة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(٥) فحالما يموت المؤمن يلقي أمامه البشارة بدخول الجنة والأمن من عذاب النار ، لبيان شمول قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ لأمر الدنيا والآخرة .

(١) سورة المؤمنون ١١٨.

(٢) سورة الفرقان ٣٠.

(٣) سورة الزخرف ٣٣.

(٤) سورة آل عمران ١٩٣.

(٥) سورة آل عمران ١٩٥.

التضاد بين الوعد والوعيد

من معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق الإنذار والوعيد للذين كفروا بإخبارها بأن تغلبهم في البلاد للتجارة والسياحة والكيد للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبال عليهم ، وأنهم وإن كانوا في أمن في الذهاب والإياب ، وكثرة الأسفار إلا أنه متاع قليل ولن يستمر .

وهل هو من المتاع الوارد في قوله تعالى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾^(١) .

الجواب النسبة بينهما عموم وخصوص مطلق .

فالمراد من المتاع في الآية أعلاه أعم ، أما في آية البحث فذكرت آية المتاع بأنه قليل ، وهو من الوعيد بانقطاع هذا المتاع عنهم وهم في الحياة الدنيا بنصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام ، وإنحسار عبادة الأوثان .

ليكون من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نزول آيات الإنذار للمشركين بتحقيق نصره بمدد وعون من عند الله ، ليتحقق بخصوص واقعة بدر بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرَ . . ﴾^(٢) فتبعث آيات القرآن المسلمين على شكر الله عز وجل ، بينما يتلقى الذين كفروا التبكيت بما ينغص عليهم نعمة كثرة الأسفار ، والتصرف بالأموال .

ومن خصائص آية البحث إزالتها للبهجة من نفوس الذين كفروا ومنعهم من التلذذ بالأسفار .

لقد تضمنت آية السياق الدعاء بنزول فضل الله وما وعد به المؤمنين على السنه الرسل ، وبالنجاة يوم القيامة ، وأختتمت بالتسليم بأن الله عز وجل لا يخلف الميعاد ، فالله عز وجل إذا وعد وفى ، وخزائن السموات

(١) سورة آل عمران ١٨٥ .

(٢) أنظر الجزء ٢٠٩ من هذا السفر الخاص بتفسير هذه الآية .

(٣) سورة آل عمران ١٢٣ .

والأرض بيده تعالى ، وفي التنزيل ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

لماذا ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾

لقد ذكرت آية السياق الرسل بصيغة الجمع فلم تقل (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسولاك) بصيغة المفرد ، وفيه مسائل :

الأولى : إيمان المسلمين بنبوة الرسل جميعاً من آدم عليه السلام الذي هو أبو البشر وأول الرسل الذين بعثهم الله عز وجل ، وأنزل عليهم الكتب والصحف لهداية الناس بالإيمان .

الثانية : قانون توارث أجيال المؤمنين من الملل المختلفة لما وعد الرسل الناس وإتخاذ هذا التوارث صبغة القانون .

الثالثة : تزكية المسلمين للرسول بأنهم لم يخبروا ولم يعدوا الوعود للدنيا والآخرة إلا من عند الله عز وجل .

الرابعة : إقرار وتسليم المسلمين بيوم القيامة ، وأنه حق ، وسؤالهم الله عز وجل النجاة من الخزي يومئذ ، وإجماع المسلمين على أن الإيمان باليوم الآخر من أصول الدين .

ليدل قوله تعالى ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في مفهومه على تحقق الخزي يومئذ لشطر من الناس وهم الذين كفروا ، ولا تصل النوبة للإستدلال بالمفهوم ، إنما ورد في المنطوق في القراءة وبصبغة قانون خزي الذين كفروا يوم القيامة ، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

(١) سورة الروم ٦.

(٢) سورة التوبة ٦٣.

الخامسة : قانون مجئ الرسل بالوعد من الله عز وجل للمؤمنين بالنجاة في مواطن الآخرة.

السادسة : قانون تصديق كل رسول للرسول الذين جاءوا قبله .
ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين تصديقهم لجميع الرسل السابقين .

السابعة : تصديق كل جيل من المؤمنين برسالات الأنبياء السابقين ،
فاليهود يصدقون برسالة إبراهيم عليه السلام ، والنصارى يصدقون برسالة موسى عليه السلام ، والمسلمون يصدقون برسالات جميع الأنبياء السابقين .
الثامنة : بيان قانون كل رسول جاء بالوعد من عند الله بالجنة والثواب العظيم على الإيمان .

لفظ (الكتاب)

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١).

ومن إعجاز الآية أعلاه تكرر لفظ الكتاب فيها مرتين و(الكتب) بصيغة الجمع مرة واحدة مع التباين من وجوه :

الأول : المراد من الكتاب الذين ذكر أولاً في الآية بقوله تعالى ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهو اسم مفرد للقرآن الذي ينحصر فيما بين الدفتين من الآيات والسور التي أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : هل في الآية شاهد على قانون سلامة القرآن من الزيادة أو النقيصة أو التحريف .

(١) سورة النساء ١٣٦.

الجواب نعم ، لإخبار الآية أعلاه بتصديق كل المسلمين والمسلمات وفي كل جيل إلى يوم القيامة بنزول القرآن الذي بين أيديهم من عند الله عز وجل.

الثالث : من إعجاز الآية ذكرها المسلمين كافة ولم تختصر على خصوص المؤمنين ، وبين المسلمين والمؤمنين عموم وخصوص مطلق ، فكل مؤمن هو مسلم وليس العكس.

وتتجلى مظاهر تصديق كافة المسلمين بنزول القرآن من عند الله في كل زمان منذ أيام التنزيل ، وهو من أسباب محاربة مشركي قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

ليكون إسرافهم في كثرة الأسفار وما يصاحبها من اللهو غشاوة وبرزخاً دون التدبر في الآيات ، وذكرت الآية القرآنية بصيغة التشديد في الفعل نزل لبيان وجود فاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود إلى الله ، إذ ابتدأت آية السياق بذكر التسليم والإيمان المطلق بالله تعالى .

الرابع : ورد ذكر (الكتاب) مرة أخرى في الآية أعلاه من سورة النساء بقوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وهو اسم جنس ، والمراد جميع الكتب السماوية التي أنزلت على الرسل من صحف آدم عليه السلام إلى الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام ، والذي ذكر في القرآن اثنتي عشرة مرة .

الخامس : ورد لفظ (الكتب) في الآية أعلاه ويدل اجتماعه مع لفظ (الكتاب) في الآية .

قانون آية السياق فقاهاة

تدل آية السياق عل إقرار المسلمين بيوم القيامة بذكره في الدعاء ، وأن من أحواله ومعاله لحوق الخزي بشرط من الناس لقوله تعالى ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١) للدلالة على بلوغهم مرتبة في الفقاهاة من جهات :

(١) سورة آل عمران ١٩٤.

الأولى : إدراك قانون الدعاء واقية وحرز .

الثانية : التسليم بوقوع خزي يوم القيامة ، ونجاة شطر من الناس وهم المؤمنون من هذا الخزي .

الثالثة : التضرع إلى الله عز وجل للسلامة والأمن من الخزي يوم القيامة .

الرابعة : قانون اليقين بأن الله عز وجل لا يخلف الميعاد ، فاذا وعد بشارة وثواب ورحمة فلا بد من تحققها .

علم المناسبة

ورد لفظ (الميعاد) أربع مرات في القرآن ثلاثة في تأكيد قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل صادق فيما يعد عباده ، وهو الكريم الذي بيده مقاليد السموات والأرض ، ويجب لعباده أن يتوجهوا إليه بالدعاء في أمور الدنيا والآخرة .

وهذه الآيات الثلاث هي :

الأولى : قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾^(١) .

الثانية : آية السياق والنسبة الموضوعية بين الآيتين عموم وخصوص مطلق ، فأية السياق أخص .

الثالثة : قوله تعالى ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ مِّنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾^(٢) ، لبيان أن ذكر أيفاء الله بوعده يختص بالمؤمنين ودخولهم الجنة ، ليخرج الوعيد للذين كفروا ودخولهم النار بالتخصيص ، والله غفور رحيم .

(١) سورة آل عمران ٩ .

(٢) سورة الزمر ٢٠ .

أما الآية الرابعة من الآيات التي ذكرت كلمة ﴿الْبِعَادَ﴾ فتتعلق بمعركة بدر ، وحدث الاختلاف في اللقاء لولا فضل الله في نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ولحوق الخزي بالذين كفروا ، كما في قوله تعالى ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَقْتُمْ فِيهِ الْمَبْعَادَ...﴾^(١).

الوجه الرابع : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ التَّابِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ

ابتدأت آية السياق بالدعاء ﴿رَبَّنَا﴾ وكذا الآية التي قبلها والآية التي بعدها لبيان إنقطاع المؤمنين في كل زمان إلى الله تعالى ، وتسليمهم بأنه رب الناس والخلائق كلها ، إنه نداء اللجوء والإستجارة الذي يكون واقية وحرزاً وآمناً .

إن الجهر بالقول (ربنا) تجديد لكلمة التوحيد سواء في مجتمع مؤمنين أو بين ظهرائي الذين كفروا ، كما تدل عليه آية البحث وإخبارها عن حال الذين كفروا ، وسوء قلبهم في البلاد ، وتدلل عليه أيام البعثة النبوية ، ونزول القرآن ، وكيف أن رؤساء قريش كانوا شديدي العداوة للنبوة والتنزيل ، وسعوا في حالات متعددة لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإيقاف نزول القرآن غيلة كما في ليلة الهجرة أو في ميدان القتال ، وفي معركة أحد والخندق .

(١) سورة الأنفال ٤٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٣.

(٣) أنظر الجزء ٢٥٩ من هذا السفر والذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

ثم إرادة هوازن وثقيف قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة حنين إلى جانب خطط ومحاولات إغتياله في المدينة ، قال تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

هذا إلى جانب الأذى الشديد الذي كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتلقاه كل يوم من الذين كفروا .

بالإسناد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد (عن أبيه قال : أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الدليل، وكان جاهلياً فأسلم قال : رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: "يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب)^(٢).

فلا غرابة أن ينزل القرآن بدم أبي لهب في سورة مستقلة ابتدأت بقوله تعالى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْمِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(٣) لبعث النفرة في نفوس الناس من محاربه للنسوة والتنزيل ، ولعدم الإفتتان بمسألة الأولوية بالباطل ، إي إذا كان أقرب الناس إليه يكذبه في رسالته ، فنحن نتوقف عن التصديق بها ، إنما كانت آيات القرآن ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية تدعو الناس للهداية والإيمان .

وفيد الجمع بين الآيتين منافع تجليات الإيمان باللجوء إلى الدعاء الذي هو حرز وأمل ، وهو سلاح الأنبياء لكشف وتبديد ظلمات الكفر التي هي كابوس حتى في حال التمتع بالمال والجاه وكثرة الأسفار ، قال تعالى

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٥/٨.

(٣) سورة المسد ١-٥.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

الشهادة العامة على النداء

من معاني قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾^(٢) في آية السياق شهادة المسلمين بأنهم سمعوا دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام ، وسماعهم لآيات القرآن ، وهو من الإعجاز في قصر السور المكية ، وفي تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن آنذاك وقبل وبعد الهجرة من وجوه :

الأول : تلاوة الآيات والسور حال نزولها .

الثاني : قراءة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن في صلاته في المسجد الحرام بين ظهراني المشركين .

الثالث : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن على زوار المسجد الحرام ، والمعتمرين ، في بدايات الرسالة فاذا رأى غريباً في المسجد قام وجلس بجواره ، وسأله عن قبيلته وقريته وبلدته ، ثم يخبره بأن الله عز وجل بعثه للناس جميعاً ، ويتلو عليه آيات من القرآن .

وفيه تبدل نوعي في حياة الناس ، إذ تغزو آيات القرآن القلوب فتزح عنها الغفلة ، وتجعل الإنسان يدرك قدسية الحياة وأنها دار عمل وتعاهد لسنن التقوى ، والإنقطاع إلى حب الله عز وجل ، والإمثال لأوامره .

ومن خصائص السور المكية اكثارها للتذكير بالآخرة ، وعالم الحساب وبيان التضاد يوم القيامة بين الإنتفاع من الحسنات وتلقي العذاب بفعل السيئات .

وأن الأصنام وعبادتها برزخ دون دخول الجنة .

(١) سورة الأنعام ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٣.

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن ندائه للإيمان سبب لنجاة الملايين في كل زمان من سوء العاقبة الذي ذكرته آية البحث للكافرين بقوله تعالى ﴿وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبُسَّ الْمِهَادُ﴾^(١).

قانون السماع العام لنداء الإيمان

ابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ...﴾^(٢) لبيان الإجهار بهذا الإيمان ، وأنه عام يسمعه الداني والقاصي ، وتقدير الآية : انا سمعنا كما سمع عامة الناس المنادي للإيمان . والمنادي هنا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدل على العموم قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾^(٣) . لبيان توجه البشارة إلى الذين آمنوا كما تدل عليه آية السياق ، وتوجه الإنذار إلى الذين كفروا كما تدل عليه آية البحث ، وهذا التباين من مصاديق قوله تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤) .

وهل يختص قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمُنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٥) ، بأيام التنزيل ، الجواب لا ، فمن مصاديق كون القرآن معجزة عقلية إتصال واستدامة وتجدد الخطاب والأمر القرآني ، إذ حفظ القرآن نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأجيال الناس المتعاقبة للإيمان .

(١) سورة الرعد ١٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٤ .

(٣) سورة سبأ ٢٨ .

(٤) سورة النحل ٨٩ .

(٥) سورة الأعراف ١٥٨ .

ليفيد الألف واللام في الآية العموم الإستغراقي للناس من أيام التنزيل وإلى يوم ينفخ في الصور .

وتدل هذه الآيات على بلوغ نداء الإيمان الى الذين كفروا ، ولكنهم انشغلوا بالأموال وكثرة الأسفار واتخاذها سبباً للهو وتحريض الناس على النبوة والتنزيل وظلموا أنفسهم وحق عليهم الوعيد الذي تضمنته آية البحث.

ولا يحصي كثرة الذين قالوا ويقولون ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا...﴾ إلا الله عز وجل وهو من مصاديق علوم الغيب أخبر عنها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال (ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا)^(١). والله عز وجل وحده هو الذي يعلم دقائق الأمور ، وصحيح الأرقام وفي التنزيل ﴿وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾^(٢).

تقدير ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾

بلحاظ آية البحث وفيه مسائل :

الأولى : ربنا اننا آمنّا فلا تجعلنا مع الذين مأواهم النار .

الثانية : ربنا إننا سمعنا منادياً للإيمان للنجاة من عذاب النار .

الثالثة : من معاني الجمع بين الآيتين قانون التضاد بين الإيمان والإقامة في النار يوم القيامة .

الرابعة : ربنا توفنا مع الأبرار ولا توفنا مع الكفار الذين تقلبوا في البلاد.

الخامسة : ربنا كفر عنا سيئاتنا ولا تجعلنا مع الذين مأواهم جهنم وبئس المهاد .

(١) تفسير ابن كثير ٢٨٦/٦ .

(٢) سورة الجن ٢٨ .

السادسة : قانون التقوى واقية من النار .

السابعة : نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإيمان حاجة للناس .

الثامنة : لا يحصي كثرة الذي ينجون من النار بسبب نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإيمان إلا الله عز وجل .

وفي تلاوة المسلمين لآية البحث تسليم بأن دخول النار عاقبة الذين كفروا ، وفيه تبرأ منهم ، وشهادة عليه ، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾^(١).

نداء اللجوء

ومن خصائص نداء اللجوء والإستجارة ﴿رَبَّنَا﴾ ملائمته لكل آيات القرآن ، وتقديره بخصوص آية البحث على وجوه :

الأول : ربنا متاع الذين كفروا قليل .

الثاني : ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان فآمنّا فقنا بئس المهاد .

الثالث : ربنا نجنا من سوء عاقبة الذين كفروا .

الرابع : ربنا فقنا بئس المهاد .

ومن أسماء الله الحسنی (اللطيف) ومن معاني اللطف الإلهي تقريب العبد إلى الهداية وسبل الطاعة ، وإزاحة الموانع التي تحول دون الإمتثال بالأسباب الظاهرة أو بدونها ، وابعاده عن المعصية وابتعادها عنه ، ومن العصمة امتناع المعصية من غير أن تصل النوبة إلى مرتبة الإلجاء ليرتب الثواب على التكليف .

ومنها اللطف المحصل الذي تتحقق معه الطاعة والإمتثال ، ويتجلى قانون عجز الناس عن إحصاء كثرة مصاديق اللطف الإلهي على العباد مجتمعين ومتفرقين .

(١) سورة البقرة ١٤٢.

الشهادة العامة على النداء

من معاني قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾^(١) في آية السياق شهادة المسلمين بأنهم سمعوا دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام ، وسماعهم لآيات القرآن ، وهو من الإعجاز في قصر السور المكية ، وفي تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لها آنذاك وقبل الهجرة من وجوه :

الأول : تلاوة الآيات والسور حال نزولها .

الثاني : قراءة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن في صلاته في المسجد الحرام بين ظهرائي المشركين .

الثالث : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن على زوار المسجد الحرام ، والمعتمرين ، فاذا رأى غريباً في المسجد قام وجلس بجواره ، وسأله عن قبيلته وقريته وبلدته ، ثم يخبره بأن الله عز وجل بعثه للناس جميعاً ، ويتلو عليه آيات من القرآن .

وفيه تبدل نوعي في حياة الناس ، إذ تغزو آيات القرآن القلوب فتزح عنها الغفلة ، وتجعل الإنسان يدرك قدسية الحياة وأنها دار عمل وتعاهد لسنن التقوى ، والإنقطاع إلى حب الله عز وجل ، والإمثال لأوامره ، ومن خصائص السور المكية اكثارها للتذكير بالآخرة ، وعالم الحساب وبيان التضاد يوم القيامة بين الإنتفاع من الحسنات وتلقي العذاب بفعل السيئات . وأن الأصنام وعبادتها برزخ دون دخول الجنة ، ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن ندائه للإيمان سبب لنجاة الملايين في كل زمان من سوء العاقبة الذي ذكرته آية البحث للكافرين بقوله تعالى ﴿وَمَا أُوْهُمْ جَهَنَّمُ وَتُشْرِكُ بِمِلَّةِ اللَّهِ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٩٣.

(٢) سورة الرعد ١٨.

قانون كل آية رحمة

يتجلى قانون جمع الآية القرآنية لوجوه متعددة من اللطف الإلهي ، وهل تلاوة المسلم للقرآن من اللطف الإلهي بالمسلم الجواب نعم ، وقانون ذات تلاوة القرآن هداية للذات والغير .

فيتلو المسلم آية البحث في الصلاة وخارجها ليزداد إيماناً ، ويسمعا الذي حارب النبوة والتنزيل ، فيدرك أن أيامه في الدنيا قليلة ، وأن سوء عاقبة ينتظره إن لم يبادر إلى التوبة والإنابة .

ليبان قانون شمول الناس جميعاً باللطف الإلهي ، ترى ما هي النسبة بين الرحمة واللطف من عند الله ، المختار هو العموم والخصوص المطلق ، فالرحمة أعم .

ويتجلى قانون كل آية رحمة من الله ، وقانون كل آية لطف من الله عز وجل ، لبيان أن القرآن كتاب اللطف النازل من السماء ، لذا في تلاوة كل آية منه عشر حسنات ، وهو ضياء ينير دروب السالكين ، وفي تلاوته شفاء من العلل (عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ﴾^(١) إلى قوله ﴿يَفْقَهُنَّ﴾^(٢)).

لقد جعل الله عز وجل الآيات الكونية رحمة بالناس والخلائق وتفضل وجعل الآية القرآنية رحمة بالمسلمين والناس ، وسبباً لاستدامة الحياة والرزق الكريم .

والقرآن واقية في القبر من شدة المساءلة ، والشفيع يوم القيامة و(عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن رجلاً ممن كان قبلكم مات وليس معه شيء من كتاب الله إلا تبارك الذي بيده الملك .

(١) سورة الأنعام ٩٨ .

(٢) الدر المنثور ٦٨/١٠ .

فلما وضع في حفرة أتاه الملك فثارت السورة في وجهه فقال لها : إنك من كتاب الله ، وأنا أكره شقاقك ، وإنني لا أملك لك ولا له ولا لنفسي ضراً ولا نفعاً ، فإن أردت هذا به فانطلقني إلى الرب فاشفعي له .
فانطلقت إلى الرب ، فتقول : يا رب إن فلاناً عمد إلي من بين كتابك فتعلمني وتلاني ، أفسدته أنت بالنار ومعذبه وأنا في جوفه؟ فإن كنت فاعلاً به فامحني من كتابك فيقول : ألا أراك غضبت .
فتقول : وحق لي أن أغضب ، فيقول : اذهبي فقد وهبته لك ، وشفعتك فيه .

فتجيء سورة الملك فيخرج كاسف البال لم يحل منه شيء فتجيء فتضع فاهها على فيه .
فتقول : مرحباً بهذا الفم فرمياً تلاني ، وتقول : مرحباً بهذا الصدر فرمياً وعاني ، ومرحباً بهاتين القدمين فرمياً قامتا بي ، وتؤنسه في قبره مخافة الوحشة عليه^(١) .

الزجر عن الإرتداد

لقد تضمنت آية السياق الترغيب بالإيمان وبيان منافعه بسؤال العفو والمغفرة من الله ، وكأن هناك ملازمة بين الإيمان والمغفرة لقانون الجزاء الحسن على الإيمان .

واختتمت الآية بسؤال المسلمين الله عز وجل الموت مع الأبرار خشية الفتنة والإفتتان والإرتداد بقوله تعالى ﴿وَوَفَّقْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٢) .

ومن معاني هذه الخاتمة سؤال المسلمين وجود أمة من الصالحين الأخيار في كل زمان ليشد بعضهم عضد بعض ، وتجلت منافع هذه الخاتمة أيام النبوة والتنزيل في الصبر والدفاع ضد هجوم وغزو المشركين في معركة بدر وأحد والخندق وغيرها ، وتهديدهم وتخويفهم للمهاجرين والأنصار لنصرتهم

(١) الدر المنثور ١٠/٦٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٣ .

للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برسائل شفوية وخطية تترى من رجالات مكة .

ومن تجليات وبركة الدعاء الوارد في آية السياق سلامة أهل المدينة ومكة من الإرتداد عند وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى رجعت جماعات من الردة ليغادروا الدنيا بالتوبة والصلاح .

ومع التباين الموضوعي بين آية البحث وآية السياق فانهما يشتركان بالزجر عن الإرتداد ، إذ تتضمن آية السياق إعلان المسلمين الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم التوجه بالدعاء إلى الله عز وجل بسؤال العفو المغفرة وحسن العاقبة.

ونزلت آية البحث بتبكيك الذين كفروا ، ووعيدهم ، وبيان سوء عاقبتهم رجاء توبتهم وصلاتهم .

إعجاز الآية الذاتي

ابتدأت آية البحث بوصف يتألف من مبتدأ وخبر ، يتعلق بموضوع في الآية السابقة مما يدل على الترابط والتداخل بين آيات القرآن المتجاورة وغير المتجاورة ، وسواء كانت في سورة واحدة أو في سور متعددة ، وفيه مسائل:

الأولى : بعث الشوق في نفوس المسلمين لتلاوة الآية اللاحقة .

الثانية : استحضار موضوع الآية السابقة عند تلاوة الآية اللاحقة .

الثالثة : موضوعية الوصف في التفقه في الدين ، إذ تصف آية البحث تقلب الذين كفروا في البلاد ، وكثرة أسفارهم التي ترد على الأموال والمندوحة والغنى ، والجاه الذي لهم ، ولآية البحث موضوعية في عصمة وحصانة المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا .

الرابعة : إعجاز القرآن حاجة الإنسان للجمع بين الآيات لإستنباط الحكم وتأكيدة .

الخامسة : الصلة الموضوعية بين آيات القرآن شاهد على إنتفاء التعارض بينهما ، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١) ويدل عليه أول الآية أعلاه .

ولم تكتف آية البحث بوصف حال الذين كفروا بأنه متاع وبلغة فانية ، إنما أخبرت بأنه قليل ، وإلى زوال ، ويدل على معنى الزوال سوء مصيرهم بالإقامة في نار جهنم .

وتبين خاتمة الآية حرمان الذين كفروا من النوم في النار ، لأنها كالفراش من النار ، فحينما يريد الكافر الرقود فانه يرقد على النار ، فيمتنع عن الرقود طوعاً وقهراً ، وتدل حياة الإنسان في الدنيا على حاجته إلى النوم وفي الآخرة يريد الكافر الهروب إلى النوم وتوقف الحواس ، ولكنه لا يستطيع فليس عنده من فراش إلا النار ، تدعوه لينام عليها أو ينام فيها وهو جالس أو واقف فلا يستطيع ، لتذهب لذه كثرة الأسفار وما فيها من الظلم والتعدي .

ويمكن تسمية هذه الآية آية ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ والذي لم يرد في القرآن إلا مرتين ، والآية الثانية هي ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) في ذم ووعيد للذين يفترون على الله الكذب بقوله تعالى في الآية السابقة لها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(٣) والنسبة بين قلب الذين كفروا في البلاد ، وبين افتراءهم الكذب عموم وخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما ، لبيان عدم إكتفاء الذين كفروا بالكفر والجحود إنما يتوعدون بالإفتراء على الله ورسوله ، وصد الناس عن الإيمان فنزلت آية البحث .

(١) سورة النساء ٨٢ .

(٢) سورة النحل ١١٧ .

(٣) سورة النحل ١١٦ .

إعجاز الآية الغيري

بعد أن نزلت الآية السابقة خطاباً إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع نهيهِ عن الإغترار والإفتتان بكثرة أسفار الذين كفروا ، وتجارتهم إلى الشام واليمن ، كما في قوله تعالى ﴿لَا يَلْفَاقُ قُرَيْشٌ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١)، نزلت آية البحث للإخبار عن قرب زوال النعم التي عند الذين كفروا ، وفيه مسائل :

الأولى : آية البحث وعد وبشارة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، فبينما يجهز الذين كفروا الجيوش لقتالهم تنزل الآية القرآنية فتبعث السكينة في نفوسهم .

الثانية : تنجز الشواهد على صدق مضامين آية البحث بابتلاء الذين كفروا بنقص المال ، وضعف الجاه يزيد المسلمين إيماناً .

الثالثة : تبعث آية البحث المسلمين على الزهد في الدنيا ، فهي وما فيها من الأموال والأسفار متاع قليل .

ومن إعجاز الآية الغيري إخبارها عن المغيبات ، وعن أهوال يوم القيامة ، وأن طائفة من الناس يقيمون على نحو دائم في نار جهنم ، وهم الذين كفروا بالله ورسوله ، فلم ينفعهم تقلبهم وكثرة أسفارهم في البلاد .

وهل تحضر هذه الأسفار معهم يوم القيامة ، الجواب نعم ، لتكون حجة ووبالاً عليهم ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

ومن الإعجاز الغيري لآية البحث منع إفتتان المسلمين بالجاه والزهو والخيلاء التي عند الذين كفروا ، فهي سريعة الزوال مع ما يترتب عليها من العذاب الأخروي لتسخيرهم إياها في معصية الله و(كان من دعاء رسول

(١) سورة قريش ١-٢.

(٢) سورة يس ٦٥.

الله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك^(١).

وجوه المتاع

لقد ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ويحتمل وجوها :

الأول : إنه إخبار سماوي عن واقع يومي.

الثاني : بيان ما يصير إليه الذين كفروا .

الثالث : الآية تخويف ووعيد للذين كفروا .

الرابع : طرد النشوة والزهو والتباهي من نفوس وأفعال الذين كفروا لما

في الآية من الأخبار عن قرب زوال النعم التي في أيديهم .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق آية البحث ليكون من

إعجازها الغيري عدم افتتان المسلمين وعامة الناس بكثرة أسفار وأموال

الذين كفروا لما فيها من الإخبار عن قرب زوال النعم التي عندهم .

وهل تدعو الآية الناس إلى إنتظار ما يحل بالذين كفروا من المصائب

وأسباب زوال النعم ، الجواب نعم ، وابتلاء الذين كفروا هذا سنة من

الإرادة التكوينية مصاحبة لوجود الإنسان في الأرض ، قال تعالى ﴿فَهَلْ

يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

الْمُنْتَظِرِينَ﴾^(٢).

فكما اصاب الذين كفروا في الأحقاب السابقة من إنقطاع متاعهم ،

وصيرورة ديارهم أطلالاً وبلاقع خالية من العمران ، فان الذين كفروا أيام

التنزيل تنقطع النعم عنهم .

(١) السنن الكبرى للنسائي ٤/٤٦٣.

(٢) سورة يونس ١٠٢.

ولم تمر سوى أيام وأشهر على نزول آية البحث حتى صار مشركو قريش عاجزين عن التقلب في البلاد ، وتسيير قوافل التجارة إلى الشام وإلى مكة ، وأصاب أهل مكة الفاقة والعوز .

ومن الآيات أن هذا العوز بسبب سوء اختيارهم وقبيح أفعالهم ، إذ سخروا إبل التجارة لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وانفقوا أموالهم للإنفاق على المقاتلين والمستأجرين للقتال .

فمثلاً حضر معركة أحد ثلاثة آلاف من المشركين ألف من قريش وألفان مستأجرين وهم من رجال القبائل إلى جانب الإنفاق على مؤن الجيوش . ومن أسباب تعطيل تجارتهم صيرورة طرق التجارة غير آمنة للذين كفروا بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونفرة القبائل من قريش لمحاربتها النبوة والتنزيل وهذه النفرة بالفطرة .

آية البحث موعظة

تتضمن آية البحث التخويف في الدنيا ، والوعيد في الآخرة إلى الذين كفروا ، فمع قلة كلمات الآية فإنها تتضمن التذكرة والإنذار ، وتطرد الغفلة عن الإنسان من جهتين :

الأولى : بيان ماهية الأشياء ، وأن كثرة الأسفار مع الكفر متاع قليل زائل .

الثانية : تقريب البعيد وجعل عالم الآخرة حاضراً في الوجود الذهني . وهل يختص هذا الحضور بالذين كفروا لأنهم موضوع آية البحث ، الجواب لا ، لتكون الآية على وجوه :

الأول : الآية موعظة للناس جميعاً .

الثاني : إنها حجة وبرهان .

الثالث : من الإعجاز الغيري للآية زجرها عن البقاء على الكفر .

الرابع : الآية دعوة للإيمان ، ونهي عن الكفر والضلالة .

الخامس : آية البحث مانع من إتخاذ كثرة الأسفار وسيلة لمحاربة النبوة والتنزيل .

السادس: آية البحث مادة وموضوع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١). وتبين آية البحث للناس قانون الكفر قاطع للنعم ، فلا تستديم معه نعمة ينتظر المسلمون والناس تحقق المصاديق اليومية العاجلة والآجلة لهذه الآية بشواهد هنا وهناك .

الآية سلاح

لقد ابتدأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعوته للإسلام وإعلانه أنه رسول من عند الله وسط قوم مشركين في مكة ، وكان جوار البيت الحرام مادة لتعصيده ، فنزلت الآيات المكية بالإنذار والوعيد لهم ولمن وراءهم ، فدخل رهط من الناس الإسلام ، وتمادى رؤساء الكفر في غيهم . وهل كانت كثرة أموالهم وأسفارهم إلى الشام واليمن وبلاد فارس سبباً في صدودهم عن البعثة النبوية والدعوة إلى الله ، الجواب نعم ، وقد أدركوا أن آيات القرآن سبب لدخول الناس الإسلام ، وفضح عبادة الأوثان ، ولحوق الخزي بهم وبابائهم على هذه العبادة .

ليكون من الإعجاز قانون ذم القرآن للذين ماتوا على الكفر وعبادة الأوثان وقانون إغاظة التنزيل لأبناء الذين كفروا ممن بقوا على ملتهم ، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِنَّا قَالَ مُتِرُفُوها إِنَّا وَجَدْنَاهَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾^(٢).

وكان القرآن ينزل نجوماً وعلى مراحل فعزموا على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لوقف نزول آيات القرآن ، وقتل الأنبياء ليس أمراً مستحدثاً ، فعدد من الأنبياء قتلوا لأنهم أنبياء جاءوا بأسباب الهدى

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) سورة الزخرف ٢٣.

وأَسباب الصلّاح ، قال تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١) (٢).

لقد كان عدد الأنبياء هو مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، وهل الذين قتلوا منهم هم الأكثر أم الأقل ، الجواب هو الثاني ، فالأقل منهم قتلوا قتلاً . فأراد الله عز وجل نجاة خاتم النبيين من القتل ليتوالى نزول آيات وسور القرآن بعد الهجرة النبوية ، ومنه سورة آل عمران وآية البحث هي السابعة والتسعون بعد المائة منها ، ولم يكن هذا العدد من الآيات موجوداً في السور المكية التي كانت تتصف بالقصر في ذاتها وقلة كلماتها وعدد آياتها ، فمثلاً نزلت في المدينة آية التداين من سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُبْلِهُ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣) وهي آية في القرآن.

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) أنظر الجزء التسعين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٣) سورة البقرة ٢٨٢.

وعدد كلماتها (١٢٩) وعدد حروفها (٥٥١) حرفاً ، وهي أكثر من كلمات سبع سور مجتمعة من السور المكية.

بينما تألفت آية البحث من ست كلمات ، وتتضمن ذات لغة الوعيد للذين كفروا التي تتصف بها السور المكية ، ومع قلة كلماتها فانها تتضمن الوعيد العاجل في الدنيا، واللبث الدائم في النار للذين كفروا ، لتكون سلاحاً بيد المؤمن لبيان نجاته من عذاب النار لإدراك قانون الملازمة بين الكفر وقبح المهاد في الآخرة .

ومن خصائص الآية القرآنية إنتفاع كل إنسان منها ، فتزيد إيمان المسلمين ، وتبعث الذين كفروا على التوبة ، وتبين لهم الضرر الفادح الذي يجلبه الكفر لهم ، وهو من مصاديق العموم في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ، من وجوه :

الأول : شمول إنذارات آيات القرآن للذين كفروا أيام التنزيل وما بعدها وإلى يوم القيامة.

الثاني : جاءت آية البحث بصيغة المبتدأ والخبر لبيان استدامة حكمها .

الثالث : آية البحث معطوفة موضوعاً على الآية السابقة التي وردت بصيغة المضارع (لا يفرنك) .

وتتضمن آية البحث إخبار الذين كفروا بأن النعم التي يسبحون ويسبحون فيها إنما هي متاع قليل وإلى زوال .

وهذا الإخبار نازل من الله الذي رزقهم هذه النعم ، لتخبر الآية عن أمور :

الأول : قانون كثرة الأسفار اختبار .

الثاني : قانون الكفر مانع من استمرار النعم .

الثالث : تفضل الله عز وجل بانذار الذين كفروا ، وعدم تركهم وشأنهم ، وهو من الشواهد على الرحمة العامة في بعثة النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ * ثُمَّ
 ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١﴾ .

وتتضمن الآية أعلاه الوعيد للكافر لما ينتظرهم من العذاب بعد الموت ،
 وسبب نزولها عداوة أبي جهل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
 وموضوعها أعم ، وقال قتادة (أن أبا جهل كان يقول : لو علمت أن محمداً
 رسول الله ما أتبت غلاماً من قريش قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله
 عليه وآله وسلم كان يقول : إن لكل أمة فرعوناً وأن فرعون هذه الأمة أبو
 جهل) (٢) .

بين الآية والسيف

من الإعجاز في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قانون الآية
 القرآنية سلاح للهداية والرشاد ، وقانون الآية القرآنية أمضى من السيف ،
 فإذا كان أثر السيف شخصياً يقع على الفرد الواحد ، ويؤدي إلى إعدامه
 وتلف روحه أو جرحه وإعاقته فإن القرآن يتوجه إلى الناس جميعاً بما فيه
 حياة قلوبهم في الدنيا ، وإنقاذهم من ظلمات الجهالة والكفر ، والسلامة من
 عذاب النار في الآخرة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
 لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣) ، لذا نزلت آية البحث لإنقاذ الناس ، ووقايتهم من لهيب نار
 جهنم .

ومن الشواهد في المقام على أن الآية القرآنية إعجاز عقلي مسائل :

الأولى : قانون ترغيب الآية القرآنية بالتوبة .

الثانية : إذا كان السيف يقتل الإنسان ، فإن الآية القرآنية تدعوه للتدبر
 بسبل نجاته في الدنيا والآخرة .

(١) سورة القيامة ٣٤-٣٦ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٤٤٨/١٣ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧ .

الثالثة : في السيف عذاب في زهوق الروح ، وانقطاع الأمانى والرغائب ، أما الآية القرآنية فانها تفتح أبواب الأمل في وجه الإنسان ، وتدعوه إلى السعادة الأخروية .

الرابعة : بالسيف يفارق الإنسان الدنيا ، وحتى إذا لم يمت تصيبه الإعاقة ، أما الآية القرآنية فانها تلامس شغاف القلوب ، وتبعث الإنسان على التفكير في حاله وما يجب أن يكون عليه من الصلاح والتقوى ، قال تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(١).

قانون الكفر ظلم للنفس

من معاني آية البحث دعوتها الناس للإمتناع عن ظلم أنفسهم ، هذا الظلم يكون بالإقامة على الكفر ومفاهيم الشرك ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

وسبب نزول الآية أعلاه هو جماعة من أهل مكة دخلوا الإسلام ولكنهم لم يهاجروا .

فلما خرج مشركو قريش إلى معركة بدر مصرين على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خرجوا معهم ، فقتلوا مع الكفار . وجاء نعتهم كونهم (ظالمى أنفسهم) من وجوه :

(١) سورة القيامة ١-٢.

(٢) سورة النساء ٩٧-٩٩.

الأول : بقاؤهم في مكة ، مع حث القرآن والنبى محمد للمسلمين للهجرة.

الثاني : لزوم الاقتداء بالنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم في هجرته ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١).

الثالث : ورود الأخبار إلى مكة ببناء النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسجد النبوي ، وإقامة المسلمين الصلاة خمس مرات في اليوم في المدينة (يثرب) بأمن وسلام .

الرابع : حسن استقبال واستضافة الأنصار للمهاجرين ، وعقد النبى صلى الله عليه وآله وسلم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وزوال الفوارق بينهم.

الخامس : عقد النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق المدينة مع اليهود فيها لإنشاء نظام اجتماعي وثيق ، ولمنع إغواء المشركين لليهود المدينة ، وتحريضهم على النبى محمد .

السادس : عندما التقى الجمعان يوم بدر واتضحت قلة عدد المسلمين قال هؤلاء الذين لم يهاجروا ﴿غَرْهَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾^(٢).

فقتل يومئذ سبعون من المشركين سبعة من بني مخزوم ، منهم أبو جهل عمرو بن هشام.

ومنهم قيس بن الفاكه ، وقيس بن الوليد بن المغيرة اللذين اسلما ولكن بقيا في مكة.

(١) سورة الأحزاب ٢١.

(٢) سورة الأنفال ٤٩.

الهجرة أمن عام

لقد أخبرت الآية السابقة عن كثرة أسفار الذين كفروا والنهي العام عن الإفتتان بهذه الأسفار ، وجاءت آية البحث لتعضيد هذا النهي ، وإعانة المسلمين بعدم الإغترار بكثرة أسفار الذين كفروا إذ أخبرت على نحو القطع واليقين بأن هذه الأسفار متاع قليل وسريع الزوال .

ليكون من معاني آية البحث أمور :

الأول : منع الذين أسلموا من إتباع الذين كفروا .

الثاني : مبادرة الصحابة الأوائل إلى الهجرة ، وعدم التخلف في مكة وإتباع الذين كفروا .

الثالث : دلالة هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على امتناعه عن القتال ، لكفاية معجزاته الحسية والعقلية باقامة الحجة على صدق رسالته ، ودعوة الناس للإيمان .

وعندما أصر كفار قريش على القتال يوم بدر ، وابتدأوه رمي السهام ، وطلب المبارزة قابلهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإجتهد بالدعاء والنداء بين الصفيين (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

فنزلت الملائكة يوم بدر لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾^(١).

فصارت الملائكة تضرب يومئذ وجوه وأدبار أفراد جيش الذين كفروا ، فاعتذر هؤلاء الذين خرجوا مع المشركين بأنهم كانوا مستضعفين في الأرض أي في مكة لا نستطيع الإمتناع عما يأمر به رؤساء الشرك من قرب ، فأجابهم الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا...﴾^(٢) إلى المدينة أو

(١) سورة الأنفال ٩.

(٢) سورة النساء ٩٧.

الحبشة أو أي مكان آخر ، ليكون في الآية وعد من الله بتهيئة أسباب النجاة لمن يهاجر بدينه.

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنها لم تأمر هؤلاء المسلمين بالقتال ، إنما أمرتهم بالهجرة والخروج من القرية الظالم أهلها ، لبيان أن الإسلام دين السلام والصبر على الأذى .

والمدار على عموم معنى الآية ، وليس سبب النزول وحده لذا فان أحكام الآية باقية إلى يوم القيامة ، فورد الاستثناء في الآية التالية .

والنسبة بين ظالمي أنفسهم ، وبين الذين قتلوا مع الكفار عموم وخصوص مطلق ، وأشد ظلم للنفس اختيار الكفر والجحود.

وقال الثعلبي (﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(١) أي يقبض أرواحهم ملك الموت)^(٢).

وهل تدل صيغة الجمع في قوله تعالى ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ على الإذن من الله للملائكة الذين نزلوا يوم بدر بقبض أرواح الذين كفروا .

المختار نعم ، فلا تصل النوبة معهم إلى حضور ملك الموت.

وفي الفلسفة ما من عام إلا وقد خص ، قال تعالى ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٣).

و(عن أبي داود المازني ، وكان شهد بدرًا قال: إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أن قد قتله غيري)^(٤).

(١) سورة النساء ٩٧.

(٢) سورة الحجر ٩.

(٣) سورة الأنفال ١٢.

(٤) تفسير الطبري ١٧٦/٧.

و(قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي أَبِي إِسْحَاقُ بْنُ يَسَارَ ، عَنْ رَجَالٍ مِنْ بَنِي مَازِنَ بْنِ النَّجَّارِ عَنْ أَبِي دَاوُدَ الْمَازِنِيِّ وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرًا ، قَالَ إِنِّي لَأَتَّبِعُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ لَأَضْرِبَهُ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي) ^(١).

والمختار أن صيغة الجمع إذا وردت في القرآن تحمل على ظاهرها وإرادة التعدد إلا مع القرينة ، نعم ترد صيغة الجمع لله عز وجل للتعظيم والإكرام كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٢).

ترى من هم الملائكة الذين ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ والمختار أنهم غير الملائكة الذين توفوهم لجهتين :

الأولى : جاء السؤال بعد الوفاة .

الثانية : قولهم فيم كنتم .

من إعجاز القرآن دعوته الناس للتزهد عن ظلم النفس ، لما فيه من الضرر في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وهذه الدعوة من مصاديق ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٣).

لقد جاء نعت الذين خرجوا مع مشركي قريش لمعركة بدر ، وقتلوا مع الكفار وجاء نعتهم (ظالمي أنفسهم) بصيغة الذم لوجوه :

الأول : التخلف عن الهجرة .

الثاني : الإمتناع عن التأسي بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة إلى المدينة .

الثالث : الخروج مع المشركين إلى معركة بدر ، وبالإمكان الإمتناع عن هذا الخروج وإن كان بأمر من آبائهم المشركين ، قال تعالى ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٦٣٢/١ .

(٢) سورة الحجر ٩ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧ .

عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

الرابع : إمكان الإنصراف من جيش المشركين في الطريق وكذا اللحاق بالمسلمين يوم معركة بدر .

مفهوم الآية

ذات الحياة الدنيا أيام وسنوات معدودة يقضيها الإنسان ثم تنقطع ، فهي متاع زائل لكل إنسان ، ولكن لماذا خص الله الذين كفروا ونعت قلوبهم في البلاد بأنه متاع قليل كما في آية البحث ، الجواب كثرة أسفار الذين كفروا متاع أقل ضمن متاع قليل ، ليكون من مصاديق أقل القليل .

لتبين آية البحث صفة مذمومة للذين كفروا ، وأن الكفر يضيق بالنعمة ولذتها عليهم ، ومنها كثرة الأسفار ، حتى إذا جاء أمر الله رأيتهم كأن لم يسافروا ولم يتنعموا .

أما المؤمنون فتكون النعم لهم سبباً للأجر والثواب والجزاء الحسن لأدائهم الصلاة في أوقاتها ، ولشكرهم الله عز وجل على النعم ، وقد جمع هذين الأمرين المتضادين قوله تعالى ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٢).

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (لما قال له سفيان الثوري : لا أقوم حتى تحدثني قال الإمام : أما أني أحدثك ، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان).

إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها ، فأكثر من الحمد والشكر عليها ، فإن الله تعالى قال في كتابه ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٣).

(١) سورة لقمان ١٥.

(٢) سورة إبراهيم ٧.

(٣) سورة إبراهيم ٧.

وإذا استبطأت الرزق ، فأكثر من الاستغفار ، فإن الله تعالى قال في كتابه ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِئْكُمْ^(١)﴾ يعني في الدنيا والآخرة ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا^(٢)﴾ .
يا سفيان ، إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره ، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة^(٣).

قانون انقطاع نعم الدنيا

ومن مفاهيم البحث وجوه :

الأول : ذم الذين كفروا .

الثاني : تذكير الذين كفروا والناس جميعاً بالموت الذي لا بد منه ، ويدرك الناس جميعاً هذا القانون بالفطرة والوجدان ، وموت القريب والوالد والوالدة من غير عودة ، قال تعالى ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ^(٤)﴾ .

ليان أن أجل كل إنسان بيد الله عز وجل يقدم أجل هذا ويؤخر ذاك ، وله أسباب وفيه موعظة وعبرة ، وبالموت تنقطع نعم الدنيا ويبدأ عالم الحساب.

الثالث : قانون إنعدام صفة الدوام عن أي متاع في الدنيا .

الرابع : آية البحث فقاها للمسلمين بمعرفة حقيقة الدنيا ، وأنها وما فيها إلى زوال ، ولا بد من مغادرة الإنسان لها .

الخامس : إنذار المسلمين فيما تأتئهم من النعم بوجوب تسخيرها في طاعة الله ، وعدم الزهو والغرور أو التفريط في العبادات بسببها .

(١) سورة نوح ١٠-١٢.

(٢) سورة نوح ١٢.

(٣) الدر المنثور ٦/٣٤.

(٤) سورة الواقعة ٦٠.

السادس : بيان أهلية المسلمين لخلافة الأرض ، فلا يتخذون كثرة الأسفار والضرب في الأرض للهو ونحوه .

السابع : تذكير الناس بالنار مأوى دائم للذين كفروا .

الثامن : دعوة الناس للنجاة من دخول النار بإجتنب أسبابه وأن الآخرة دار حساب بلا عمل .

وتقدير الآية بلحاظ المفهوم على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا تمتعوا الذين كفروا في الدنيا قليل .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا تفتتنوا بالمتاع القليل .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا اشكروا الله عز وجل على النعم ، قال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

الرابع : يا أيها الذين آمنوا احتجوا على الذين كفروا بأن كثرة أسفارهم وأموالهم متاع قليل ، وما ينفع الإنسان في آخرته هو العمل الصالح .

وهذا الإحتجاج بالآية القرآنية من أسباب انتشار الإسلام ودخول الناس فيه ، فلم ينتشر الإسلام بالسيف بل بالحكمة والموعظة والحجة ، واتخاذ آيات القرآن برهاناً ودليلاً وضياءً .

إفادات الآية

تبين آية البحث أن مقاليد الأمور بيد الله عز وجل ، وانقطاع تمتع الذين كفروا بأسفارهم وأموالهم ، وهذا الإنقطاع من وجوه :

الأول : ابتلاء الذين كفروا بالمصائب وعجزهم عن مواصلة الأسفار .

الثاني : ظلم الذين كفروا لأنفسهم بما يحول دون دوام النعم .

الثالث : قانون الكفر مانع من استدامة النعم .

(١) سورة إبراهيم ٧.

الرابع : لحوق الخسارة لكفار قريش وفقدانهم الإبل والأموال في محاربتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

وتبين الآية أعلاه قلة متاع الذين كفروا من جهات :

الأولى : دلالة قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ على أن أمور وآجال الناس بيد الله عز وجل وحده ، وفي التنزيل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢) بيد الله عز وجل.

الثانية : الوعيد الحال ، وقانون البلاء العاجل للذين كفروا .

الثالثة : سخط الله عز وجل على الذين كفروا .

الرابعة : هلاك طائفة من الذين كفروا في المعارك .

الخامسة : الخيبة والأسى بعد قلب وصوله الذين كفروا في ميدان المعركة ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

علم التضاد في أثر ونتائج المعركة عند المسلمين وعند الكفار

تأسيس علم الآخرة في وقبل يومين علم الإيناس في القرآن.

وأوسس لعلمين

الأول : تأسيس علم أثار ونتائج كل معركة من معارك الإسلام الأولى ، مع بيان أن المشركين هم الغزاة في كل من معركة بدر ، وأحد ، والخندق ، وحنين .

الثاني : علم التضاد في أثر المعركة عند المسلمين وعند الكفار .

والثاني أخص من الأول ، ولا بد أن أتى بمثال أو أمثلة لتكون أصلاً ونموذجاً للعلماء في هذا الزمان والأزمنة اللاحقة ، وأصل هذا العلم في القرآن كما سيأتي .

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة ق ١٦.

كل معركة من معارك الإسلام لدراسة بتحليل واستقراء قرآني ومن السنة والسيرة بمنظار منطقي وتأريخي هذا العلم مستقل عن وقائع معارك الإسلام الأولى ، وهو من الشواهد على أن النبي محمداً لم يغز أحداً ، وأن المشركين هم الغزاة ليلحقهم الخزي في النشاطين لمحاربتهم النبوة والتنزيل . ومنه الدراسة المقارنة بين مجتمع الإسلام ومجتمع المشركين وأثر كل معركة فيهما ، وأذكر مثلاً لهذا العلم وهو حال الحزن والبكاء على قتلى المعارك عند المسلمين وعند المشركين .

ففي معركة بدر انهزمت فلول المشركين ، وعندما دخلوا مكة دخل معهم الحزن والعزاء لكل بيت من بيوتها ، وصارت النساء تخرج من بيت وتدخل آخر بالصراخ والعيويل على فقد صناديد قريش مثل أبي جهل عمرو بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأميرة بن خلف ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البختري العاص بن هاشم ، ومنبه ونبیه ابني الحجاج ، ضمن سبعين من قتلى قريش .

فقام رؤساء قريش بمنع البكاء على الموتى ، وهو ابتلاء آخر ، إذ أن البكاء تخفيف عن النفس ، وقيل (نَاحَتْ قُرَيْشٌ عَلَى قَتْلَاهُمْ ، ثُمَّ قَالُوا : لَا تَفْعَلُوا فَيَبْلُغُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَيَشْتُمُوا بِكُمْ وَلَا تَبْعَثُوا فِي أَسْرَاكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنُوا بِهِمْ لَا يَأْرَبُ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ فِي الْفِدَاءِ .

وَكَانَ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلَبِ قَدْ أَصِيبَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ وَلَدِهِ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَعَقِيلُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَالْحَارِثُ بْنُ زَمْعَةَ وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَبْكِيَ عَلَى بَنِيهِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ نَائِحَةً مِنَ اللَّيْلِ .

فَقَالَ لَغُلَامٍ لَهُ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ أَنْظِرْ هَلْ أَحَلَّ النَّحْبُ هَلْ بَكَتْ قُرَيْشٌ عَلَى قَتْلَاهَا ؟ لَعَلِّي أَبْكِي عَلَى أَبِي حَكِيمَةَ يَعْنِي زَمْعَةَ فَإِنْ جُوفِي قَدْ اخْتَرَقَ . قَالَ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِ الْغُلَامُ قَالَ إِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ تَبْكِي عَلَى بَعِيرٍ لَهَا أَضَلَّتْهُ . قَالَ فَذَاكَ حِينَ يَقُولُ الْأَسْوَدُ :

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ ... وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ السَّهْوُ
فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ وَلَكِنْ ... عَلَى بَدْرِ تَقَاصَرَتْ الْجُدُودُ

عَلَى بَدْرٍ سَرَاةٍ بَنِي هُصَيْنٍ ... وَمَخْزُومٍ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّي إِنَّ بَكَيْتَ عَلَى عَقِيلٍ ... وَبَكِّي حَارِثًا أَسَدَ الْأَسُودِ
وَبَكِّيهِمْ وَلَا تَسْمِي جَمِيعًا ... وَمَا لِأَبِي حَكِيمَةٍ مِنْ نَدِيدِ
أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ رِجَالٌ ... وَلَوْ لَا يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَسُودُوا^(١).

فتبكي المرأة في مكة على بغير ضاع عنها ، بينما يمنع رؤساء قريش البكاء على قتلاهم .

وتدل هذه القصيدة على حدوث فتنة بين رجالات قريش ودم للذين ترأسوا منهم في مكة بعد معركة بدر .

ترى لماذا منعت قريش نساء مكة من البكاء على صناديد قريش الذين سقطوا في معركة بدر ، فيه وجوه :

الأول : لقد كرهوا حديث الناس عن أسباب كثرة القتلى بينهم .

الثاني : إدراك الناس أن نصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر معجزة حسية ظاهرة له ، تدعو الناس إلى الإيمان .

الثالث : مناخ الخوف العام في مكة .

الرابع : إدراك الناس للقبح الذاتي والعرضي للكفر ، وعبادة الأصنام التي جلبت لهم المصائب .

الخامس : حال العز للمسلمين الذين بقوا في مكة .

السادس : محاولة قريش منع الناس من دخول الإسلام ، والهجرة إلى المدينة .

السابع : تهيئ واستعداد قريش للقتال في معركة أحد ، إذ استعدوا لها من حين وصول فلولهم لها ، بدليل أنهم سَخَرُوا أموال قافلة أبي سفيان لمعركة الثَّأر ، واختاروا لها المكان والزمان بأن زحف ثلاثة آلاف منهم نحو المدينة في شهر شوال من السنة الثالثة قبل أيام من دخول شهر ذي القعدة وهو والشهران اللذان بعده من الشهر الحرم .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ١/٦٤٧ .

الثامن : يكشف بكاء واجتماع النساء والرجال تفاصيل معركة بدر ، ونزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بينما حين كثر قتلى المسلمين وسقط فيها سبعون شهيداً يوم أحد لم يمنع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نساء الأنصار من البكاء على قتلاهن . وفي طريق عودة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من معركة أحد إلى المدينة مر بدور بني الأشهل وبني ظفر ، فسمع بكاء النساء والنوائح على قتلى قومهن ، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبكى ، ثم قال (لكن حمزة لا بواكي له) ^(١) وفيه وجوه :

الأول : دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للأنصار بالصبر ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ^(٢).

الثاني : مواساة الأنصار بأن النبي فقد عمه في الدفاع عن النبوة والتنزيل ، ولم يكن الأنصار وحدهم الذين فقدوا أحبائهم لهم .

ومن صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه حريص على الناس ، ورؤوف رحيم بالمؤمنين كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٣).

الثالث : إمضاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبكاء الأنصاريات على قتلاهن ، وفيه إكرام عاجل للشهداء ، بخلاف الذين كفروا إذ صار بكاء نساء مكة على قتلاهن يؤذيهم .

وهل منع نساء قريش من البكاء من المتاع القليل الذين ذكرته آية البحث ، الجواب نعم .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٩٨/٢.

(٢) سورة البقرة ١٥٦.

(٣) سورة التوبة ١٢٨.

بتقريب أن معاني المتاع القليل انعدام الأثر الحسن والذكر بالمآثر ، إنما يأتي التلاوم بين الذين كفروا كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

ومن خصائص الحياة الدنيا أنها تغري الإنسان وتزين له كل فرد على حسبه وشأنه وماله والفرص التي تتاح له .

وأمر رؤساء بني الأشهل نساءهم بالذهاب إلى المسجد النبوي يكيّن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

و(لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُكَاءَهُنَّ عَلَى حَمْزَةٍ خَرَجَ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ يَكِينٌ عَلَيْهِ فَقَالَ ارْجِعْنَ يَرْحَمَكُنَّ اللَّهُ فَقَدْ آسَيْتُنَّ بَأَنفُسِكُنَّ)^(٢).

(قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَنَهَى يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّوْحِ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَحَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سَمِعَ بُكَاءَهُنَّ قَالَ رَحِمَ اللَّهُ الْأَنْصَارَ فَإِنَّ الْمَوَاسَاةَ مِنْهُمْ مَا عَتَمَتْ لَقَدِيمَةٌ مَرُوهَنَ فَلْيَنْصَرِفْنَ)^(٣).

وأجاز النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بكاء النساء على الميت وإن لم يكن شهيداً ، إذ مرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم (بِنِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَكِينٌ مَيِّتاً ، فَزَجَرَهُنَّ عَمْرُ .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : دَعِهْنَ يَا عُمَرُ ، فَإِنَّ النَّفْسَ مُصَابَةً ، وَالْعَيْنَ دَامِعَةٌ وَالْعَهْدَ قَرِيبٌ . وَلَمَّا بَكَتْ نِسَاءُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَكُنَّ حَمْزَةً لَا بَاكِيَةَ لَهُ . فَسَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ

(١) سورة آل عمران ١٥٦.

(٢) ابن هشام / السيرة النبوية ٩٨/٢ .

(٣) ابن هشام / السيرة النبوية ٩٨/٢ .

المدينة، فلم يَقُمْ لهم مأتم " أبعدھا " إلى اليوم إلا ابتداء " النساء " فيه بالبكاء على حمزة^(١).

كذا في العقد الفريد ومؤلفه هو ابن عبد ربه الأندلسي ت ٢٣٨ هجرية ، وبه قال الواقدي ، والمقرئزي في كتابه الحفظ ت ٨٤٥ هجرية.

ولا يختص التباين والتضاد بين مجتمع المسلمين والمشركون في نتائج المعارك بل يشمل الوقائع المختلفة ومنها صلح الحديبية ، إذ نزل قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢) على النبي محمد عند عودته إلى المدينة من صلح الحديبية .

الآية لطف

من معاني نعت آية البحث كثرة أسفار الذين كفروا بأنه متاع قليل اللطف النوعي العام بالناس جميعاً ، ومنهم الذين كفروا .

فمن خصائص الإنسان النسيان وهو من أسباب تسميته الإنسان ، فنزلت آية البحث لتطرد النسيان والغفلة عن الذين يتمتعون بالنعم الإلهية ، وذكر كثرة أسفار الذين كفروا في الآية السابقة بقوله تعالى ﴿لَا يَغْنَصُكَ قَلْبُ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٣) من باب المثال ، من جهات :

الأولى : توبيخ الذين كفروا ، وطرد الغفلة عنهم .

الثانية : تفقه المسلمين في الأمور وكشف ماهية الأشياء لهم .

الثالثة : الإنذار من الإنغماس بالمتعة الدنيوية .

الرابعة : وجوب إتخاذ النعم وسائل للتقرب إلى الله وحسن طاعته .

ويتجلى بالوجدان والشواهد اليومية قانون ذات الدنيا متاع ، لتبين آية

البحث قانون جعل الكفر الدنيا متاعاً قليلاً ، ليكون متاعاً في متاع.

(١) العقد الفريد ٣٤٢/١ .

(٢) سورة الفتح ١ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٦ .

ومن اللطف الإلهي في الحياة الدنيا أن الإيمان وأداء الفرائض العبادية يطيل اليوم والأسبوع .

ويجعل الإنسان يتنعم في وقته بطمأنينة ورضا ، ولتكون العاقبة الخلود في النعيم ، بينما يقيم الذين كفروا في النار ليس لهم نصير أو شفيع من أهل السماوات والأرض ، ولا يخرجون منها ، قال تعالى ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن توضيح المدركات العقلية بالمحسوسات ، وإحضار المغيبات بالوجود الذهني وتقريب البعيد ، وقد يرى الإنسان موعد الأسبوع أو الشهر في أمور حياته كثيراً ، بينما يقرب القرآن عالم الآخرة مع الفاصلة الزمانية التي قد تمتد لآلاف السنين ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا ﴾^(٢). والذي تدل عليه آية البحث بورود الحرف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي.

ومن خصائص آية البحث جذب الإنسان لمنازل الإيمان ، وحضه على السعي في مسالك الصالحين ، والتسليم باليوم الآخر ، والإجتهاد بسنن التقوى وليس من ثواب أعظم من الجنة وما أدخره الله عز وجل لعباده الصالحين .

الآية بشارة

تدل آية البحث في مفهومها على البشارة للذين آمنوا من جهات :
الأولى : التنقل في البلاد في طاعة الله عز وجل ، ومن غير خوف من الذين كفروا ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ

(١) سورة الجاثية ٣٥.

(٢) سورة المعارج ٦-٧.

كَذَلِكَ كُتِبَ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١﴾.

الثانية : إصابة الذين كفروا بالضعف والوهن لما في قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(٢) من الإنذار بنزول البلاء بهم .

الثالثة : تبدل أحوال الناس فبعد أن كانت السيادة لأفكار الضلالة وعبادة الأوثان ، والجاء العريض للذين كفروا ومنه تقلبهم في البلاد أنعم الله عز وجل على الناس برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لعمارة الأرض بذكر الله وإقامة الصلوات ، قال تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣).

الرابعة : نجاة المؤمنين من نار الآخرة ، إذ جعلها الله عز وجل دار إقامة للذين كفروا على نحو الخصوص .

وهل يشمل المقام عدم اجتماع الضدين في محل واحد ، وأن الإيمان ضد الكفر ، الجواب نعم ، وإن لم تصل النوبة إليه .

ومن خصائص الآية القرآنية أنها موعظة ، وموضوعها عبرة ، وحكمها قانون ، لتبعث آية البحث النفرة في نفوسهم الناس من الكفر ، وتقربهم إلى منازل الهداية والإيمان ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(٤).

(١) سورة النساء ٩٤.

(٢) سورة آل عمران ١٩٧.

(٣) سورة القصص ٥.

(٤) سورة الحجرات ٧.

الآية إنذار

من خصائص القرآن مجئ البشارة والإنذار فيه ، وهذا الإنذار بلحاظ جهة الخطاب على وجوه :

الأول : يأتي الإنذار عاماً للناس جميعاً ، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١).

الثاني : الإنذار للذين كفروا ، وعبدوا الأوثان ، ومنه مضامين آية البحث.

الثالث : الإنذار لطائفة من الكفار بالصفة أو صبغة الفعل او ماهية العمل ، قال تعالى ﴿تُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

وآية البحث من سورة آل عمران ، وهي من السور المدنية وتتصف هذه السور بالطول وكثرة الآيات وبيان أحكام الشريعة لإستقرار الحكم والتمهيد لبناء دولة القوانين والسنن السماوية واستدامتها .

واتصفت آية البحث والآية التي قبلها بالقصر وصيغة الإنذار ، لبيان عدم انحصار قلة كلمات الآية ولغة الإنذار بالسور المكية ، وهو من إعجاز القرآن وموضوعية الإنذار في إصلاح المجتمعات واقامة الحجة على الناس . ومن صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه نذير ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣).

فهل آية البحث من مصاديق الآية أعلاه ، الجواب آية البحث بذاتها إنذار مستقل ، نعم تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لها وقيامه بالتبليغ من مصاديق صفة النذير التي يتصف بها.

(١) سورة الحج ٤٩.

(٢) سورة القصص ٤٦.

(٣) سورة الأحزاب ٤٥ .

ومن أسرار آية البحث أن كل مرة يقوم المسلم والمسلمة بتلاوتها هي إنذار للذين كفروا ، ووعد لهم بانقطاع النعم التي رزقهم الله لقانون الكفر ماحق للنعم ، وقانون الكفر سبب لزوال النعم .

ليكون من معاني الإنذار بآية البحث دعوة الناس لإستدامة النعم التي عندهم ومنها القلب في البلاد بالإيمان ، لقانون المبادرة إلى الإيمان سبب لدوام النعم ، وبالشكر تدوم النعم ، ومن أبهى مصاديق الشكر لله الإيمان بالله ورسله وأداء الفرائض العبادية ، وتضمنت السنة النبوية القولية والفعلية الإنذار والوعيد .

وعن الإمام علي عليه السلام (عن النبي صلى الله عليه وآله قال : كل معروف صدقة إلى غني أو فقير، فتصدقوا ولو بشق تمرة، واتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن الله عز وجل يريها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يوفيه إياها يوم القيامة، وحتى تكون أعظم من الجبل العظيم)^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

ابتدأت الآية بقانون ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ وهذه صفة فيلزم الرجوع إلى ما قبله لمعرفة الموصوف ، وهو ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) ولا تختص هذه الصفة بهذا القلب وكثرة الأسفار بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ * ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) ، مما يدل على إرادة ذم الكفار واستحقاقهم العذاب بما يترشح عن الكفر .

فمن إعجاز القرآن العطف الموضوعي بين كل من :

(١) الطوسي / الأمالي ٢/ ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

(٣) سورة النحل ١١٦-١١٧ .

الأول : بين آيتين متجاورتين .

الثاني : بين آخر الآية وأول الآية التي تليها ، بلحاظ أن الآية القرآنية أولها في شئ وأوسطها في شئ وآخرها في شئ آخر .

ولا يلزم في هذا العطف ورود حرف العطف كالواو والفاء بل سياق الآية والتداخل الموضوعي أو الحكمي بينما هو الشاهد على العطف التلقائي بينهما ، وفيه بعث لتلاوة القرآن واستنباط المسائل والأحكام منه .

وبينما تضمنت آيات من القرآن الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، تأتي آية البحث بالإنذار والوعيد للذين كفروا ، والإخبار عن حالهم في الدنيا والآخرة ، أما حالهم في الدنيا فتضمن أول الآية ذكر أنهم في تمتع وانتفاع من النعيم الذي أنعم الله عز وجل ، ولكنهم جحدوا النعم في ذاتها ومدتها وماهيتها ، وورد هذا البيان مع قلة كلمات الآية .

وجاء حرف العطف (ثم) فاصلاً بين متاع الكافرين القليل ودخولهم النار للإشارة إلى عالم البرزخ لأن (ثم) يفيد الترتيب والتراخي ، وهو من إعجاز الآية فلم تقل الآية (ومأواهم جهنم) .

ومن معاني ورود (ثم) دعوة الكافرين إلى التوبة والإنابة والتدارك في أيام حياتهم ، وأن كل يوم يطل عليهم هو مناسبة للتوبة والإعطاء والإيمان والتدبر في آية البحث .

وتضمنت الآية أربع مسائل :

الأولى : نعت تقلب الذين كفروا في البلاد بأنه متاع قليل وبلغة فانية وسريعة الزوال لقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ .

وهل ينحصر موضوع الآية بالنعت ووصف المتاع ، الجواب لا ، إنما قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ تخويف ووعيد وإخبار عن أمر حتمي الوقوع في الآخرة ، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(١).

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : تأكيد تنعم الذين كفروا بكثرة الأسفار .

الثانية : قانون كثرة أسفار الذين كفروا استدراج لهم .

الثالثة : آية البحث إنذار للذين كفروا ، ليتجلى قانون كل آية قرآنية إنذار للذين كفروا .

الرابعة : كشف حقيقة كثرة الأسفار ، وقانون تعجيل الكفر بزوال النعم .

الخامسة : دعوة الذين كفروا والناس جميعاً إلى الإنابة والتوبة .

السادسة : الإنذار من الإشتغال بالنعم والإنقطاع إليها .

السابعة : قانون ذات النعم وسلبها أمران بيد الله عز وجل .

الثامنة : تأكيد وجود العالم الآخر ، عالم الحساب والجزاء .

التاسعة : ترتب الثواب أو العقاب على العمل في الدنيا .

العاشرة : الوعيد للذين كفروا وإقامة الحجة عليهم في القرآن بأن مشواهم النار ، وهو من أسرار جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بآيات القرآن في مكة وسط قوم مشركين وسماعهم لهذه الآيات والتي كانت تتصف بالقصر والوضوح ليدرك الناس قانون كل آية قرآنية من جوامع الكلم .

جوامع الكلم

المراد من جوامع الكلم تضمن الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة. ومن إعجاز القرآن إيجاز اللفظ وسعة وكثرة معانيه ، وموافقته للوقائع والأحداث في كل زمان واقتباس القوانين والسنن والمواعظ من آياته سواء بالآية على نحو مستقل أو بالصلة بين آيتين أو أكثر ، هذا العلم الذي لا تزال أكثر كنوزه لم تستخرج بعد .

وقد صدرت أجزاء متعددة من هذا السفر بخصوصه وهي :

الأول : الجزء السادس والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٦٤-٦٩ من سورة آل عمران.

الثاني : الجزء السابع والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٧٠-٧٧ من سورة آل عمران.

الثالث : الجزء الثامن والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٧٨-٨٤ من سورة آل عمران.

الرابع : الجزء التاسع والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٨٥-٩٣ من سورة آل عمران.

الخامس : الجزء الثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٩٤-١٠٢ من سورة آل عمران.

السادس : الجزء الواحد والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ١٠٣-١٠٩ من سورة آل عمران.

السابع : الجزء الخامس والعشرون بعد المائة ، ويختص بصلة الآية ١٥٢ بالآية ١٥١ من سورة آل عمران.

الثامن : الجزء السادس والعشرون بعد المائة ، ويختص بالقسم الأول من تفسير ١٥٣ ويختص بصلة شطر من الآية ١٥٣ بشطر من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

التاسع : الجزء التاسع والعشرون بعد المائة ، ويختص بالقسم الأول من تفسير الآية ١٥٤ وبصلة شطر من هذه الآية بشطر من الآية ١٥٣ من سورة آل

عمران.

العاشر : الجزء الواحد والخمسون بعد المائة ، ويختص بصلة شطر من الآية ١٦١ بشطر من ١٦٤ من سورة آل عمران .

الحادي عشر : الجزء الثاني والتسعون بعد المائة ، ويختص بالصلة بين الآية ١٨٠ والآية ١٨١ من سورة آل عمران .

الثاني عشر : أجزاء خاصة بنداء الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾ وهي (١٣١-١٣٢-١٣٤-١٣٧-١٣٨-١٣٩).

مجموع آيات القرآن هو ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية قرآنية وهل كل آية من جوامع الكلم ، الجواب كل كلمة وكل شطر من الآية القرآنية من جوامع الكلم .

ليبان قانون جوامع الكلم في القرآن من اللامتناهي ، ومنه آية البحث ، فمن جوامع الكلم في الآية وجوه :

الأول : قانون متاع قليل ، لتختزل أيام سفر ولهو الذين كفروا بقلّة متاع زائل .

الثاني : ورود الحرف (ثم) بين المتاع القليل والعذاب الأليم في النار.

الثالث : بيان قانون مأوى الذين كفروا النار .

الرابع : لحوق الذم للذين كفروا في الآخرة بقوله تعالى ﴿وَبُئْسَ الْمِهَادُ﴾^(١) ، وبئس كلمة ذم لذات الإقامة في النار .

وهو من مصاديق ذهاب تمتع الذين كفروا في الدنيا ، ومصادق بأنه متاع قليل .

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال (يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ، هل رأيت نعيماً قط ، فيقول : لا والله يا رب .

(١) سورة آل عمران ١٩٧.

ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ، فيقول : لا والله يا رب ، أي : ما كأن شيئاً كان^(١).

علم التقدير

من معاني الآية الكريمة تقديرها على وجوه :

الأول : بشر الذين كفروا بمتاع قليل ، إذ بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فذات آية البحث إنذار ، وكذا تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لها .

الثاني : متاع قليل يراه المسلمون والناس كافة ، فأية البحث وعيد من الله عز وجل للذين كفروا ، تتجلى مصاديقه في الدنيا والآخرة .

الثالث : قانون الملازمة بين الكفر والمتاع القليل ، فالتلبس بالكفر يجعل زينة الحياة الدنيا متاعاً زائلاً سريعاً .

الرابع : متاع قليل ، وبعده الحساب والعقاب الأليم ، وهو الذي تدل عليه مضامين ذات آية البحث ، والتي هي من جوامع الكلم مع قلة كلماتها إذ تجمع بين الوصف والشواهد ، والذم والوعيد الصادق .

الخامس : تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل يا أيها الناس لا تغتروا به ، وهل يمكن حصر النهي والتحذير بالمسلمين لأن الخطاب في الآية السابقة موجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ وتلحق به الأمة .

الجواب لا ، فقد بعث الله عز وجل النبي محمداً رسولاً للناس جميعاً بقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ١٦٤/٦ .

(٢) سورة سبأ ٢٨ .

وهل آية البحث من مصاديق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للناس ، الجواب نعم ، لقانون كل آية قرآنية من مصاديق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العامة للناس كافة .

السادس : قانون التضاد بين المؤمن والكافر من حيث الإنتفاع من النعم ، إذ يتخذها المؤمن وسيلة للصالح ومحاربة الفساد في الدنيا ، وإدخالها للأجر والثواب في الآخرة .

السابع : قانون أيام الذين كفروا متاع قليل .

الثامن : قانون شأن وسطوة الذين كفروا متاع قليل .

التفسير

قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾

ابتدأت الآية الكريمة بمبتدأ وخبر بما يفيد جملة مفيدة تبعث على التدبر في عواقب الأمور ، وتنقص الذين كفروا ، وتذهب نشوة تمتعهم بالنعم بينما تتضمن الآية بعث المؤمنين على الصبر ، وعدم الإفتتان بتقلب الذين كفروا في البلاد ، وما عند الذين كفروا من النعم .

وتتضمن الآية الإخبار عن حال الرخاء والسعة التي تتصف بها طائفة من الذين كفروا ، فصحيح أن الآية السابقة وردت بصيغة العموم ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) إنما المقصود طائفة منهم امتهنوا التجارة والتكسب ، والضرب في البلاد ، واتخاذ الأسفار مناسبة لمظاهر الشرك وللإفتراء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل .

وهل المتاع القليل يختص بذات السفر وتنقل الذين كفروا وكثرة أموالهم ، أم ذات دنيا الذين كفروا متاع قليل.

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

الجواب هو الثاني ، وهو ظاهر في حياة الذين كفروا ، إذ قد يزول مقامهم وكثرة أموالهم وهم أحياء في الدنيا ، قال تعالى ﴿لَيُتَّعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

ليبان قانون التمايز بين المؤمنين والذين كفروا في الحياة الدنيا بشكر المؤمنين الله عز وجل على النعم ، وهذا الشكر سبب للبركة ، والزيادة في الرزق وطول الأعمار الذي هو سبب في عمل الصالحات وتراكم الحسنات. كما في تعطل تجارة قريش بعد معركة بدر لانشغالهم بالإعداد لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتجهيز الجيوش لمحاربتة ، وما يستلزم هذا التجهيز من الإنفاق على رجال القبائل ، والدفع لرؤسائهم ، ويتنعم المؤمن بالدنيا بأداء الفرائض العبادية ، ويعلم أنه ينتقل منها إلى خير دار ، لذا أمر الله عز وجل بالتقوى وندب إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقول والفعل مع بيانه بأن الدنيا دار عبور .

و (عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أيها الناس اتقوا الله حق تقاته ، واسعوا في مرضاته ، وأيقنوا من الدنيا بالفناء ومن الآخرة بالبقاء.

واعملوا لما بعد الموت فكأنكم بالدنيا لم تكن وبالأخرة لم تزل. أيها الناس إن من في الدنيا ضيف ، وما في أيديهم عارية ، وإن الضيف مرتحل ، والعارية مردودة.

ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، والآخره وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر.

فرحم الله امرءا ينظر لنفسه ومهد لرمسه ما دام رسنه مرخيا وحبله على غاربه ملقيا قبل أن ينفذ أجله وينقطع عمله)^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) البحار ١٨٧/٧٤.

(وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكن في الدنيا ضيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد)^(١).

ومن معاني قلة متاع الذين كفروا هزيمتهم في معركة بدر ، وخيستهم في معركة أحد والخندق ، قال تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَهُمْ خَشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبُسْ إِلَهُهُمْ﴾^(٢).

(و)عن المستورد الفهري قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة في اليم ، فلينظر بم يرجع^(٣).

ولم يرد لفظ (ثم مأواهم) في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة .

الابتداء بالصفة

يدل ابتداء آية البحث بالصفة على تعلق موضوعها بالآية السابقة التي من إعجازها قلة كلماتها لبيان الموصوف في تلك الآية وهي ﴿لَا يَغْنَبُ كَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٤) ، وقد صدر الجزء الخامس والستون بعد المائتين من هذا السفر خاصاً بتفسيرها وتأويلها ، ويتضمن (١٨٣) قانوناً في ذات مضامين الآية .

والموصوف هو أمران :

الأول : الذين كفروا .

الثاني : ثقلهم وكثرة أسفارهم في البلاد .

(١) تفسير ابن كثير ١٨٥/٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٢ .

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ٣٢٢/٣ .

(٤) سورة آل عمران ١٩٦ .

والذي يدل على حال السعة والرفاهية والأموال التي عندهم ، وأنهم ليسوا من الفقراء ، وقد سمي المسكين مسكيناً لسكونه في الأرض وعجزه عن تحقيق الرغائب وكثرة الأسفار.

وفي هذه السعة حجة على الذين كفروا بلزوم التصديق بالرسالة ، وهو الذي تدل عليه سورة قريش بأن كثرة أموال قريش وتجارتهم للشام واليمن مقدمة وسبب لتصديقهم بالرسالة التي تبث من بين ظهرانيهم ، وبجوار البيت الحرام ، إذ قال تعالى ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).

ليتضمن الجمع بين السورة أعلاه وآية البحث الإنذار للذين كفروا ، وسرعة نزول البلاء بهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢) ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبُشْرَ الْمُصِيرِ﴾^(٣).

وهل يختص المتاع القليل الذي تذكره آية البحث بتقلب الذين كفروا في البلاد ، الجواب لا ، إنما يتغشى عامة النعم التي يتنعمون بها من جهات :
الأولى : أسباب التنقل في البلاد .

الثانية : النعم التي تصاحب التقلب في البلاد .

الثالثة : ما يدل عليه التقلب في البلاد من النعم .

وهل يمكن تقدير الآية بحذف مبتدأ وتقديرها : متاع الذين كفروا قليل ، الجواب نعم .

(١) سورة قريش ١-٤.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

(٣) سورة البقرة ١٢٦.

إلا أنه في طول المعنى الظاهري للآية بوصف حال تقلب الذين كفروا في البلاد وكثرة ضربهم في الأرض للتجارة والكسب هو متاع زائل.

انقطاع النعم

هل في الآية وعيد للذين كفروا بانقطاع نعمة التقلب في البلاد وأنها لا تصل إلى أولادهم ، الجواب نعم .
لييان وجوه :

الأول : قانون الكفر ماحق لنعمة التقلب في البلاد .

الثاني : قانون كفر الإنسان سبب لحرمان ذريته من ذات النعمة التي رزقه الله .

الثالث : قانون الكفر تسريع لزوال النعمة .

ومن حديث عن أنس بن مالك عن تميم الداري عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص قبض روح الكافر (ويقول الله تعالى للملك الموت : انطلق إلى عدوي فأتني به ، فإني قد بسطت له رزقي ، ويسرت له نعمتي ، فأبى إلا معصيتي ، فأتني به لأنتقم منه .

قال : فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة ما رآها أحد من الناس قط ، له اثنتا عشرة عينا ، ومعه سفود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ، ومعهم سياط من نار ، لينها لين السياط وهي نار تأجج .

قال : فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر .

قال : ثم يلويه ليا شديدا ، فينزع روحه من أظفار قدميه .

قال : فيلقيها في عقبه ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرة ، فيرفه ملك الموت عنه .

قال : وتضرب الملائكة وجهه ودُّبره بتلك السياط .

قال : فيشده ملك الموت شدة ، فينزع روحه من عقبه ، فيلقيها في ركبته ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة ، فيرفه ملك الموت عنه .

قال : فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك الشياطين .
قال : ثم ينتره ملك الموت نثرة ، فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها في حقويه .

قال : فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة ، فيرفقه ملك الموت عنه .

قال : وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك الشياطين .

قال : كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه .

قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه .

قال : ويقول ملك الموت : اخرجي أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم إلى معصية الله ، بطيئا بي عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلك .

قال : ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها ، وتنطلق جنود إبليس إليه فييشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار .

قال : فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، حتى تدخل اليمنى في اليسرى ، واليسرى في اليمنى .

قال : ويبعث الله إليه أفاعي دُهما كأعناق الإبل يأخذن بأرنبته وإبهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه .

قال : ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيا بهما كالصياصي ، وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما ، بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعتهما الرأفة والرحمة يقال لهما : منكر ونكير ، في يد كل واحد منهما مطرقة ، لو اجتمع عليها ربعة ومضر لم يقلوها .

قال : فيقولان له : اجلس ، فيستوي جالسا .

قال : وتقع أكفانه في حقويه قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك .

فيقول : لا أدري ، فيقولان : لا دريت ولا تليت .

قال : فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ، ثم يعودان .
 فيقولان : انظر فوقك ، فينظر فإذا باب مفتوح من الجنة .
 فيقولان : هذا عدو الله منزلك لو أطعت الله .
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده ، إنه
 ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً^(١) .
 لقد ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومع وروده بصيغة الجملة
 الخبرية فانه يتضمن مسائل :

الأول : الإنذار للذين كفروا .

الثاني : توبيخ الذين كفروا .

الثالث : حجب التمتع والتمتع العام بالتقلب في البلاد عن الذين كفروا .

الرابع : بيان حال وكشف قانون قلة متاع الذين كفروا في الحياة الدنيا ،
 فكثير من الأمور حينما تتبين على حقيقتها يزهد بها الناس .

علم المناسبة

ورد نعت الحياة الدنيا بأنها متاع في آيات عديدة منها على نحو الإطلاق ،
 ومنها بالمقارنة مع عالم الآخرة ، كما في قوله تعالى ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ
 الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِيهِ الْآخِرَةُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢) .

وقال مؤمن آل فرعون محذراً قومه بأن الدنيا متاع زائل ، كما ورد في
 التنزيل ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾^(٣) .

أما آية البحث فتضمنت التعيين والتخصيص ، إذ خصت حياة الذين
 كفروا والنعم والأموال التي في أيديهم يتقلبون معها في البلدان للتجارة

(١) تفسير ابن كثير ٥٠٧/٤ .

(٢) سورة التوبة ٣٨ .

(٣) سورة غافر ٣٩ .

واللهو والسياسة والإفتراء على النبوة والتنزيل فهي متاع قليل وبعده يأتي العذاب الأليم في الآخرة.

فلم تكتف آية البحث بوصف دنيا الذين كفروا بأنها متاع بل وصفتها بأنها متاع قليل .

بينما جاءت آيات القرآن بوصف الحياة الدنيا بأنها متاع من غير تقييد بقلة هذا المتاع لبيان أن الإنسان بالخيار بين سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد أو الضلال ، قال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾^(١).

ومن إعجاز الآية أعلاه تقديم الهداية وأن فطرة الإنسان هي الإيمان ، واختياره الكفر ببحود ومؤونة زائدة ، فبعث الله عز وجل النبي محمداً بما يوافق الفطرة.

لقد كان نفخ الله عز وجل من روحه في آدم مؤيداً بالمعجزات الحسية والعقلية ، ولكن الذين كفروا اصرروا على الجحود ، واتخذوا نعمة كثرة الأسفار غشاوة على أبصارهم .

وهل وصف الحياة الدنيا بالمتاع إنذار متجدد ، الجواب لا ، فقد ورد وصف المتاع في الدنيا بالحسن ، وفي خطاب وبشارة وسكينة للمسلمين ، قال تعالى ﴿ وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُسْمِعْكُمْ مَّعَايَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾^(٢). والمآثر هو أن المؤمنين يتخذون الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الإستغفار عاصم من اللهو وطارد للغفلة ، ومن فضل الله عز وجل عدم وجود برزخ بين أي إنسان وبين الإستغفار .

(١) سورة الإنسان ٣.

(٢) سورة هود ٣.

وهل تتضمن آية البحث في مفهومها الترغيب بالإستغفار ، الجواب نعم وهو من مصاديق قانون ذم الكفر دعوة للإيمان ، وقانون الآية القرآنية تذكير بعالم الحساب .

النفع العام من آية البحث

هل انتفع الناس من مضامين هذه الآية ، الجواب نعم ، ويدل عليه الكتاب والسنة ، والوقائع التاريخية .

ونزل في السنة الثالثة للهجرة وبعد معركة أحد قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْتَبِلُوا خَائِبِينَ﴾^(١) ، وقد نزلت سورة كاملة في السنة العاشرة تتضمن الإخبار عن واقع انتقال الناس إلى منازل الهدى والإيمان ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٢).

وسمي العام التاسع للهجرة عام الوفود لكثرة الوفود التي دخلت المدينة لإعلان دخولهم ومن ورائهم الإسلام ، ومن الشواهد عليه أن النبي محمداً توجه إلى مكة في السنة العاشرة لأداء الحج ومعه سبعون ألفاً من الصحابة ، وقيل مائة ألف في معجزة حسية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو من خصائصه من جهات :

الأولى : كثرة صحابة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين الأنبياء .

الثانية : أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قبائل شتى ، بينما كان أصحاب موسى عليه السلام من بني إسرائيل خاصة .

الثالثة : أكثر الذين حاربوا النبي محمداً دخلوا الإسلام ، وآية البحث من أسباب هدايتهم ، لقانون كل عاقل يسعى للنجاة من النار.

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة النصر ١-٣ .

الرابعة : انتفاء الغزو والحروب في الجزيرة ببركة رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليرشح عنه توجه الناس للتفكر في بدائع الخلق ، وإقامة الصلاة وأداء الفرائض العبادية ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١).

بحث بلاغي

يقسم الكلام بلاغياً بلحاظ نسبة كثرة أو قلة اللفظ إلى المعنى في مقام البيان والإفهام إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الإيجاز .

الثاني : الإطناب .

الثالث : المساواة بالتعبير بالفاظ على قدر المعنى ، وهو الأصل .

والإيجاز هو الإتيان بالفاظ قليلة لمعاني كثيرة بشرط أن تتصف هذه الألفاظ بالإيفاء بالغرض والغاية المقصودة بابانة ووضوح فلا يكون في هذا الإيجاز إخلال بالمعنى ، ومنه ما ورد في آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ إذ جمعت هاتان الكلمتان المعنى ، وفيه الإنذار ومنع زهو وخيلاء الذين كفروا .

وأخبرت عن سرعة زوال النعم عنهم ، وكذا قوله تعالى ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وهو خال من الإخلال أو الحذف إنما فيه تذكير بالآخرة ، وسوء إقامة الذين كفروا في نار جهنم وكذا قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الْمَهَادُ﴾ لبيان اضطراب الذين كفروا للنوم ولكنهم يعجزون عنه لأن الفراش نار تلظى وتتوهج ، قال تعالى ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٩١.

(٢) سورة الليل ١٤-١٥.

وتقييد تصلية النار بأنها خاصة بالأشقى بعث للسكينة في نفوس المؤمنين.

ومن معاني الإيجاز المجئ بعبارة قليلة الكلمات وكأنها ناقصة مع وفائها بالغرض .

لذا ينقسم الإيجاز إلى قسمين :

الأول : إيجاز القصر ، ويسمى إيجاز البلاغة لصدق إيجازه مع خلوه من الحذف ، ومنه قوله تعالى في آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(١)، ومنه ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

لما في حكم القصاص من إخبار عن قود القاتل بسبب قتله لغيره ، فيجتنب الإنسان قتل غيره ، فيكون هذا الحكم حياة لمن ينوي القتل والذي يقع عليه القتل ، ولا يحصي كثرة الناس الذين نجوا من القتل علناً ومكراً وخفية بسبب حكم القصاص إلا الله عز وجل .

الثاني : إيجاز الحذف ، وهو حذف كلمة أو أكثر من غير أن يضر بالقصد والفهم ، مع وجود قرينة على الحذف لفظية أو معنوية ، وفي قوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٣)، بالمجاز والإيجاز بالحذف والتقدير : وأسأل أهل القرية .

والمختار اجتماع الحقيقة والمجاز في ذات اللفظ ، وهذا الاجتماع علم جديد أوّسسه في علوم القرآن فهو من المجاز وإيجاز الحذف .

والتقدير : واسأل أهل القرية التي كنا فيها وأصحاب العير التي أقبلنا فيها ونحن صادقون فيما نخبرك عن سرقة ابنك لصواع الملك .

(١) سورة آل عمران ١٩٧.

(٢) سورة البقرة ١٧٩.

(٣) سورة يوسف ٨٢.

أما الحقيقة فالمقصود : يا آبانا أنت نبي فاسأل ذات القرية وحيطانها وأشجارها وطيورها تخبرك بأن ابنك سرق ، ثم اسأل ذات العير التي حملتنا إليك .

ومن خصائص بعض الأنبياء معرفة الحيوان ولغة الطير كما في داود وسليمان عليهم السلام .

(وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : كان داود يقضي بين البهائم يوماً وبين الناس يوماً ، فجاءت بقرة فوضعت قرنهما في حلقة الباب ثم تنغمت كما تنغم الوالدة على ولدها ، وقالت : كنت شابة كانوا ينتجونني ويستعملوني ، ثم إنني كبرت فأرادوا أن يذبحوني ، فقال داود : أحسنوا إليها ولا تذبحوها ثم قرأ ﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) ^(٢) .

وروى حفص بن غياث عن الإمام الصادق عليه السلام (أنه قال : إن سليمان ابن داود عليه السلام خرج ذات يوم مع أصحابه ليستسقي فوجد نملة قد رفعت قائمة من قوائمها إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك لا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكننا بذنوب بني آدم ، فقال سليمان عليه السلام لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم بغيركم)^(٣) .

شواهد قلة المتاع

لقد أخبرت آية البحث بأن تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ، والنسبة بينهما عموم وخصوص مطلق ، فموضوع المتاع أعم من التقلب في البلاد ، ومنه وجوه :

الأول : كثرة أموال الذين كفروا .

الثاني : الجاه العريض للذين كفروا .

الثالث : التعاون في الإثم والعدوان .

(١) سورة النمل ١٦ .

(٢) الدر المنثور ٤٣٠/٧ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٨٥/١ .

الرابع : وجود الأعوان والأذرع والخدم والعييد .

الخامس : كثرة الأزواج والأولاد ، فما نزل به القرآن كحكم عام تحديد

عدد الزوجات بقوله تعالى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ ثَلَاثٍ وَرَبَاعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾^(١).

ومن العرب وغيرهم من كان عنده أكثر من أربع نساء يفارق الزائد عن أربع ، وتمنع الآية الزيادة على أربع ، وترغب بالزوجة الواحدة ، وبمقد شرعي كوثيقة خالدة لا يفقدها الطلاق والموت بريقها ، لقوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

وحياة الإنسان مطلقاً هي متاع قليل في عمر الزمن ، كل يوم ينقضي محسوب من عمره ، ولكن هناك فرق في الماهية والعمل وترتب الجزاء ، إذ يؤدي المؤمن الفرائض العبادية بسكينة لقوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣) ويدرك أن الحسنات تتراكم ، والثواب الجزيل بانتظاره ، وما الموت إلا انتقال من دار الإبتلاء إلى دار السعادة الأبدية.

أما الكافر فانه يشعر بزوال التمتع وقد نزل القرآن ليخبر بأمرين :

الأول : سرعة زوال التمتع بنعم الدنيا .

الثاني : ذات متاع الدنيا قليل ، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ

لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٤).

(١) سورة النساء ٣.

(٢) سورة الروم ٢١.

(٣) سورة الرعد ٢٨.

(٤) سورة النساء ٧٧.

وتتضمن الآية أعلاه الأمر من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقول بقانون قلة متاع الدنيا ، ترى لمن يتوجه قول النبي هذا ، الجواب إلى المسلمين والناس جميعاً ، لأصالة العموم المستقرأة من قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(١) ، وعدم وجود تخصيص.

نعم المؤمن يتخذ من الدنيا وسيلة ووعاء للعبادة والصلاح والتقوى ، أما الكافر فقد أخبرت عنه آية البحث بقيامه بكثرة الأسفار مع التلبس بالكفر ، لبيان أن المؤمن لو أكثر من الأسفار فانها تكون مناسبة لذكره الله عز وجل ، هنا وهناك لتزهو الأرض به ، وتشهد له البقاع التي ذكر الله فيها.

وهل تشهد البقاع على الكافر في قلبه في البلاد متلبساً بالكفر والجحود والضلالة ، المختار نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾^(٢).

وفي وصية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي ذر (يا أبا ذر، ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له بها يوم القيامة ، وما من منزل نزله قوم إلا وأصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم)^(٣).

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٤) إدراك الكافر بأنه تعلقه وكثرة أسفاره في الأمصار إنما هو متاع قليل وزائل .

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة الزلزلة ٤.

(٣) الأمالي للطوسي ١١١/٢.

(٤) سورة ق ١٦.

لقد منعت آية البحث الذين كفروا من التفاخر والتباهي بكثرة الأسفار ، وهو من إعجاز القرآن الغيري ، والآثار والمنافع التي تترشح عن تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين آيات القرآن .

قانون صلاة الخوف تخفيف وحاجة

قال تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ۝ ﴾^(١).

أي مفروض وواجب منجماً في أوقات مخصوصة ما أن يؤدي فرض كصلاة المغرب إلا وينتظر حلول وقت صلاة العشاء لأداء الصلاة . وعن الإمام الباقر عليه السلام في الآية : يعني كتاباً مفروضاً . ومن سنن التخفيف في الشريعة السمحاء صلاة الخوف . لبيان أن من أسباب سخط الله على الذين كفروا جعلهم النبي محمداً والمؤمنين مضطرين إلى أداء الصلاة في حال خوف وحيطة مع تقيد الصلاة ، والإكفاء بأقل الواجب منها .

ومن الإعجاز ومنع الاختلاف بين المسلمين والتشديد على النفس في المقام نزول القرآن بصلاة الخوف ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ۝ ﴾^(٢).

وقد أسست علم التقدير ومنه في المقام أمر مستحدث وهو أن الإفتتان لا يختص بأداء صلاة الخوف عند السفر ، فيكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : إن يفتنكم الذين كفروا ساعة الصلاة .

الثاني : إن يفتنكم الذين كفروا أوان الصلاة .

(١) سورة النساء ١٠٣.

(٢) سورة النساء ١٠١.

الثالث : إن يفتنكم الذين كفروا وانتم في الحل مع الأمن في السفر والضرب في الأرض فيشملة حكم تقصير الصلاة .

الرابع : إن أوجستم خيفة من الذين كفروا .

الخامس : إن خاف الذي في الحضر على الذي في السفر .

ولم تقل الآية : إن فتنكم الذين كفروا بل قالت (إن خفتهم) أي الأمر راجع لأمارات وعلامات الخوف بأدنى مصاديقها ولا يشترط تحقق الإفتتان والتهديد لصلاة القصر .

وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الخوف في أكثر من كتيبة لتكون صلاته هذه أسوة للمسلمين ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١).

واخرج ابن جرير عن الإمام علي عليه السلام (سأل قوم من التجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ثم انقطع الوحي .

فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي صلى الله عليه وسلم ، فصلى الظهر فقال المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلا شددتم عليهم .

قال قائل منهم : إن لهم مثلها أخرى في أثرها ، فأنزل الله بين الصلاتين ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِن خِفْتُمْ أَن يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا * وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ

فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَمَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ^(١) إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢) فنزلت صلاة الخوف^(٣).

ونزلت آية الخوف أعلاه في كتيبة عسفان التي وقعت في جمادى الأولى سنة ست للهجرة بعد معركة الخندق ، وقبل صلح الحديبية .

ونبين هنا التباين الزماني بين نزول صلاة القصر ونزول صلاة الخوف وإن جمعتهما آية واحدة ، فقد نزلت آية القصر بخصوص سؤال جماعة من التجار للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والمدار على عموم المعنى وليس سبب النزول وحده ، ثم بعد ذلك بعام نزلت صلاة الخوف بكتيبة عسفان والتي تسمى أيضاً غزوة بني لحيان ، وجمعت مع آية القصر في إعجاز قرآني .

و(عن أبي عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر .

فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم .

فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر } وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة { فحضرت .

فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخذوا السلاح وصففنا خلفه صفين ، ثم ركع فركعنا جميعاً ، ثم سجد بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم .

(١) سورة النساء ١٠١-١٠٢ .

(٢) سورة النساء ١٠٢ .

(٣) الدر المنثور ٣/٢٢١ .

ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وهؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعاً ، ثم رفع فرفعوا جميعاً ، ثم سجد الصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا .
 ثم سلم عليهم ثم انصرف . قال : فصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين . مرة بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم^(١) .
 وصلاة الخوف من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة كما يمكن تقسيمها إلى قسمين :
الأول : صلاة الخوف .

الثاني : صلاة شدة الخوف ومنها صلاة المطاردة ، وصلاة المواقفة .
 ومن شرائط صلاة الخوف كثرة عدد المسلمين في الميدان ، بحيث إذا افرقوا فرقتين صارت فرقة تشاغل وتقاتل العدو حتى تفرغ الأخرى من صلاتها مع قصر الصلاة بجعل الرباعية ركعتين .
 والمختار أن النسبة بين صلاة القصر وصلاة الخوف هو العموم والخصوص المطلق ، فصلاة القصر أعم ، وكل صلاة خوف هي من صلاة القصر وليس العكس .

كيفية صلاة الخوف

يصلي كل من الإمام والمأمومين ركعتين بأن ينقسم المسلمون إلى فرقتين ، فرقة تقابل العدو وأخرى تقوم إلى الصلاة ، فتركع مع الإمام الركعة الأولى ، وعند قيامه للركعة الثانية يطيل القراءة ، وهم ينوون الإنفراد فيقرأون الفاتحة وسورة ويتشهدون ويسلمون ، ويقومون حذاء العدو لحراسة الأخرى .

وتأتي الفرقة الأخرى لتدرك الإمام وهو في الركعة الثانية ذاتها ، ويفتحون الصلاة بتكبيرة الإحرام ، ويركعون مع الإمام وهي الركعة الأولى

(١) الدر المنثور ٣/ ٢٢٤ .

له ، فاذا جلس للتشهد قاموا للركعة الثانية فيصلونها ثم يتشهدون ويسلم الإمام بهم .

وهناك صيغ أخرى لصلاة الخوف بحسب الحال .
والأهم هو السلامة والنجاة .

فلا بد أن ينتهي القتال ويعود المسلم لأداء الصلاة بأمن ، قال تعالى ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١).

إسلام ثمامة بن أثال

وهو سيد أهل اليمامة ، ومن سادة بني حنيفة ، وأحد أشراف قبيلة بكر بن وائل ، وقد أرسل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل فتح مكة العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين فاسلم المنذر ، ورجع العلاء فمر باليمامة ، فقال له ثمامة بن أثال : انت رسول محمد . قال : نعم ، قال : لا تصل إليه أبداً فزجره عمه عامر وقال : ما لك وللرجال .

وعاد العلاء بن الحضري إلى المدينة فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي بادر برفع يديه بالدعاء (اللهم اهد عامراً وأمكني من ثمامة)^(٢). فاسلم عامر وأما ثمامة فقد تم للمسلمين أسره من غير قتال في سرية محمد بن مسلمة في شهر محرم من السنة السادسة للهجرة قبل صلح الحديبية . وكان ممن يحارب النبوة والتنزيل ، ولم يؤذوه ، ولم يكونوا يعرفونه إذ كان يسير في الجادة العامة ذاهباً إلى مكة لأداء العمرة .

ولما دخلوا به المسجد النبوي رآه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فعرفه ، فقال أتدرون من أخذتم ، هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، أحسنوا إيساره ودخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم البيت فقال لأزواجه : إجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، لبيان إكرامه ، ودعوة الصحابة

(١) سورة النساء ١٠٣.

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة ٨٣/٢.

للعناية به ، والإمتناع عن إيذائه أو الثأر منه خاصة وأنه كان يحارب النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد حجزه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد النبوي ليسمع الأذان ويرى صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بخشوع ، ويسمع آيات القرآن ، والتآخي بين الصحابة ، والتكافل بين المهاجرين والأنصار .

ومر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد (فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ .

فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقَتَّلَ تَقَتَّلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعَمَ تُنْعَمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتَرَكَهُ ثُمَّ مَرَّ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى .
فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَرَدَّ عَلَيْهِ كَمَا رَدَّ عَلَيْهِ أَوَّلًا ثُمَّ مَرَّ مَرَّةً ثَالِثَةً فَقَالَ :
أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ .

فَأَطْلَقُوهُ فَذَهَبَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ جَاءَهُ فَأَسْلَمَ وَقَالَ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ وَجْهَ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ .
فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ دِينَ أَبْغَضَ عَلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الْأَدْيَانِ إِلَيَّ وَإِنْ خَلَيْكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ^(١) .

وقوله (تَقَتَّلْ ذَا دَمٍ) أي مطلوب بدم لكم عندي ، وتأخذون ثأره بقتلي فلا لوم عليكم ، ولا يحق لقبيلتي بني حنيفة المطالبة بدمي ، ومنهم من فسر قوله (ذَا دَمٍ) بأنه تهديد للمسلمين .

فعاد ثُمَامَةُ إلى مكة وعلمت قريش باسلامه ، فقالوا له : صبوت يا ثُمَامَةُ ؟ في تبكيت وسخرية بأنه ترك دينه ودين آبائه (قَالَ لَا وَاللَّهِ وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٤٧ .

مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا وَاللَّهُ لَا الْيَمَامَةَ حَبَّةَ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .
وَكَانَتْ الْيَمَامَةُ رِيفَ مَكَّةَ فَانْصَرَفَ إِلَى بِلَادِهِ وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جَهَدَتْ قَرِيشٌ^(١).

ليبان أن مكة كانت آنذاك دار حرب لم يدخل أهلها الإسلام بعد ، ثم عاد من مكة إلى بلاده في اليمامة ، وهو بلد كبير فيها قرى وحصون وزروع ونخيل ، وكانت اليمامة تسمى جوا .
وقيل أن اليمامة اسم المرأة التي يضرب بها المثل أيام الجاهلية في نظرها من مسافة بعيدة جداً .

وقيل كانت ترى على ثلاثة أيام ولا يخلو من مبالغة وتضخيم مع تقادم الزمان ، قلع تبع عينيها ، وصلبها على باب جوا فسميت بها .
فمنع ثمانية قومه من حمل الحنطة إلى مكة فاضطرت قريش إلى أكل العلمز ، وهو طعام يلجأون إليه في سني المجاعة يخلطون فيه القردان ، والدم وأدبار الإبل ثم يشوونه في النار ، وكتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنك تأمر بصلة الرحم وانك قد قطعت أرحامنا) وجاء أبو سفيان إلى رسول الله ، وفي رواية قال ((ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال (بلى).

قال (فقد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع)^(٢) فكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ثمانية أن يخلي بينهم وبين حمل الحنطة والطعام لأهل مكة ، وأنزل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾^(٣).

(١) زاد المعاد ٢٤٧/٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٧٢/٦ .

(٣) سورة المؤمنون ٧٦ .

وبعد أن كانت قوافل قريش تجوب الصحراء للتجارة بين مكة والشام ، ومكة واليمن ، كما ورد في قوله تعالى ﴿لِيَلْبِغَ قُرَيْشٌ﴾ ^(١) **إِلَّا بِأَنْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** * **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** * **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ^(٢) .

ابتليوا بالفاقة ، وقلة الطعام لأنهم حاربوا النبوة والتنزيل ، ولم يعبدوا الله عز وجل ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ^(٣) في آية البحث ، الجواب نعم .

فاضطروا للجوء إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليأذن لثمامة بتصدير الخنطة والشعير لأهل مكة ومن مصاديق الرحمة في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم استجابته لسؤال أبي شفيان في الحال من غير أن يضع شروطاً .

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ^(٤) .

لقد ذكرت الآية أعلاه المؤمنين بالخصوص وأنهم لا يخرجون للدفاع جميعاً بل تبقى طائفة للتفقه في الدين ، ودراسة أحكام الشريعة ، وليست طائفة واحدة بل من كل فرقة من كل بلدة طائفة وهم جماعة متعددة ، وذهب بعضهم أن المراد من طائفة شخص واحد لإنطباق لفظ الطائفة على الفرد الواحد للاستدلال على حجية خبر الواحد مع قولي بهذه الحجية ، ولكن الآية لا تصلح للاستدلال ، وهو خلاف الأصل ، فالمقصود إرادة الجماعة ، بالإضافة إلى صيغة الجمع ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ، ﴿لِيُنذِرُوا﴾ إلى الضمير (هم) في ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ .

(١) سورة قريش ١٠٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٢ .

وقد ذكرت الآية المؤمنين على نحو الحصر والتعيين ، ترى لماذا لم تقل (الذين آمنوا) أو (المسلمين) .

الجواب يدخل في الذين آمنوا المنافقون ، أما المسلمون فالنسبة بينهم وبين المؤمنين عموم وخصوص مطلق ، والمؤمنون أخص ، وفي التنزيل ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾^(١).

ترى لماذا قالت الآية ﴿لِيَتَقَهَّرَ فِي الدِّينِ﴾ و ﴿لِيُنْذِرُوا﴾ ولم تقل (وينذروا) الجواب استقلال موضوع الإنذار ، ويشمل بيان وتلاوة ما نزل من الآيات والسور والسنة النبوية القولية لكل زمان ، والعلوم المستنبطة منها ، قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ﴾

(ثم) -بضم الثاء- حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي للدلالة على وجود مهلة وفترة بين الأمرين أو الحدثين المعطوف والمعطوف عليه ، كما في قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

أما (ثم) فهو اسم بمعنى هناك أو هنالك وهو ظرف مكان ، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾^(٤).

ويدل حرف العطف (ثم) على ثلاثة أمور :

الأول : التشريك في الحكم .

(١) سورة الحجرات ١٤.

(٢) سورة الذاريات ٥٥.

(٣) سورة البقرة ٢٨.

(٤) سورة الإنسان ٢٠.

الثاني : الترتيب .

الثالث : المهلة .

فلم تقل الآية (متاع قليل ومأواهم جهنم) لتدل الآية بأن المتاع القليل لا يعني سريع الزوال في الحال ، فقد يستمر لسنوات ، وأن قلته في ذاته ومدته ، وماهية التمتع به .

ومن معاني (ثم) في آية البحث الإشارة إلى عالم البرزخ .
ومن الإعجاز في مجئ (ثم) في آية البحث بيان قانون الحياة الدنيا مناسبة وفرصة للتوبة والإنابة ، فيمد الله عز وجل في عمر الإنسان ليتوب ، ويعجز عن كثرة الأسفار فيتدبر بكيفية زوال لذتها ، وتذكره آية البحث بترتب الحساب عليها في الآخرة .

ومن معاني (ثم) تفضل الله عز وجل بفتح مكة ، ودخول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه المسجد الحرام وتكسير الأصنام المنصوبة فيه وعددها ثلاثمائة وستون صنماً ، فدخل أغلب أهل مكة رجالاً ونساءً الإسلام .

وجلس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا لأخذ البيعة من الرجال ، بالسمع والطاعة لله ورسوله ما استطاعوا ، وصاروا يأتون له أفواجا ، ولما تمت بيعة الرجال بايع النساء .

وتجلت مضامين البيعة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَّابٍ يَقْرِئُهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

(وفيهن هند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان متتعبة متكررة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبرها بما كان من صنيعها بجمزة، فهي تخاف أن يأخذ بحدثها ذلك)^(١).

ليبان رحمة الله عز وجل بالناس برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنها برزخ دون دخول النار، إذ يختص الذم وعقوبة دخول النار بالذين يموتون وهم كفار، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُافِرُونَ يُعَذِّبُ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢).

قانون بؤس الكفار في مواطن الآخرة

تبين آية البحث الشدة والعسر الذي يكون عليه الذين كفروا في مواطن يوم القيامة المتعددة.

ومن مفاهيم قوله تعالى ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾^(٣) خفة حساب المؤمنين، وأنهم يوم القيامة في حال يسر وطمأنينة، وتدل عليه الآيات التي تنفي عنهم الخوف والحزن يومئذ مجتمعين ومتفرقين (عن أبي سعيد قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٤) ما أطول هذا اليوم).

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا)^(٥).

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٢٤٧/٥.

(٢) سورة محمد ٣٤.

(٣) سورة المدثر ٩-١٠.

(٤) سورة المعارج ٤.

(٥) تفسير ابن كثير / السيرة النبوية ٢٢٢/٨.

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في دعوة الناس إلى الإسلام الفقير منهم والغني ، والسيد والعبد ، وشديد الكفر أو المتردد من غير خشية من بطشهم ، نعم كان يدعوهم بالوحي والإذن من عند الله ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) فكل دعوة من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإسلام خاصة أو عامة هي شعبة من الوحي .

وفي قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾^(٢) ذكر أن الآية (نزلت في عقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وكانا متحابين وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه .

وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى طعامه ، فلما قرب الطعام ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما أنا بأكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من طعامه .

وكان أبي بن خلف غائباً ، فلما أخبر بالقصة قال : صبأت يا عقبة : قال : لا والله ما أصبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له فطعم . فقال أبي : ما أنا بالذي أرضى منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه .

ففعل ذلك عقبة وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف .

(١) سورة النجم ٣-٤ .

(٢) سورة الفرقان ٢٧ .

فَقُتِلَ عَقَبَةُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، وَأَمَّا أَبِي بَنْ خَلْفٍ فَقَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمُنَابَزَةِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمَا هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

من معاني (ثم)

وردت آية البحث بحرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي. فلم تقل الآية : متاع قليل ومأواهم جهنم ، لبيان الفترة ومدة بقاء الميت. في القبر في عالم القبر والذي سمي البرزخ لأنه وسط وحاجز بين الدنيا ويوم القيامة ، وهذا المعنى لا يمنع من كونه جزء من عالم الآخرة ، ومن معاني الترتيب والتراخي لكلمة (ثم) في آية البحث أمران :

الأول : ما قبل (ثم) لبيان أن المتاع القليل لا يعني القطع السريع ، إنما هو قليل على نحو الإجمال ، وكل فرد من النعم التي عند الذين كفروا له أجل قريب ، أقرب مما هو متعارف ، ومنهم من تنقطع النعم عنه وتغيب فجأة ، ومنهم من يموت أو يقتل على الكفر ، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

فبعد أن كان الذين كفروا يتقلبون في البلاد في غبطة ولهو ومحاربة للتنزيل انقلبوا إلى بلدهم من معركة أحد بخيبة وخسران ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٤).

وهل تختص الخيبة في المقام بالمشركون الذين عادوا من معركة أحد ، الجواب لا ، إذ تغشت الخيبة والأسى عامة الذين كفروا ، وأدركوا عجزهم عن قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن وقف انتشار الإسلام بسلاح الحكمة والموعظة الحسنة .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٢/٩.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) أنظر الجزء الواحد والتسعين من كتابنا الموسوم معالم الإيمان الذي اختص بتفسير هذه الآية .

(٤) سورة آل عمران ١٩٧.

الثاني : ما بعد (ثم) من عالم البرزخ دخول مدة البعث في القبر قبل عالم الحساب والجزاء ، وفي التنزيل ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾^(١).

وعن (أيفع بن عبد الكلاعي؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.

قال: لنعم ما تجرتم في يوم أو بعض يوم: رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين .

ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم. فيقول: بشس ما تجرتم في يوم أو بعض يوم: ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين)^(٢).

وهل يدخل في (ثم) في آية البعث مواطن يوم القيامة من النشور ، والحوض ، والميزان ، وتطابير الصحف ، والصراط ، الجواب نعم ، لأن الآية قالت ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فهذه المواطن من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٣)، وعن (جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار)^(٤).

(١) سورة المؤمنون ١١٢-١١٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/٥٠٠.

(٣) سورة الحج ٤٧.

(٤) الدر المنثور ٤/١٩٤.

ولا ينحصر طول (ثم) على الذين كفروا بأفراد الزمان وتعدد العوالم بل يشمل الشدة والأذى على الكافر فيها فيكون طولها مضاعفاً بخلاف المؤمن .

أما المؤمن فيكون في هذه المواطن في سلام وأمن من الخوف والحزن ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾

ذكرت الآية النار بصيغة المفرد (جهنم) وليس في القرآن لفظ (النيران) بصيغة الجمع وكذا بالنسبة لأسماء النار الأخرى مثل جهنم ، لظى . وهو من اللطف والرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة ، فان قلت قد علمنا أنه من الرحمة في الآخرة فكيف تكون صيغة المفرد للنار رحمة في الدنيا ، الجواب إنه من التخفيف في الوعيد .

نعم صيغة المفرد لا تمنع من التعدد في طبقات وأبواب النار بلحاظ أن المراد من هذه الصيغة اسم الجنس .

وبينما يتمتع الذين كفروا بكثرة الأسفار وما فيها من الأحوال والتعارف والصلات مع المجتمعات والعادات المختلفة ، وكثرة المعارف في الأمصار جاءهم الوعيد في هذه الآية لسلب لذة التمتع بالنعم منهم ، ولدعوتهم للإيمان ، ودعوة المسلمين للصبر على الفقر والفاقة وقلة العدد في مقابل كثرة الذين كفروا من قريش وحلفائها .

لذا ورد الخطاب من الله تعالى للمسلمين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الزمر ٧٣.

(٢) سورة آل عمران ١٣١.

وإذ وردت هذه الآية بصيغة الغائب ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾^(١) فقد وردت آية أخرى خطاباً إلى الذين كفروا في الآخرة بقوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

ليبان أن آية البحث رحمة بالذين كفروا لأنها تتضمن بيان بطلان معتقدهم ، وقبح فعلهم ، مع حثهم على التوبة والتدارك في الدنيا ، ومن لم يتب تقوم عليه الحجة في الآخرة فيخاطب بما يبعث اليأس والقنوط في نفسه وجهنم اسم علم يراد منه النار الموقدة ، وهو اسم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وهو مشتق من الجَهْم وهو الكراهية ، وقيل علة منعه من الصرف العلمية والعجمة .

وورد اسم النار في القرآن بصيغة المفرد ولم يرد بصيغة الجمع (نيران) بينما ورد ذكر الجنة بصيغة المفرد والجمع كما في الآية التالية بقوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوَّارِبُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(٣).

أسماء النار في القرآن

تعددت أسماء النار في القرآن ، وكل اسم له موضوع ودلالة بلحاظ أن الاسم غير المسمى ، وتدل كثرة أسماء النار على شدة العذاب فيها وإنذار الناس ، وهو أصل أسمائها وأكثرها ذكراً في القرآن ، إذ ورد مائة وخمسة وأربعين مرة ، بينما ذكر اسم الجنة ستاً وستين مرة ، وكثرة ذكر النار في القرآن إنذار ووعيد ، وحجة على الناس ، ودعوة لهم للإيمان ، كما ورد ذات الاسم في أحاديث نبوية كثيرة .

(١) سورة آل عمران ١٩٧.

(٢) سورة الحديد ١٥.

(٣) سورة آل عمران ١٩٨.

ولكل اسم من أسماء النار معاني ودلالات خاصة تبعث على النفرة من الكفر الذي هو سبب دخولها ، وتبين شدة الضرر فيها وتعدد جهاته ، ومن هذه الأسماء :

الأول : اللظى أي ذات اللهب الخالص المتوقد الذي لا دخان فيه ، قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى * نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى﴾^(١) تتلظى من شدة حرها ، وفي آية أخرى ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾^(٢) و(قيل : هي الدركة الثانية سميت بذلك لأنها تتلظى)^(٣).

الثاني : الجحيم ورد هذا الاسم لنار الآخرة ستاً وعشرين مرة في القرآن منها ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(٤) والجاحم : المكان شديد الحر .

الثالث : الحطمة سميت به النار لأنها تحطم وتكسر ، ويبلغ الألم فيها القلوب ، قال تعالى ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ﴾^(٥).

فالنار تحطم من يلقي فيها وتنفذ إلى القلوب والأفتدة ، وبينما ذكر اسم ﴿الْجَحِيمِ﴾ ستاً وعشرين مرة في القرآن فانه لم يرد اسم ﴿الْحُطَمَةِ﴾ في القرآن إلا مرتين ، وفي الآيتين المتجاورتين أعلاه .
وقال (الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : تدرون كيف أبواب النار.

قلنا : نعم كنعو هذه الباب.

(١) سورة المعارج ١٥-١٦ .

(٢) سورة الليل ١٤ .

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٣٧٠/١٣ .

(٤) سورة الأنفطار ١٤ .

(٥) سورة الهمزة ٤-٧ .

فقال : لا ، ولكنها هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى وإن الله تعالى وضع الجنان على الأرض ، ووضع النيران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقهما الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية^(١).

وهل يدل قوله عليه السلام (الجنان على الأرض) على أن الجنات في الأرض ، الجواب لا ، إنما أراد بيان وتوضيح انبساط أرض الجنان مع تعددها عرضاً وليس عمودياً.

الرابع : جهنم أي بعيدة القعر ، في إشارة إلى تعدد طبقات النار ، وكل طبقة لها باب ، وقد ذكرت كلمة جهنم سبعاً وسبعين مرة في القرآن ، وهل كلمة جهنم عربية أم أعجمية على قولين ، وأختلف القائلون بأنها أعجمية هل أصلها فارسية ، والمختار أنها عربية .

ويمكن تأسيس قانون وهو لو دارت الكلمة القرآنية بين كونها عربية أو أعجمية فالأصل هو عربيته لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

وقد قال ابن منظور بعربيته بقوله (الْجَهَنَّمَ الْقَعْرُ الْبَعِيدُ وَبُثْرُ جَهَنَّمَ وَجَهَنَّمَ بِكسر الجيم والهاء بعيدة القعر وبه سميت جَهَنَّمَ لِبُعْدِ قَعْرِهَا)^(٣) ، وأضاف (ويقال هو فارسي معرب) ونسبته إلى القيل تضعيف له .

وقال (ابن خالويه بثر جَهَنَّمَ للبعيدة القعر ومنه سميت جهنم قال فهذا يدل أنها عربية)^(٤).

وقد ذكرت آية البحث النار باسم جهنم بقوله تعالى ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٣٥٢/٧.

(٢) سورة يوسف ٢.

(٣) لسان العرب ١١٢/١٢.

(٤) لسان العرب ١١٢/١٢ .

الخامس : سقر: ورد هذا الاسم للنار أربع مرات في القرآن ، (والاسم عربي من قولهم سقرته الشمس أي أذابته وأصابه منها)^(١).

وقد توعد الله عز وجل الذي ينعت القرآن بأنه سحر بقوله تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَا تُثْقِي* وَلَا تَذَرُ* لَوْ آخِذَةٌ لِلْبَشَرِ﴾^(٢).

وهذه الآيات من سورة المدثر وهي من أوائل السور التي انزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتبين هذه الآية قلة كلمات كل آية منها ، إذ تتألف كل واحدة منها من كلمتين ، مع إفادتها معنى تام . وهو من مصاديق القانون العام بقصر الآيات المكية ، وقلة كلماتها.

السادس : السعير ورد هذا الاسم للنار ست عشرة مرة في القرآن ، ومنه قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ بِلُغَةٍ سَعِيرًا﴾^(٣) ، وسميت النار سعيراً لاشتعالها وارتفاعها ، وارتفاع لها بما يبعث الفزع والخوف عند كل من يراها ، فكيف بالذي يساق إليها ، ويقذف فيها ، أعاذنا الله عز وجل منها .

السابع : سجين : وهو من كلمة السجن أي المكان الذي يحبس فيه السجين ، وزيد اللفظ للتنبيه وشدة الأذى في سجن النار ، إذ يقترن مع العذاب الأليم .

وقد ذكر اسم السجين للنار مرتين ، وفي آيتين متجاورتين من سورة المطففين ، وهي سورة مكية ، قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾^(٤).

الثامن : الهاوية : ورد هذا الاسم للنار مرة واحدة في القرآن بقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةُ* نَارُ حَامِيَةٍ﴾^(١) وسميت

(١) لسان العرب ٣٧٢/٤.

(٢) سورة المدثر ٢٦-٢٩.

(٣) سورة النساء ٥٥.

(٤) سورة المطففين ٧-٨.

النار هاوية لأن الذي يلقي فيها يهوى إلى قعرها ، وليس من حاجز أو برزخ يمنعه من الهوي في النار.

وهذه الآيات من سورة الواقعة وهي مكية ويلاحظ قلة كلمات كل آية ليلا مس الإنذار القرآني شغاف القلوب ، ويسهل على وفد الحاج والمعتمرين نقل الآيات إلى قومهم .

علم المناسبة

وردت كلمة (مأواههم) اثنتي عشرة مرة في القرآن ، كلها بخصوص مأوى الكافرين في العذاب والبؤس الشديد في الآخرة جزاء وعقاباً لهم .
ووردت ثماني مرات بصيغة ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وأربع مرات بصيغة ﴿مَأْوَاهُمْ النَّارُ﴾ بلحاظ موضوع الآية فتارة يأتي قوله تعالى ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ بعد ذكر الجنة التي هي ثواب للمؤمنين كما في قوله تعالى ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ^(١).
والنسبة بين النار وجهنم عموم وخصوص مطلق ، فالنار أعم وجهنم إحدى طبقات النار ، وتارة تكون النسبة التساوي عندما يراد من جهنم ذات النار .

ولم يرد في القرآن لفظ (مأواههم الجحيم) مع أن لفظ (الجحيم) ذكر في القرآن ستاً وعشرين مرة ، وذكر لفظ (مأواه) بصيغة المفرد ثلاث مرات ، وهي بخصوص عقوبة المشركين والكفار ، وجاءت واحدة منها بخصوص المسلم الذي يفر من لقاء جيش المشركين من غير عذر أو رجوع إلى فئة

(١) سورة القارعة ٨-١١.

(٢) سورة السجدة ١٩-٢٠.

أُخْرَى يُقَاتِلُ مَعَهَا ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يُؤْلِمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وقال بعموم الآية ابن عباس ، وقال قتادة وأبو حنيفة أن الآية خاصة بمعركة بدر^(٢).

والمتحيز هو فئة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والسرايا التي يبعثها ، وكذا من فر إلى أميره وأصحابه.

ومن الآيات في المقام أن النبي محمداً لم يغادر موضعه في ميدان المعركة حتى في حال شدة هجوم المشركين ، ففي معركة أحد صارت حجارة المشركين تصل إليه وأصابته جراحات منها كسر رباعية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي أسنانه بين الثنية والناب ، إذ رماه عتبة بن أبي وقاص بحجر فكسر بعض أسنانه ، وشق شفته ، وسال الدم منها ومن جبهته.

و(عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ رَمَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ فَكَسَرَ رَبَاعِيَتَهُ الْيُمْنَى السِّفْلَى ، وَجَرَحَ شَفْتَهُ السِّفْلَى ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَهَابٍ الزَّهْرِيَّ شَجَّهُ فِي جَبْهَتِهِ وَأَنَّ ابْنَ قَمِيَّةٍ جَرَحَ وَجْهَهُ فَدَخَلَتْ حَلَقَتَانِ مِنْ حَلْقِ الْمَغْفَرِ فِي وَجْهِهِ).

ووقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليوقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون.

فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً^(٣).

وعن السدي (قال أتى بن قميئة الحارثي فرمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة وانطلق طائفة فوق الجبل إلى الصخرة).

(١) سورة الأنفال ١٦.

(٢) النكت والعيون ٥٤/٢.

(٣) الروض الأنف ٢٦٢/٣.

وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس : إلي عباد الله إلي عباد الله فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فجعلوا يسرون بين يديه^(١).
ليبان أن النبي محمداً لم يغادر مكانه في الميدان ، وهو من مصاديق رسالته وحسن توكله على الله ، وحفظ الله عز وجل له ، ومن أسباب عودة الصحابة للقتال .

و(عن عطاء بن أبي رباح في قوله ﴿وَمَنْ يُؤْمِرْ بِمُؤْمِرٍ دُبْرَهُ﴾^(٢) قال : هذه منسوخة بالآية التي في الأنفال ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾^(٣) (٤).

قوله تعالى ﴿وَسُورَ الْمَاهِدِ﴾

بعد أن بينت آية البحث أن النعم التي عند الذين كفروا متاع قليل وبلغة زائلة ، أخبرت عن كونه سبباً للإختبار والإمتحان ، والحجة عليهم ، والوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب .

ومن رحمة الله عز وجل بالناس نزول كلامه بأن النار فراش أذى وضرر للذين يدخلونها ، ولا يدخلها إلا الكفار وهو جزاء يستحقونه بعد أن جاءتهم الإنذارات السماوية ولم يتعظوا بل أصروا على محاربة النبوة والتنزيل وأحكام الآية عامة ومتصلة إلى يوم القيامة ، ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٥).

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٤/٣ .

(٢) سورة الأنفال ١٦ .

(٣) سورة الأنفال ٦٦ .

(٤) الدر المنثور ٤/٤٢٧ .

(٥) سورة الأنفال ٣٨ .

فان قلت ابتدأت الآية أعلاه بالأمر (قل) وهو خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهل القدر المتيقن منه أيام البعثة النبوية ، الجواب لا ، بل هو متجدد إلى يوم القيامة .

وهو من معاني صبغة الإعجاز العقلي للآية القرآنية وأسرار تلاوة كل مسلم ومسلمة لآيات القرآن كل يوم في الصلاة الواجبة .

لتكون هذه الصلاة إنذاراً متكرراً وحجة على الذين كفروا في كل زمان ، وليكون تقدير (قل) في الآية أعلاه وجوه :

الأول : يا أيها الرسول قل للذين كفروا إن ينتهوا .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا قولوا للذين كفروا ان ينتهوا .

الثالث : يا أيها الذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم .

ويتباين طول مدة اللبث في البرزخ ، وتباين مدته بين إنسان وآخر وجيل وآخر ، فالأولون من الموتى أطول إقامة في البرزخ بخلاف المتأخرين ، وهل يمكن القول بوجود أمة من الناس لم تدخل عالم البرزخ ، الجواب لا ، لوجود فترة بين موت آخر الناس وبين النفخة الأولى في الصور ، نعم الذين يموتون بالصيحة لن يدخلوا القبور .

فليس من إنسان يدفنهم إذ تأتي الصيحة للناس فجأة على حين غفلة منهم ، وإنشغال بالدنيا ، قال تعالى ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾^(١) أي تأتيهم نفخة إسرافيل في الصور وهم يخاصم بعضهم بعضاً ، وهل فيه تبكيت للناس الذين يتقاتلون فيما بينهم لأموال الدنيا ، وأن الموت والصيحة قريبة .

الجواب نعم ، إذ تأتي الصيحة للناس وهم في الأسواق والمجالس والبيوت لتموت معهم رغائبهم وأحلامهم وأمانيتهم وخصوماتهم ، وتبقى أعمالهم التي تصاحبهم في الآخرة .

إلا أن يكونوا قد صنعوا آلات ورييوتات تعمل بالذكاء الاصطناعي ، وما هو أرقى منه من التكنولوجيا وأسباب أخرى تقوم بدفنتهم في الأرض عند الموت .

علم المناسبة

ورد قوله تعالى ﴿بِسْمِ الْمَهَادِ﴾ في القرآن خمس مرات وهي حسب نظم القرآن :

الأولى : قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾^(١) ، في ذم الذي يكثر الفساد في الأرض اذا تولى أمراً أو عملاً في الأرض وسنحت له الفرصة بالتصرف من غير زاجر أو جزاء عاجل فانه لا يعلم بأن الله عز وجل أعد له عذاباً أليماً.

و(عن السدي في قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ...الآية﴾^(٢) قال : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف لبني زهرة ، أقبل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وقال : جئت أريد الإسلام ، ويعلم الله أنني لصادق .

فأعجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منه فذلك قوله ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾^(٣) ثم خرج من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فمر بزرع لقوم من المسلمين وحممر ، فاحترق الزرع وعقر الحممر ، فأنزل الله ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) الآية^(٥) .

(١) سورة البقرة ٢٠٦.

(٢) سورة البقرة ٢٠٤.

(٣) سورة البقرة ٢٠٤.

(٤) سورة البقرة ٢٠٥.

(٥) الدر المنثور ٤٧٦/١.

الثانية : قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ بَلْهُمْ يُشْهَرُونَ﴾ إلى جهنم وبئس المهاد^(١) خطاب وأمر من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلحق به الأمة بأخبار الذين كفروا بالله والنبوة بأمرين : الأول : في الحياة الدنيا وهو إنكسار الذين كفروا ، وهزيمتهم والذي تحقق مصداقه في معركة بدر ، وأحد ، والخندق ، وحنين ، فان قلت لم ينهزم المشركون في معركة أحد التي جرت في النصف من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية الشريفة ، والجواب لقد عجزوا عن تحقيق أيأ من غاياتهم الخبيثة .

وورد بخصوص واقعة معركة بدر قوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾^(٢) ، وعندما علم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن المعركة مع المشركين يومئذ واقعة بسبب إصرارهم على القتال ، شاور أصحابه خاصة الأنصار لأنهم كانوا قد تعهدوا بنصره عند وصوله إلى المدينة ، ولما سمع من الصحابة العزم على الدفاع عن النبوة والتنزيل قال (سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم)^(٣).

الثاني : إخبار الآية عن علوم الغيب ووجود النار يوم القيامة . ومن معاني الجمع بين الآية أعلاه وآية البحث أن علة القاء الذين كفروا في نار جهنم هو الكفر بالله ، وليس الثقل في البلاد وحده ، إنما يكون هذا الثقل وكثرة الأسفار سبباً لنقل الأحمال والخطايا على ظهورهم بنشرهم مفاهيم الضلالة ، وتبين الآية خسارة الذين كفروا في النشاطين .

الثالثة : من آيات ﴿بئس المهاد﴾ آية البحث .

(١) سورة آل عمران ١٢.

(٢) سورة القمر ٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير ١٨/٤.

الرابعة : حشر الذين كفروا يوم القيامة في نار جهنم بعد الحساب العسير ، وشدة وأهوال مواطن الآخرة .

وهل تكون بدايتها من عالم البرزخ ، الجواب نعم ، إذ يبدأ أذى الكفار من حين دخوله القبر بضغطه القبر ، ثم يأتي زمان ظلمة وقيامه القبور ومساءلة منكر ونكير .

(وقيل في بعض الاخبار: إن اسمي الملكين اللذين ينزلان على المؤمن مبشر وبشير، وقيل: إنه إنما سمي ملكا الكافر ناكرا ونكيرا لانه ينكر الحق، وينكر ما يأتيانه به ويكرهه، وسمي ملكا المؤمن مبشرا وبشيرا لانهما يبشرانه من الله تعالى بالرضا والثواب المقيم)^(١).

التباين والتضاد يوم القيامة

عن الإمام علي عليه السلام (وأما قوله عز وجل ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾^(٢) وكثرته، والناس يومئذ على طبقات ومنازل، فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا.

ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لانهم لم يتلبسوا من أمر الدنيا بشئ، وإنما الحساب هناك على من تلبس بها ههنا ، ومنهم من يحاسب على النكير والقطمير، ويصير إلى عذاب السعير .

ومنهم أئمة الكفر وقادة الضلالة، فاولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا ولا يعاب بهم، لانهم لم يعبوا بأمره ونهيه، ويوم القيامة هم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون)^(٣).

ولبيان التباين بين المؤمن والكافر في مواطن يوم القيامة ، إذ يمتنع الخوف والحزن عن المؤمن لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا

(١) البحار ٦/٢٨٠.

(٢) سورة الأنبياء ٤٧.

(٣) البحار ٩٠/١٠٤.

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾ بينما يستمر عذاب الكافر مع إزدياده وشدته إلى أن يختتم بالسوق إلى النار والخلود فيها.

فنزلت آية البحث رحمة بالناس جميعاً ، ودعوة للصالح ، فمن خصائص آية البحث وجوه :

الأول : قانون الإنذار القرآني بالتوبة والإنابة .

الثاني : قانون إنتفاع الناس من الوعيد القرآني بالتوبة والإنابة .

الثالث : قانون آية الإنذار مادة للاحتجاج على الذين كفروا .

الرابع : قانون الوعيد للذين كفروا تثبيت للمسلمين في مقامات الإيمان .

الخامس : قانون ذم آية البحث للذين كفروا حرب على النفاق ودعوة

عامة للتنزه عنه .

التضاد في الجزاء

أخبر قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢) عن قانون الجزاء بالحسنى للذين استجابوا لله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله وأداء الفرائض العبادية ، والحسنى هي أسمى مراتب النفع ، وقال الماوردي في الآية (تأويلان :

الأول : أحدهما : الجنة ، رواه أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : أنها الحياة والرزق ، قاله مجاهد .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أن تكون مضاعفة الحسنات)^(٣)(١).

(١) سورة البقرة ٢٧٧.

(٢) سورة الرعد ١٨.

(٣) النكت والعيون ٣٠٩/٢.

والمختار أصالة الإطلاق وإرادة الحسنى في الدنيا بالرزق الكريم ،
والأمن وطول العمر والسلامة من الأدران والذكر الحسن بعد الموت ،
والحسنى في الآخرة هي اللبث الدائم في الجنة بلحاظ نظم الآية ووجه المقارنة
والتضاد مع جزاء الذين كفروا ، إذ ذكرت الآية سوء عاقبتهم من وجوه :
الأول : انتفاء الفدية للذين كفروا ولو كان لهم ما في الأرض جميعاً .
وهل قوله تعالى ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾^(٢) ، إشارة إلى صعود الإنسان للسماء
والإنتفاع من ثرواتها ، المختار نعم .

وهل تدل هذه المثلية بأن كنوز السماء ليست أكثر من كنوز الأرض
بأضعاف مضاعفة ، إنما هو قريب من المثل لخزائن الأرض ، وقد ذكرت أن
الإسراء والمعراج مقدمة إعجازية لعالم الطيران وصعود الإنسان في السماء .
و(لو) في قوله تعالى ﴿لَوْ أَنَّهُمْ مَفِى الْأَرْضِ﴾^(٣) ، حرف إمتناع
لإمتناع أي أنه لا يحصل .

الثاني : إخبار الآية أعلاه عن شدة حساب الذين كفروا ابتداء من عالم
القبر .

ولا تختص شدة حساب الذين كفروا بموطن من مواطن يوم القيامة بل
تشملها كلها .

الثالث : سوء عاقبة الذين كفروا باقامتهم الدائمة في النار .

الرابع : إقامة الحجة يوم القيامة على الذين كفروا ، فمن معاني ﴿بِئْسَ
الْمِهَادُ﴾ أي سوء ما مهدوا لإقامتهم في النار بسوء ما عملوا في الحياة الدنيا ،

(١) أبو الحسن على بن محمد البصري البغدادي الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠ هـ) هجرية /
النكت والعيون ٣٠٩/٢ .

(٢) سورة الرعد ١٨ .

(٣) سورة الرعد ١٨ .

ليان أن المتاع القليل واللذة في الدنيا سرعان ما تنقضي ، ولكن ضررها عذاب شديد في الآخرة .

و﴿بِسْرِ﴾ كلمة ذم وتقييح وإخبار عن سوء وقبح المهاد والفراش للذين كفروا في النار ، ليلحقهم الذم من الله والناس والملائكة حتى وهم في النار ، لتكون آيات ﴿بِسْرِ الْمَهَادُ﴾ إنذار ودعوة للناس لإجتنب الكفر والجحود والصدود عن دعوة الأنبياء ، ووعيد للذين كفروا مقرون بالخض على التوبة التي تبين آيات القرآن قربها من كل إنسان ، وعدم وجود حاجز بين الإنسان وبين التوبة النصوح .

الخامس : قوله تعالى ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ * جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾^(١) ، لقد ورد ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ مرتين في القرآن بصيغة الوعيد والإنذار ، ولم يرد فيه لفظ (الطاغوت) أو (الطاغين) إنما ذكروا بلحاظ سوء العاقبة وحده لبيان سخط الله عليهم ، والمراد من الطاغين جمع طاغ وهو الذي استكبر على ربه وطغى في سلطانه وحكمه .

أما قوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَأْبًا﴾^(٢) ، قيل أن جهنم مرصاد للناس جميعاً ، ولكنها مأوى للطاغين ، والمختار أن نار جهنم ليست مرصاداً للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

نعم المرصاد في الآية أعم من المأوى ، فجهنم مرصاد للذين كفروا ، ولكن الذين يتوبون منهم لا تبقى مرصاداً لهم .

ومن معاني آيات ﴿بِسْرِ الْمَهَادُ﴾ شمول الذين كفروا بالنار والطاغين والذي يصرون على الكفر والفجور ، ويمتنع عن قبول النصيحة والإنذار ،

(١) سورة ص ٥٥-٥٦ .

(٢) سورة النبأ ٢١-٢٢ .

وكثيري السفر برداء الكفر ، والضد من معالم الإيمان ، والذين امتنعوا عن الإستجابة لأمر الله عز وجل ورسوله .

الحوض

وهو حوض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من رحمة الله عز وجل بالمؤمنين في أحد مواطن يوم القيامة حيث تشتد الحرارة ويعطش الناس ، ويزداد عطشهم بسبب الخوف والفرع وطول القيام .

وجعل الله عز وجل لكل نبي حوضاً يشرب منه هو وأتباعه .

وعن عبد الله بن عباس (قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء قال : والذي نفسي بيده، إن فيه ماءً، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار، يذودون الكفار عن حياض الأنبياء)^(١).

وفي الترمذي (إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وأرجو أن أكون أكثرهم واردة)^(٢).

(عن أبي كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أول من يدعى يوم القيامة أنا فأقوم فألبي ، ثم يؤذن لي في السجود فأسجد له سجدة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي فأرفع رأسي فأدعو بدعاء يرضى به عني ، فقلنا يا رسول الله كيف تعرف أمتك يوم القيامة .

قال : يعرفون غراً محجلين من أثر الطهور فيردون علي الحوض ما بين عدن إلى عمان بصرى ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك ، فيه من الآنية عدد نجوم السماء .

من ورده فشرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، ومن صرف عنه لم يرو بعده أبداً .

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٣/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٤٣/٣ .

ثم يعرض الناس على الصراط ، فيمر أوائلهم كالبرق ، ثم يمرون كالريح ، ثم يمرون كالطرف ، ثم يمرون كأجاويد الخيل والركاب ، وعلى كل حال وهي الأعمال.

والملائكة جانبي الصراط يقولون رب سلم سلم ، فسالم ناج ، ومخدوش ناج ، ومرتبك في النار .

وجهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين ما شاء الله أن يضع فتقبض وتفرغر كما تفرغر المزايدة الجديدة إذا ملئت وتقول قط قط^(١).

قانون كراهة طول الأمل

يتغشى هذا القانون أجيال الناس المتعاقبة تمليه ماهية الحياة الدنيا ، وسرعة مغادرة الإنسان لها ، ومن أسباب كراهة طول الأمل ابتعاده عن حقيقة أيام الإنسان في الدنيا وحاجاته فيها مما يضيع على الإنسان التدبر في أموره والإستعداد لعالم القبر وأهوال الآخرة .

وعن الإمام علي عليه السلام قال (نفس المرء خطاه إلى أجله)^(٢). لبيان أن الله عز وجل يعد الشهيد والزفير للإنسان ، وأن كل واحد منهما يقرب الإنسان إلى أجله فاذا كان عدد الشهيد والزفير في الدقيقة الواحدة خمسة عشر فإن الله عز وجل يحتسبها من العمر ، وإذا استوفى الإنسان شهيقة وزفيره في الدنيا فانه لا يمهل بعدها مما يلزم تسخير النعم في طاعة الله ، والإكثار من ذكر الله.

فلا بد من دخول الإنسان القبر وحيداً لتلقاه ضغطة القبر إلا من استعد لها بالدعاء والعمل الصالح ، ثم يأتي رومان فتان القبور ثم منكر ونكير. وهذه التوابع من الشواهد على أن متاع الدنيا قليل ، يملئ على الإنسان الزهد فيه ، وعدم الإغترار بكثرة الأسفار .

(١) الدر المنثور ٩/ ٢٨٧ .

(٢) نهج البلاغة ٤/ ١٠ .

ومن خصائص آية البحث طردها طول الأمل من الوجود الذهني للإنسان ، مسلماً كان أو كاتياً أو كافراً ، وهو من إعجاز الآية القرآنية ومنه قانون انتفاع عامة الناس من فيوضاتها وأحكامها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقطع طول أمل الذين كفروا من الشواهد على قلة متاعهم في الدنيا .
(و) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَطَّ خُطُوطًا وَخَطَّ خُطًّا نَاحِيَةً ثُمَّ قَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا هَذَا مِثْلُ ابْنِ آدَمَ وَمِثْلُ الْمُتَمَنَّى وَذَلِكَ الْخُطُّ الْأَمَلُ بَيْنَمَا يَأْمَلُ إِذْ جَاءَهُ الْمَوْتُ^(٢).

قانون عاقبة المتاع

لقد أخبرت آية البحث عن قانون وهو تتمتع الذين كفروا بالنعم ، وهذه النعم هبة من عند الله ، وهي جزء من الاختبار والإمتحان والابتلاء في الدنيا ، ودعوة للتفكر في ماهيتها وكيف أنها من عند الله ، وتستلزم الشكر له سبحانه ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(٣).

ومن أبهى مصاديق الشكر الإيمان والصلاح ، وقد امتنع الذين كفروا عنهما وحرموا أنفسهم من الثواب الذي يترتب عليهما ، ومنه دوام النعم إذ أخبرت آية البحث عن سرعة زوالها فذكرت التقلب في البلاد وكثرة الأسفار لبيان الرفاهية التي هم عليها بفضل عام من الله عز وجل على الناس.

ولم تكتف آية البحث بالإخبار عن إنقطاع النعم التي رزقها الله سبحانه الذين كفروا بل أخبرت عن سوء عاقبتهم وأن النار في الآخرة مثوى لهم .
وتمر الأيام وتبديل الأحوال تبديلاً نوعياً ، ويكون المسلمون في أمن وسلامة ويؤدون الفرائض العبادية من غير خوف من مباغطة الذين كفروا

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سنن البيهقي ٨٨/٢ .

(٣) سورة لقمان ١٢.

لهم ، وتأتي الأموال وإلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يقوم بالغزو على المدن أو القرى .

فمثلاً وقعت معركة حنين التي جرت في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة بأيام بهجوم مباغت من هوازن وثقيف على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لإرادة قتله وجعل المهاجرين والأنصار بين قتيل وأسير.

ولكن الله أخزى هوازن وثقيف بهزيمتهم وتركهم الأموال والأنعام والنساء والصبيان خلفهم ، والذين أحضرهم مالك بن عوف رئيس هوازن إلى ميدان المعركة قادمين من مدينة الطائف على بعد نحو سبعين كيلو متر عن وادي حنين القريب من مكة ليقاتلوا دونهم.

فوقع في السبي ستة آلاف من النساء والصبيان وأعادهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم ، ولم يشترط عليهم أو على السبي دخول الإسلام ، وكانت الغنائم أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الغنم .

ليان النعم العظيمة على الذين كفروا ، وجحودهم وامتناعهم عن شكر الله عليها ، ومن أبهى مصاديق الشكر في المقام التصديق بالرسالة والتنزيل . وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١) ، نعم مع بيان فضل الله بأن هذا التداول لصالح المؤمنين ، ورجحان كفة الإيمان بكثرة عدد المسلمين والجهر بتعظيم شعائر الله .

لقد جعل الله عز وجل الموت استكمالاً وانتقالاً إلى عالم آخر يتصف بالخلود والدوام ، فالموت أمر وجودي وليس أمراً عديماً أو محوياً وزوالاً ، وتدل عليه آيات عديدة منها قوله تعالى ﴿وَكَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّ الْأَنْفِ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٤٠.

(٢) سورة النساء ١٨.

بحث بلاغي

من أسمى ضروب البلاغة الإيجاز والإطناب ، والنسبة بينهما هي العموم والخصوص من وجه ، فمادة الالتقاء بيان المعنى ، ومادة الإفتراق الاختصار في الإيجاز ، والتفصيل في الإطناب ، أما مادة الإفتراق فهي أداء المقصود في الإيجاز بأقل عبارة تفيد إيصال المعنى للمستمع ، أما الإطناب فهو بسط الكلام.

وكل فرد منهما حسن في مقامه .

وقد جمع بين الإطناب ثم الإيجاز في بيت شعر لأبي دؤاد ابن جرير الأيادي:

(يَرْمُونَ بِالْخُطْبِ الطُّوَالَ وَتَارَةً ... وَحَيِّ الْمَلَأَحْظَ خَيْفَةَ الرُّقْبَاءِ)^(١).

ومن إعجاز القرآن جمعه بين الإيجاز والإطناب في الآية القرآنية الواحدة ببلاغة تفوق كلام أساطين البلاغة والشعر العرب ، وهو من أسباب إنشغال الناس أيام التنزيل بآيات القرآن ودخولهم الإسلام. فلم يشهر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيفاً ولم يغز أحداً ، إنما أقام ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو إلى الله بآيات وسور القرآن ، وما فيها من الشواهد والدلائل على نزوله من عند الله وتعضده المعجزات الحسية لطفاً من عند الله عز وجل .

ومن أسرار الإيجاز حفظ السامع للكلام ، وبه جاءت السور المكية ليكون كل مستمع لآيات القرآن ناقلًا لها إلى أسرته وأصحابه وقومه ، فلم تمر سنوات قليلة على بعثة النبي حتى صارت آيات وسور القرآن حديث الركبان وأصبح الذي يأتي إلى مكة للعمرة أو الحج يعود لأهله بتحفة سماوية وهي آيات القرآن وإن كان باقياً على كفره ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

(١) الاندلسي / العقد الفريد ١/ ١٧٨ .

(٢) سورة المدثر ٣١.

فلا غرابة أن يسمع أبو ذر وغيره ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيأتون من أجل الإستماع له ، وينطقون بالشهادتين ويعودون إلى أهليهم رسلاً للنبوة والقرآن.

وعندما هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة استمر يدعو إلى الله بالقرآن وإقامة الصلاة على نحو علني وانشأ المسجد النبوي. وقد يكون الجواب أكثر من السؤال ، لأن الجواب إعلام وبيان ويستدل عليه بقوله تعالى ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾^(١) فاجاب ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾^(٢).

ولما رأى موسى عليه السلام أن منافع هذه العصا كثيرة ومتعددة ، ومنها ماهو طارئ اختصرها بقوله ﴿وَلِيَّ فِيهَا مَارَبٌ أُخْرَى﴾^(٣).

لقد أسس القرآن علوم البلاغة لتصبح مدارس لعامة المسلمين ، تساهم في تهذيب المنطق ، واكتساب المعارف .

(وتكلم ابن السَّمَاك يوماً وجارية له تَسْمَعُ كلامه ، فلما دخل إليها قال لها : كيف سمعت كلامي ، قالت : ما أحسنه لولا أنك تُكثِّرُ تردّاده ، قال : أردده حتى يفهمه ، مَنْ لم يفهمه ، قالت : إلى أن تفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه)^(٤).

ومن خصائص الآية القرآنية اجتماع البلاغة والموعظة وأسباب الصلاح فيها ومنه آية البحث التي جاءت بايجاز غير مخل ، فمع قلة كلماتها فانها تتضمن معاني النعيم في الدنيا وأهوال الحساب في الآخرة .



(١) سورة طه ١٧.

(٢) سورة طه ١٨.

(٣) سورة طه ١٨.

(٤) الأندلسي / العقد الفريد ١/ ١٧٨ .

موضوعية الآية القرآنية

لقد جعل الله عز وجل القرآن معجزة عقلية متجددة من جهات :

الأولى : المضامين القدسية للآية القرآنية .

الثانية : بلاغة الآية القرآنية بما يفوق مهارات الناس ، والذكاء الإصطناعي .

الثالثة : دلالات الآية القرآنية .

الرابعة : النفع الخاص والعام من الآية القرآنية في كل يوم من أيام الحياة الدنيا ، وهو من مصاديق وبركة تلاوة كل مسلم ومسلمة سور وآيات من القرآن خمس مرات في اليوم والليلة على نحو الوجوب العيني في الصلاة ، ما خلا قراءتهم القرآن خارج الصلاة والتدبر في معاني آياته وتفسيرها .

الخامسة : اقتباس المواعظ والدروس من آيات القرآن ، قال تعالى

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

السادسة : الأجر والثواب بقراءة كل كلمة من القرآن ، بل وفي كل حرف منه ، وعن (عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن هذا القرآن مآدبة الله تعالى فتعلموا من مآدبته ما استطعتم .

إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع وعصمة من تمسك به ونجاة من تبعه ، لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعجب ولا تقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاقراءوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة ، أما أني لا أقول ألم حرف ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة)^(٢).

وهو من خصائص القرآن ، فليس في تلاوة أي كتاب من الكتب السماوية السابقة مثل هذا الثواب ، ولا يحصي كثرة عدد الحسنات في تلاوة

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢١٥/٣.

القرآن من حين نزوله إلى يوم ينفخ في الصور إلا الله عز وجل ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾^(١).

السابعة : الفصل والتمييز بين الناس بلحاظ الإيمان أو الكفر ، ليكون إنذاراً ومقدمة للتضاد والتباين بين المؤمنين والذين كفروا في عالم الآخرة ، قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَأَرْبَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٢).

الآية من علم الغيب

لقد ابتدأت الآية السابقة بالخطاب والنهي الموجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا يَغْرِبُكَ﴾ وتلحق به أجيال المسلمين المتعاقبة والناس جميعاً ، ليتضمن قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ الإنذار والوعيد للذين كفروا ، وهل هو من علم الغيب ، الجواب نعم لبيان قانون نصر الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعلوم الغيب .
وتؤكد آية البحث مضامين الآية السابقة ، وزوال النعم التي عند الكفار.

إذ تتضمن آية البحث الإخبار عن سرعة زوال النعم التي عند الكفار ومنها كثرة الأسفار في البلاد ، وما فيها من التطاول على المؤمنين خاصة الفقراء منهم ، ولبيان الأمن والسلامة في المفاوز والفلوات والمدن التي يدخلونها أو يمرون عليها ، وفي التنزيل ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾^(٣) ليستمروا في ركوب الرواحل والسياحة في الأمصار ، والتتعم بالطيبات .

(١) سورة الجن ٢٨.

(٢) سورة الشورى ٧ .

(٣) سورة سبأ ١٩.

فمن فضل الله عز وجل على الناس أن كل بلد له خصوصية في الزراعات والمناخ والنعم ، لتكون السياحة في الأرض ذات بهجة وسعادة ، وأن الذين يتقلبون في البلاد يتنعمون بالخيرات .

ويدل هذا التقلب بالدلالة التضمنية على كثرة الأموال والجاه والسعة ، فجاءت آية البحث جامعة مانعة بالإخبار عن سرعة زوال النعم التي عند المشركين ، وهل تنقطع هذه النعم عن الناس ، الجواب لا ، فاذا أنعم الله عز وجل على الناس بنعمة فانه أكرم من أن يرفعها .

لتكون نعمة التقلب في البلاد للذين آمنوا مع عمارتهم الأرض بإقامة الصلاة في أوقاتها في الحل والترحال ، ومن خصائص الأرض أن كل بقعة منها تشهد للذي يصلي فيها .

تمتع الكفار قليل

ترى لماذا تمتع الذين كفروا قليل ، الجواب من وجوه :

الأول : سرعة أيام الحياة الدنيا .

الثاني : بشارة ظهور الإسلام .

الثالث : رمي الذين كفروا الذين يحاربون النبوة والتنزيل بالفقر والعوز.

الرابع : تعطل تجارة الذين كفروا ، فموضوع التجارة بين الأمصار من أهم أسباب التقلب والتنقل في البلاد .

الخامس : العقوبة الإلهية والإبتلاء والعقاب العاجل للذين يحاربون الله ورسوله في الحياة الدنيا ، ترى لماذا هذا الإبتلاء العاجل ، الجواب من وجوه:

الأول : الأرض كلها ملك طلق الله عز وجل ، وقد تقدم قبل ثماني آيات

قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^{(١)(٢)} ، فلا يرضى الله عز وجل بتقلب الذين كفروا في البلاد .

(١) سورة آل عمران ١٨٩.

(٢) لقد صدر الجزء السادس والعشرون بعد المائتين من هذا السفر خاص بتفسير هذه

الثاني : لقد خلق الله عز وجل الإنسان ليكون ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) وبعث الأنبياء وأنزل الكتب السماوية التي تتضمن وجوب عبادة الله عز وجل ، وقبح الكفر والضلالة وسوء عاقبتهم.

الثالث : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان واختبار ، وابتلاء ، وبشرى للمؤمنين بالثواب العظيم ، وتوعد الذين كفروا بالعذاب الأليم بالخلود في الجحيم ، وإن كانوا يسيحون في الأرض للتجارة والنزهة والجاه .

وتأتي بشرى المؤمنين بعد احتيازهم مواطن الإبتلاء والامتحان في الدنيا ، واتخاذهم الصلاة والفرائض العبادية واقية من الإفتتان ومن الإغترار بالذين كفروا لقانون الإيمان عصمة من الافتتان والغواية .

من مصاديق قلة المتاع

لا يختص وصف (متاع قليل) بتقلب الذين كفروا في البلاد ، ولا بأشخاصهم وحياتهم بل يشمل شأنهم والجاه الذي لهم بين قبائل العرب وأنه إلى زوال ، وهذا الزوال قريب وسريع ، وما أن اعتدت قريش في معركة بدر ولاقوا الهزيمة حتى قل تقلبهم وتجارتهم إلى الشام وإلى اليمن من جهات :

الأولى : انشغال الذين كفروا بالإعداد لمعركة أحد .

الثانية : طواف كفار قريش على القبائل لتحريضها وتذكير رجالاتها بالأحلاف التي تربطهم مع قريش ، مع اختلاف الموضوع ، فكان تعاون الحلفاء في خصومات قبلية .

الآية.

(١) سورة البقرة ٣٠.

وبعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم صار القتال على أسس عقائدية ، قال تعالى ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾^(١).

وبعد معركة بدر تحول ﴿ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾^(٢) لجمع الأموال واللهو ، والإفتراء على النبوة والتنزيل ، وصاروا يطوفون على القبائل طلباً للمعونة مع بذل الأموال لرؤساء ورجالات القبائل ، اي بدء العد التنازلي لخسارة الذين كفروا .

الثالثة : فقدان قريش إبل التجارة في مقدمات القتال ومسير ثلاثة آلاف مقاتل منهم لمعركة أحد ، ثم عشرة آلاف لمعركة الخندق .

الرابعة : انشغال الذين كفروا بالإعداد لمعركة بعد أخرى ، فبعد معركة بدر صاروا يتهيؤون إلى معركة أحد ، ثم معركة الخندق مع تعطيل التجارات وكان الثقل في البلاد فرع هذه التجارات ، وذهاب الرفاهية والترف الذي كانوا عليه ، وانتشار صناعة وإعداد السيوف والدروع في المدينة ، وابدال إبل التجارة بشراء الخيل .

لقد صار المشركون في حال حذر وخوف بعد معركة بدر وأحد ، والخائف لا يتقلب في البلاد ، وكانت كثرة أسفارهم عنوان قوتهم وكثرة أموالهم ، والجاء العريض فأنحسر باصرارهم على الإقامة على الكفر ، وسرعان ما زال وهم في الدنيا ، كما أنه يزول عن كل واحد منهم بمغادرته الدنيا إلى دار حساب وجزاء ليس فيها عمل ، وإن طالت أيامهم في الدنيا جاءهم فتح مكة سلماً بآية من عند الله عز وجل .

فهذا الفتح معجزة حسية ظاهرة بالذات وبلحاظ توالي الأحداث من هجوم متكرر من قبل كفار قريش وحلفائهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة الحج ١٩.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

وآله وسلم وأصحابه في المدينة الذين هم قلة بالنسبة لكثرة الجيوش الغازية من المشركين وخيلهم وإبلهم إلى عجزهم عن الدفاع عن مكة ، واضطرارهم لدخول بيوتهم أو اللجوء إلى المسجد الحرام والذي سبق وإن منعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من دخوله في صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ، ثم أذنوا لهم في العام التالي بالبقاء ثلاثة أيام في عمرة القضاء ليأتي فتح مكة بعده بعام أي في السنة الثامنة للهجرة وتزال الأصنام من البيت الحرام إزالة دائمة إلى يوم القيامة .

(قال ابن مسعود وابن عباس : لما إفتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، صنم كل قوم بحيالهم ومعه منحصرة فجعل يأتي الصنم فيطعن في عينه أو في بطنه ثم يقول ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١) يجعل الصنم ينكب لوجهه وجعل أهل مكة يتعجبون ، ويقولون فيما بينهم ما رأينا رجلاً أسحر من محمد)^(٢).

هل تختص آية البحث بأيام التنزيل

لقد أخبرت آية البحث عن قانون المتاع القليل ، وهل هو خاص بالذين كفروا وتقلبهم في البلاد ، أم أنه عام للناس جميعاً ، المختار هو الأول ، فإن قلت الدنيا كلها متاع قليل وإلى زوال بالنسبة للمؤمن والكافر ، الجواب من وجوه :

الأول : هناك اختلاف وهو أن المؤمن يتخذ النعم مناسبة ومقدمة للأجر والثواب .

الثاني : جاءت آية البحث متعقبة لبيان صيغة السعة وحال الغنى عند الذين كفروا ، وإنذارهم بأنه إلى زوال .

(١) سورة الإسراء ٨١.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٦٢/٨ .

الثالث : منع المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا ، والإنشغال بهم عن أداء الفرائض والعبادات .

الرابع : قد يتساءل بعض المسلمين لماذا هؤلاء الكفار أكثر مالأً وجاهاً منا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) فجاءت آية البحث إيناساً مواساة لهم ، ودعوة لهم للصبر ، وفي خطاب وأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَكَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

عصمة النبي محمد (ص) في حديث النفس

من فضل الله عز وجل إصلاح الأنبياء لوظائفهم العقائدية ، وللقيام بتبليغ أحكام الشريعة ، ودعوة الناس للإيمان ، ولقد قام الأنبياء السابقون بالبشارة برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

كما ورد في التوراة ، وبخصوص عيسى عليه السلام ورد حكاية عنه في التنزيل ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾^(٣).

لتدل الآية أعلاه بالدلالة الإلزامية على عصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلقيه آيات القرآن نازلة من عند الله ، وهو الذي تدل عليه كلمة (رسول) في الآية أعلاه فلم يقل عيسى عليه السلام (ومبشراً بنبي). ومن خصائص الرسول تلقي الوحي في اليقظة ورؤية الملك الذي يأتي بالتنزيل ، ونزلت الآية السابقة بالنهي الموجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الإغترار والإفتتان بتقلب الذين كفروا في البلاد وكثرة أسفارهم .

(١) سورة آل عمران ١٨٩.

(٢) سورة هود ٤٩.

(٣) سورة الصف ٦.

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عصمته من الخطأ والزلل قبل النبوة وبعدها ، ونزلت آية البحث لتحصين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في خلجات وحديث النفس ، وما يطرأ على القلب طوعاً وقهراً .

ليواظب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الدعوة إلى الله عز وجل ، وعنه أنه قال (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق ، وقال صلى الله عليه وآله : أدبني ربي فأحسن تأديبي)^(١).

ومن منافع آية البحث أنها تأديب وإصلاح للمسلمين وواقية من الأخلاق المذمومة ، فما كان متاعاً قليلاً لا يفتن به المسلم ، ولا يطمع به إنما هو يسعى لتعاهد نعمة الإيمان وللخلود في الجنة .

فقوله تعالى ﴿لَا يَغْرُبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) عصمة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فيما يفكرون به وما يدور في خلداهم ، وصيغ المقارنة في الوجود الذهني بين حال المسلمين وما هم عليه من العوز والفقر وبين كثرة أموال وإبل الذين كفروا .

بحث منطقي

المنطق هو التفكير السليم وآلة تعصم مراعاتها الذهن من الزلل في الفكر ، ومنه الحجة والبرهان المناسب كطريق للوصول إلى الحقائق والقوانين ، والمعتقدات الصحيحة .

ويدخل تفكير الإنسان اليومي في علم المنطق انطباقاً لما فيه من الإستنتاج لإيجاد أفكار وأقوال مناسبة ، وفيه الإستقراء والإستنباط طريق للإستنتاج . ومن خصائص القرآن مخاطبته للعقول ، وهو من معاني وصفه بالمعجزة العقلية ، ومن أسباب دخول الناس الإسلام ، وإستدامة بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

(١) البحار ٢١٠/١٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

الألْبَابُ ﴿١﴾ والنسبة بين الحكمة وعلم المنطق عموم وخصوص مطلق ،
فالحكمة أعم .

ليبان أن القرآن كتاب الحكمة ، وأن تلاوته فقاهاة في علم المنطق ،
ووسيلة مباركة للتفكير السليم ، وبالإستدلال الصحيح ، والتنزّه عن الزلل
والخطأ .

وآية البحث مدرسة في علم المنطق وإصلاح النوايا ، وتهذيب النفوس ،
لذا تضمنت آية الحكمة أعلاه مخاطبة أولي الألْبَاب والعقول .

ويتقوم علم المنطق بتسخير العقول للنفع والخير ، لذا جاءت آيات
عديدة تدعو لتوظيف العقل ، وإعتماد العقل والمنطق ، قال تعالى ﴿كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) .

العطف الموضوعي

لقد ابتدأت الآية السابقة بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم ﴿لَا يَغْرِبُكَ﴾ ويتضمن هذا الخطاب النهي والتأديب ، والمراد المسلمون
والمسلمات جميعاً ، للتأديب والإصلاح والهداية العامة ، ومنع الإفتتان
بالذين كفروا ، وتشمل الآية كل مظاهر الغنى والجاه والمال عند الذين
كفروا ، ومنها إدارتهم لشؤون المسجد الحرام ، لذا نزل قوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا
أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتُونُ﴾ (٣) .

وفي الآية أعلاه بشارة فتح المسجد الحرام ، وإزاحة سلطان الذين كفروا
، ومن الآيات توبة وإنابة أهل مكة ودخولهم الإسلام ، لذا لم يرد في الآية
السابقة ذكر أسماء اشخاص أو نسبهم إنما ذكرت الذين كفروا بصفة الكفر

(١) سورة البقرة ٢٦٩ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٢ .

(٣) سورة الأنفال ٣٤ .

والجحود بالربوبية المطلقة لله عز وجل وبالرسالة النبوية ، فاذا دخلوا الإسلام فان قوله تعالى في آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(١) لا يشملهم ولا يلاحقهم أو يطاردهم في الدنيا .

بل تصبح نعمة الأسفار مباركة باقامة الصلاة في أوقاتها ، وبالإمتناع في السفر عن المحرمات والمعاملات التجارية المخالفة لأحكام الشريعة ، ويكون السفر مناسبة للتدبر والإتعاظ من الأمم السابقة ، والشكر لله عز وجل على نعمة الإيمان ، قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢).

لماذا ﴿لَا يُغْنِيكُمْ﴾

لقد أخبرت آية البحث عن حقيقة وهي تقلب الذين كفروا في الأمصار ، والبلاد : جمع بلد ، وهذا الأمر لم يقع إلا بمشيئة من عند الله عز وجل ، وهو استدراج للذين كفروا ، فتفضل الله عز وجل بالآية السابقة وآية البحث لمنع إفتتان المسلمين والمسلمات بهذا التقلب .

ترى لماذا لم تقل آية السياق (لا يغرنكم) خاصة وأنه لم يرد قوله تعالى ﴿لَا يُغْنِيكُمْ﴾ ، في القرآن إلا في آية البحث بينما ورد ﴿لَا يُغْنِيكُمْ﴾ مرتين في القرآن هما :

الأولى : قوله تعالى ﴿وَلَا يُغْنِيكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٣) في خطاب إلى الناس جميعاً .

الثانية : قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٧ .

(٣) سورة لقمان ٣٣ .

(٤) سورة فاطر ٥ .

وهناك وسط بين الخطابين ، بين الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، وبين الخطاب إلى الناس جميعاً ، وهو النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وفي مجئ الخطاب في النهي ﴿لَا يَغْرَبْكَ﴾ للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مسائل :

الأول : إرادة المسلمين والناس جميعاً من الخطاب ، فهو خاص لفظاً ، عام حكماً .

ولا يمنع هذا المعنى من ترتب وظائف إضافية على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المقام بالإجتهد في هداية المسلمين للعصمة من الإفتتان بالذين كفروا .

ليبان قانون مستحدث وهو أن الخطاب الخاص إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا أريد منه عامة المسلمين فان فيه خصيصة وهي الوظائف الرسالية الخاصة بالعصمة الشخصية ، والأخذ بيد المسلمين والمسلمات للإمتثال لمضمون الخطاب الخاص الذي هو عام في حكمه .

وفي الخطاب القرآني الخاص للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعوته للجهاد في هداية الناس للإيمان ونجاتهم من براثن الكفر ومفاهيم الضلالة جهاد بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومن غير سيف ، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١) ، وقال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة التوبة ١٢٨-١٢٩.

الثاني : بيان رحمة الله عز وجل بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بسلامة الوجود الذهني من الهموم والشكوك .

الثالث : الإخبار بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم الأسوة والإمام في العصمة من الإغترار بالذين كفروا ، وكثرة أموالهم وأسفارهم .

الرابع : البشارة بأن الوحي من عند الله عز وجل واقية من الإفتتان بالذين كفروا .

الخامس : سطوة وسيادة الذين كفروا أيام البعثة النبوية ، وكثرة أموالهم وأسفارهم وضرب قریش في التجارة إلى الشام واليمن وغيرها .

السادس : لقد جعل الله عز وجل قلوب الناس جميعاً بيده تعالى يقبلها كيفما يشاء ، فجاءت آية البحث لبيان عصمة قلب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الإفتتان بالذين كفروا وكثرة أموالهم ، ولزوم عدم الضعف أو الوهن بسبب حال الفقر والعوز التي عليها المسلمون .

(عن أسماء بنت يزيد : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكثر في دعائه : اللهم (يا) مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .

قالت : فقلتُ : يا رسول الله وإن القلوب لتقلب .

قال : نعم ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أزاغه، وإن شاء أقامه على الحق، فنسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب .

قالت : قلت : يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي .

قال : بلى قلبي : اللهم رب محمد النبي، اغفر لي ذنبي، واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني^(١) .

وهل الإغترار بالذين كفروا وأموالهم وكثرة أسفارهم من مضلات الفتن التي وردت في خاتمة الدعاء أعلاه ، الجواب نعم .

المراد من القلب

المراد من القلب في الإصطلاح الشرعي ليس هو هذا العضو الصنوبري في الجهة اليسرى من صدر الإنسان وحده ، إنما هو الإدراك والشعور والإحساس وعالم النوايا والمقاصد ، لبيان أن عالمه أضعاف عالم القول والفعل ، ليشمل قوله تعالى ﴿لَا يَغْنَرُكَ﴾ الأحاسيس وعالم القول والفعل . وهل تؤثر وظائف القلب بمعناه الإصطلاحي في عالم القول والفعل ، الجواب نعم ، فيكون من معاني قوله تعالى ﴿لَا يَغْنَرُكَ﴾ وجوه :

الأول : لا يغرنك في قلبك وعالم الإدراك والإحساس والشعور .
الثاني : لا يغرنك في قولك ، فلا يصدر منك قول يدل على الإفتان بالذين كفروا .
الثالث : لا تفعل ما يدل على الإفتان بكثرة أسفار وأموال الذين كفروا .

الرابع : صيرورة السنة النبوية والقولية والفعلية وسيلة لنجاة المسلمين من الإغترار بأموال وجاه الذين كفروا ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١) .

علة عدم الإغترار

جاءت آية البحث لبيان علة عدم الإفتراء بالذين كفروا من جهات :
الأولى : صفة الكفر والجحود التي يتصف بها الكفار ، وتبعث هذه الصفة النفرة في النفوس منهم .
الثانية : إخبار آية البحث بأن كثرة أسفار وأموال الذين كفروا وما عندهم من السعة والجاه متاع قليل وسريع الزوال .

(١) سورة الأحزاب ٢١ .

الثالثة : إخبار آية البحث عن سوء عاقبة الذين كفروا بالخلود في النار ،
ليبين أن تقلبهم في البلاد وبال وحجة عليهم ، وسبب من أسباب عذابهم
وما كان متاعاً قليلاً وسبباً لسوء العاقبة لا يغتر به الناس .

لقد أمر الله عز وجل النبي محمداً بالجهاد بالقرآن والوحي الكفار
والمنافقين بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَئُسُ الْمَصِيرِ﴾^(١).

ومن مقدمات هذا الجهاد العصمة والسلامة من الإغترار بالذين كفروا ،
ويدل الجمع بين الكفار والمنافقين في الآية أعلاه على أن المراد من الجهاد
ليس بالسيف ، إنما يكون بالتنزيل والحجة والبرهان ، والإحتجاج والصبر ،
والدعوة إلى الله إلى جانب الإغلاظ عليهم في القول .

ويدل عليه ورود قوله تعالى ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الجهاد لإفادة الواو
الترتيب ، وأختتمت الآية أعلاه بذات سوء العاقبة للذين كفروا بأن عاقبتهم
ومأواهم هو الخلود في جهنم .

قافلة أمية بن خلف

لقد أخبرت الآية السابقة عن كثرة أسفار الذين كفروا في الأمصار مع
النهي عن الإفتتان بهم ، وموضوع الآية أعم إذ يشمل أموراً :
الأول : جاء وسلطان الذين كفروا ، ومنه إشرافهم على شؤون البيت
الحرام .

الثاني : إكرام القبائل للذين كفروا من قريش ، ويطرئ عن هذا
الإكرام التحالف معهم ، والإصغاء لزمهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم والتنزيل .

(١) سورة التحريم ٩.

الثالث : كثرة أموال الذين كفروا ، وذهاب وإياب إبلهم في طول الجزيرة العربية ، ففي قافلة أمية بن خلف في السنة الثانية ألفان وخمسمائة بعير محملة بالبضائع .

قال الواقدي (بواط - وبواط حيال ضبة من ناحية ذي خشب، بين بواط والمدينة ثلاثة برد - في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً، يعترض لعير قريش، فيها أمية بن خلف ومائة ردل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، ثم رجع ولم يلق كيداً)^(١).

والمختار ان النبي محمداً لم يغز بواط إنما كان في كتيبة استطلاع ، وعرض لقوة الإسلام ونشر عبادته ، فلا يبقى في المدينة وحدها ، ويغزوه المشركون ، ولا دليل على قصد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التعرض لقافلة أمية بن خلف ، وإن كانت كلمة التعرض أعم من قصد الإستيلاء .

ولا يريد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التعرض للقافلة إلا بالوحي لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) ويخرج إلى القافلة بالوقت المناسب ، وفي مكان معين مخصوص ، وكذا الأمر بالنسبة لقافلة أبي سفيان التي وقعت معركة بدر بسببها ، فلم يقصد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإستيلاء عليها ، ولم يخرج من أجلها ، والتي كانت تتألف من ألف (وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألف مثقال، وكان لأمية بن خلف ألفا مثقال)^(٣).

قانون الإستدراج

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان واختبار وابتلاء ، ومنه الصحة وسبل المعاش وبسط الرزق للناس وما يفعلون ، وهل يخرجون

(١) مغازي الواقدي ٦/١ .

(٢) سورة النجم ٣-٤ .

(٣) مغازي الواقدي ١١/١ .

الحقوق الشرعية من الأموال والأنعام والحبوب وغيرها ، ويشكرون الله أم يمحذون ، ليكون موضوعاً للحساب ، قال تعالى ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١).

والإستدراج استفعال من الدرجة ، درجة بعد درجة إرتقاء أو نزولاً والأرجح الأول ، يقال درج الصبي إذا قارب في خطاه ، ويقال درج القوم أي ماتوا وانقرضوا بعضهم بعد بعض ، وذهب دمه أدراج الرياح : ذهب هدرأً.

ومن إعجاز القرآن ورود كلمة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ مرتين في القرآن :
الأولى : قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

الثانية : قوله تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن الإعجاز في المقام ورود آيتي الإستدراج أعلاه بخصوص الذين كفروا لبعث الطمأنينة في نفوس المسلمين بأن الخير والنعم التي تأتيهم وتتوالى عليهم ليست من الإستدراج وعن (السدي) ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ يقول : سنأخذهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال : عذاب بدر^(٤).

وعنه ايضاً (سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون)^(٥).

(١) سورة الصافات ٢٤.

(٢) سورة الأعراف ١٨٢.

(٣) سورة القلم ٤٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٧٩.

(٥) النكت والعيون ٤ / ٣١٢.

ومضمون الآية أعم من واقعة بدر خاصة وأن الآية شاملة للذين كفروا كافة ، ويكون أخذ الذين كفروا متعدداً وغالباً ما يكون ظاهراً لما فيه من الموعظة والعبرة ، وهو مناسبة للتوبة والإنابة والإصلاح ، فمن لطف الله عز وجل بالناس ومصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ، جعل الدنيا دار إتعاض ، قال تعالى ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(٢) .

وهل تغلب الذين كفروا في البلاد من مصاديق الاستدراج في الآيتين أعلاه ، الجواب نعم .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (إذا رأيت الله يعطي عبده في دنياه ، إنما هو استدراج ، ثم تلا هذه الآية ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(٣) إلى قوله ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)^(٥) .

وتدل تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآية أعلاه في المقام على أن آيات الإستدراج أكثر من الآيتين أعلاه اللتين ورد فيهما لفظ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ .

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام (إذا أراد بعبد خيراً فأذنّب ذنباً تبعه بنعمة ويذكره الاستغفار ، وإذا أراد بعبد شراً فأذنّب ذنباً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها وهو قول الله تعالى سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ بالنعم عند المعاصي)^(٦) .

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة الحشر ٢.

(٣) سورة الأنعام ٤٤.

(٤) سورة الأنعام ٤٥.

(٥) تفسير الطبري ٣٦١/١١.

(٦) مجموعة ورام ١٧٣/٢.

ولا بد من إحصاء آيات الإستدراج لقانون الموضوع أعم من اللفظ
فموضوع استدراج الله عز وجل للذين كفروا أعم من أن ينحصر بكلمة
الإستدراج .

وهل يمكن القول أن الحياة الدنيا دار استدراج للذين كفروا ، الجواب
نعم ، وهو الذي تدل عليه صيغة المستقبل القريب بقوله تعالى
﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ فليس ثمة فترة بين توالي النعم وبين الإستدراج ويلزم
المسلمين الشكر لله عز وجل لإختصاص الإستدراج بالذين كفروا .

فان من معاني الآية السابقة ترقب المسلمين والناس جميعاً لسرعة زوال
النعم التي عند الذين كفروا ، وهل من الإستدراج حلول الأجل بغتة
وموت الفجأة ، الجواب نعم .

وهل يختص الإستدراج بما بعد نزول آيته أم أنه عام منذ أيام آدم ،
الجواب هو الثاني ، ومنه هلاك المكذبين وبقاء الأطلال شاهداً وحجة ،
وقال تعالى ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

وتبين الآية أن نزول العذاب ليس بسبب الإستدراج بل بسبب المعاصي
والذنوب ، قال تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(٢) أي أن الله أمرهم بالعدل وطاعة الله ، والإحسان
ولكنهم فسقوا وظلموا فاستحقوا العذاب العاجل .

ويأتي الإستدراج على نحو القضية الشخصية ، وإستدراج الجماعة
والطائفة والأمة ، ولا يحصي مصاديق الإستدراج للذين كفروا في الحياة
الدنيا إلا الله عز وجل .

(١) سورة آل عمران ١١.

(٢) سورة الإسراء ١٦.

إنقطاع أسفار الذين كفروا

لقد جعل الله عز وجل الناس ﴿خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(١) يتخذون فيها المساكن المتقاربة وينشئون القرى والمدن التي تأخذ بالإنساع أو تكون إلى زوال ويتقلون فيها ، ولا يختص هذا التنقل بطائفة من الناس دون أخرى ، ولكنه ييسر لذوي الأموال أكثر من غيرهم ، لتخبر آية السياق بالدلالة الإلزامية على حال الغنى والسعة التي عندهم ، وهو من الشواهد بأن الإسلام بدأ غريباً .

وكان المسلمون أيام التنزيل في شبه حصار من الذين كفروا ، قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

ولم يترك الله عز وجل المسلمين بحال الإستضعاف بل جاءهم المدد المتعدد ، ومنه آية السياق والبحث ، ومنه النصر في معركة بدر ، فلا غرابة أن يسمى يوم معركة بدر بيوم الفرقان ، قال تعالى ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

ليكون من معاني الفرقان في معركة بدر انتقال المسلمين من حال الإستضعاف إلى حال المنعة والقوة ، ومقدمات الضرب في الأرض ، قال تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(٤) ليدل

(١) سورة النمل ٦٢.

(٢) سورة الأنفال ٢٦.

(٣) سورة الأنفال ٤١.

(٤) سورة النساء ١٠١.

تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) على الأمن المتعدد والمركب للذين آمنوا من جهات :

الأولى : إقامة صلاة الجمعة في الحضر .

الثانية : الإنتشار في الأرض والسفر بعد الصلاة .

الثالثة : طلب الرزق والسعة بعد الصلاة ، ليكون من مصاديق قوله

تعالى في آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ بخصوص كثرة أسفار الذين كفروا إنقطاع سفرهم ، وصيرورة كثرة الأسفار من خصائص الذين آمنوا الذين يعمرن الأرض بالصلاة في أوقاتها ، وبالمواظبة على ذكر الله في الحل والترحال . وهل السفر مع ذكر الله وأداء الفرائض العبادية من المتاع القليل ، الجواب لا ، إنما هو تسخير للنعمة في طاعة الله ، وهذا التبدل النوعي في ماهية السفر من مصاديق قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُشِّرَ الْمَصِيرَ﴾^{(٢)(٣)} .

ومن إنقطاع سفر الذين كفروا في الأمصار عجز أهل الطائف من هوازن وثقيف عن الخروج من مدينتهم بعد معركة حنين التي هم الذين ابتدأوها وباغتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وهم في طريقهم من مكة بعد فتحها بالهجوم السريع .

وكان عدد هوازن وثقيف في الميدان أكثر من عشرين ألفاً أي نحو ضعف عدد صحابة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المعركة ، ولكنهم انهزموا بمدد من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسارعوا إلى الطائف وغلقوا أبواب السور عليهم .

(١) سورة الجمعة ١٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٢ .

(٣) انظر الجزء الثالث والسبعين بعد المائة من هذا السفر المبارك الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

فحاصرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم تركهم ، وصاروا يعجزون عن السفر والضرب في الأرض خشية من المسلمين .
 وكان في الطائف عدد من المسلمين ، فمن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية انتشار الإسلام في الأمصار ، ومجيئ رؤساء الطائف للقدوم إلى المدينة في السنة التاسعة للهجرة ليدخلوا الإسلام ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(١) ليكون حال قريش وأهل الطائف شواهد على تنجز مضامين آية البحث .

قانون الكفر قاطع لكثرة الأسفار

ابتدأت آية البحث بالمبتدأ والخبر (متاع قليل) وهو نوع تحذير وتنبيه وإنذار يتعلق بالآية التي قبلها التي ذكرت كثرة أسفار الذين كفروا ليخرج المسلمون بالتخصص من الإنذار الوارد في آية البحث وأن القدر المتيقن من الذم في آية البحث والآية السابقة هم الذين كفروا من جهات :
الأولى : التلبس بالشرك واختيار الكفر بالربوبية والنبوة .
الثانية : مقابلة النعم الإلهية بالجحود ، إذ ذكرت الآية السابقة كثرة أسفار الذين كفروا من باب المثال الظاهر ، والمقصود النعم التي تترشح كثرة الأسفار عنها ، والنعم التي تتفرع عن كثرة الأسفار .
الثالثة : اتخاذ الذين كفروا كثرة الأسفار للصدود عن التنزيل ، ومحاربة النبوة والإفتراء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .
 لقد كانت قريش تعمل في التجارة وتسير قوافلهم إلى الشام واليمن وبلاد فارس والحبشة أحياناً ، ونزل قوله تعالى ﴿لَا يَلْفَافُ قُرَيْشٌ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٢).

(١) سورة الأحزاب ٢٥.

(٢) سورة قريش ١-٤.

والنسبة بين كثرة أسفار قريش التي يشملها موضوع الآية السابقة وبين قوافل تجارتهم هو العموم والخصوص المطلق .
 لتبين الآية السابقة أن المشركين يسافرون لأمر :
الأول : التجارة والكسب .
الثاني : السياحة .
الثالث : الصيد واللهو .
الرابع : الضرب في الأرض للمعيشة .
الخامس : التنقل وراء الكلاً والماء .
السادس : صدّ الناس عن دخول الإسلام .
السابع : تحريض القبائل وتحشيد الجيوش لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قامر قريش ضد النبي (ص) وأصحابه

لقد وفد أبو سفيان على كسرى ملك فارس وفيه مصداق لكثرة أسفار رؤساء الكفر ، وأن ﴿رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١) لا تنحصر بمسير القوافل إلى الشام صيفاً ، وإلى اليمن شتاءً ، وعن (الأصمعي قال : حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المري قال : قال أبو سفيان : أهديت لكسرى خيلاً وأداماً فقبل الخيل ورد الأدم ، وأدخلت عليه ، فكان وجهه وجهين من عظمه ، فألقى إليّ مخدة كانت عنده .

فقلت : واجوعاه ! أهذه حظي من كسرى بن هرمز؟ قال : فخرجت من عنده ، فما أمر على أحد من حشمه إلا أعظمها ، حتى دفعت إلى خازن له ، فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب .

قال الأصمعي : فحدثت بهذا الحديث النوشجان الفارسي ، فقال : كانت وظيفة المخدة ألفاً أن الخازن اقتطع منها مائتين^(٢) .

(١) سورة قريش ١-٢ .

(٢) العقد الفريد ١/٩٩ .

نعم هذا الخبر عام ولا يدل على سعي أبي سفيان ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند كسرى وحاشيته ، ولكنه يدل على ذهاب رجالات قريش إلى كسرى وكان من عادتهم التقرب إلى الملوك وحاشيتهم ، ورجال البلاط بالهدايا ذات القيمة والمناسبة للحال مما يدل على معرفتهم بأحوال رجال البلاد .

كما كانت قوافل قريش إلى الشام متصلة ، وقد تقدم حديث أبي سفيان مع هرقل .

وعن عبد الله بن مسعود وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكران ما لاقوه من أذى قريش في الحبشة .

فبعد أن أمن النجاشي الصحابة المهاجرين إليه وأحسن جوارهم هذا قبل هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة تأمرت قريش ببعث عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي زودوهما بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته .

وأن يسألا النجاشي تسليم المهاجرين إليهما وأنهم (غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه)^(١).

فاستدعى النجاشي الصحابة الذين في جواره وتكلم جعفر بن أبي طالب ، وأعجب النجاشي بكلامه ، وعندما أراد عمرو بن العاص تحريض النجاشي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه واستمع النجاشي لآيات من القرآن فقال (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون)^(٢).

(١) الروض الأنف ١٠٧/٢ .

(٢) الروض الأنف ١١١/٢ .

وحتى بعد معركة الخندق هرب عمرو بن العاص إلى الحبشة وأقام فترة فيها ، وكان يحدث (لما انصرفنا يوم الاحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني .

فقلت لهم: تعلمون والله أنني أرى أمر محمد يعلو الامور علوا منكرا، وإنني لقد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا: وما رأيت .

قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإذا إن نكن تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا لرأي.

قلت: فاجمعوا لنا ما نهدي له ، فكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الآدم ، فجمعنا له أدما كثيرا.

ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه.

قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده.

قال : فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية ، لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت رأيت قريش أنني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصبغ^(١).

ولكن النجاشي غضب من قوله و(قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى فتقتله .

قلت : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال: ويحك يا عمرو أتعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى بن عمران على فرعون وجنوده)^(١).

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٣/ ٢٧٠ .

وهل قام رجالات قريش بالذهاب إلى هرقل ملك الروم ، وكسرى ملك فارس للتحريض على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، المختار نعم ، قال تعالى ﴿يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

قانون ترقب زوال النعمة عن الكافرين

لقد أخبرت آية البحث بأن كثرة أسفار الذين كفروا متاع قليل ، وهذا الإخبار من جوامع الكلم ، ومع أنه يتألف من كلمتين من مبتدأ وخبر ، فإن كل إنسان ذكراً أو أنثى يدرك معناه ودلالته بالإنداز بسرعة وقرب زوال النعم من الذين كفروا بأسباب متعددة ، ولا تستعصي على الله عز وجل مسألة .

وحينما قالت الآية السابقة ﴿لَا يَغْنَصُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) جاءت هذه الآية للعصمة من الإنذار بكثرة أسفار وأموال الذين كفروا ، فلا أحد يغتر بالمتاع القليل والذي قد يكون ليوم واحد أو أيام أو أشهر . وهل تدعو الآية إلى ترقب زوال النعمة عن الذين كفروا الذين يحاربون النبوة والتنزيل ، الجواب نعم ، فالآية إنذار متجدد ، ومن خصائص الإنذار القرآني تحقق مصداقه الواقعي .

وقد تفضل الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتلون آيات القرآن في الصلاة اليومية ، لتكون هذه التلاوة على وجوه :

الأول : قانون الحضور اليومي للقرآن بين الناس .

الثاني : قانون تجدد الإنذار القرآني كل يوم .

الثالث : قانون إستحضار الناس للإنذار القرآني في الوجود الذهني .

الرابع : قانون التدبر العام بالإنذار القرآني .

الخامس : تحقق مصاديق واقعية للإنذار القرآني .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٢٧١/٣ .

(٢) سورة الأنفال ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٦ .

وتبقى آية البحث تدعو المسلمين والناس جميعاً لترقب وانتظار تحقق
صيرورة الذين كفروا عاجزين عن كثرة الأسفار ، وإصابتهم بنقص الأموال
وقلة الجاه .

وهل كان المشركون يتعمدون إغراء الذين آمنوا وعامة الناس بما عندهم
من الأموال والجاه العريض ، وكثرة التنقل بأمان في الأمصار ، المختار نعم
، لذا ورد النهي في الآية السابقة ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ تحذيراً ووقاية من مكر الذين
كفروا الذين كانوا يجتهدون في إغراء الناس وقيامهم ببذل الأموال في
محاربة الرسالة السماوية من مصاديق المكر .

ولتكون آية السياق وآية البحث من مصاديق مكر الله في قوله تعالى
﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

لقد فوتت آية البحث على الذين كفروا إغراء الناس ، وجعلتهم في
كبت وحزن وخوف من زوال النعم .

قانون غرور وإغواء الذين كفروا

ذكرت آية السياق كثرة أسفار الذين كفروا بتقلبهم في البلاد وكأنهم لا
يستقرون في بلدهم حتى يعزموا ويبادروا للسفر إلى بلد آخر ، ويدل عليه
قوله تعالى ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ قَرْيَتَانِ * إِبِلَانِمْ رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢).

والمختار أن كلمة ﴿رَحَلَةَ﴾ في الآية أعلاه اسم جنس ، والمراد تعدد
رحلات الشتاء ، ورحلات الصيف خاصة في الأشهر الحرم عند أوان
وموسم الحج ، وقدوم وفود العرب لأداء مناسك الحج .

وتتباين أعداد الإبل في كل قافلة بين بضع مئات إلى ألفي بعير أو أكثر
ومحملة بالبضائع مما يفتتن معه الناس ، خاصة مع مرور هذه القوافل بالقرى
والمدن على امتداد الجادة والطرق بين مكة واليمن ، ومكة والشام إلى

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة قريش ١-٢.

جانب رحلات قريش إلى بلاد فارس ، والحبشة ، والمدينة (يثرب) وإلى فلسطين .

وبخصوص قافلة أبي سفيان التي كانت السبب في نشوب معركة بدر ، عن الواقدي (كان لبني عبد مناف فيها عشرة آلاف مئقال، وكان متجرهم إلى غزة من أرض الشام، وكانت عيرات بطون قريش فيها يعني العير)^(١).
(وَكَانَ مَتَجَرُهُمْ مِنَ الشَّامِ غَزَّةً، لَا يَعْدُونَهَا إِلَى غَيْرِهَا)^(٢).

(و)عن عبدالله بن عباس، حدثني أبو سفيان من فيه إلى في قال: كنا قوما تجارا، وكانت الحرب قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا، فلما كانت الهدنة - هدنة الحديبية - بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم نأمن إن وجدنا أمانا، فخرجت تاجرا إلى الشام مع رهط من قريش، فوالله ما علمت بمكة امرأة ولا رجلا إلا وقد حملني بضاعة، وكان وجه متجرنا من الشام غزة من أرض فلسطين.

فخرجنا حتى قدمناها وذلك حين ظهر قيصر صاحب الروم على من كان في بلاده من الفرس فأخرجهم منها، ورد عليه صليبه الاعظم وقد كان استلبوه إياه، فلما أن بلغه ذلك وقد كان منزله بمحصر من الشام فخرج منها يمشى متشكرا إلى بيت المقدس ليصلي فيه تبسط له البسط ويطرح عليها الرياحين، حتى انتهى إلى إيلياء فصلى بها.

فأصبح ذات غداة وهو مهموم يقلب طرفه إلى السماء، فقالت له بطارقه : أيها الملك لقد أصبحت مهموما ؟ فقال: أجل.

فقالوا: وما ذاك ؟ فقال: أريت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر، فقالوا: والله ما نعلم أمة من الأمم تحتن إلا اليهود وهم تحت يدك وفي سلطانتك فإن كان قد وقع ذلك في نفسك منهم فابعث في مملكتك كلها فلا يبقى يهودى إلا ضربت عنقه، فتستريح من هذا الهم.

(١) مغازي الواقدي ١/١٢.

(٢) مغازي الواقدي ١/٢٠٠.

فإنهم في ذلك من رأيهم يديرونه بينهم إذ أتاهم رسول صاحب بصرى
برجل من العرب قد وقع إليهم، فقال: أيها الملك إن هذا الرجل من العرب
من أهل الشاء والابل يحدثك عن حدث كان ببلاده فأسأله عنه.
فلما انتهى إليه قال لترجمانه: سله ما هذا الخبر الذى كان في بلاده ؟
فسأله فقال: هو رجل من العرب من قریش خرج يزعم أنه نبي وقد اتبعه
أقوام وخالفه آخرون، وقد كانت بينهم ملاحم في موطن، فخرجت من
بلادي وهم على ذلك. فلما أخبره الخبر قال: جردوه.
فإذا هو مختنن فقال: هذا والله الذى قد أريت لا ما تقولون، أعطه ثوبه،
انطلق لشأنك.

ثم إنه دعا صاحب شرطته فقال له: قلب لى الشام ظهرا لبطن حتى تأتى
برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه.
قال أبو سفيان: فوالله إني وأصحابي لبغزة إذ هجم علينا فسألنا: ممن
أنتم ؟ فأخبرناه، فساقنا إليه جميعا.
فلما انتهينا إليه قال أبو سفيان: فوالله ما رأيت من رجل قط أزعم أنه
كان أدهى من ذلك الاغلف - يريد هرقل - قال: فلما انتهينا إليه قال: أيكم
أمس به رحما ؟ فقلت: أنا.
قال: أدنوه منى.

قال: فأجلسني بين يديه ثم أمر أصحابي فأجلسهم خلفي وقال: إن
كذب فردوا عليه، قال أبو سفيان: فلقد عرفت أنى لو كذبت ما ردوا على،
ولكني كنت امرءا سيدا أتكرم وأستحي من الكذب، وعرفت أن أدنى ما
يكون في ذلك أن يرووه عنى ثم يتحدثوا به عنى بمكة، فلم أكذبه.
...الحديث^(١).

وكان عبد الله بن عبد المطلب والد النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم قد خرج إلى غزة في تجارة مع عير لقريش (ففرغوا من تجارتهم، ثم

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٩٤/٣.

انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله يومئذ مريض، فقال: أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار.

فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار مريضاً، فبعث عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع فأخبره فوجد عليه عبد المطلب وعماته.

وأخوته وأخواته وجداً شديداً^(١).

وكان جد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هاشم بن عبد مناف قد مات في غزة أيضاً إذ توفي فيها خلال رحلة تجارية في غير قريش وبني عنده مسجد يسمى مسجد هاشم لا يزال مناراً، وتسمى غزة أحياناً غزة هاشم لأنه دفن فيها.

وهل كانت كثرة أسفار الذين كفروا سبباً لصدودهم عن الإسلام، المختار نعم لأمر:

الأول: حال الزهو والاستكبار التي يتصف بها الذين كفروا.

الثاني: الإنشغال عن التدبر بالمعجزات النبوية، وعن التفكير في بدائع الخلق التي نزل بها القرآن.

وقد أثنى الله عز وجل على أرباب العقول الذين يسخرونها في العبادة والتدبر بالآيات الكونية كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).



(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٣٣١/١.

(٢) سورة آل عمران ١٩١.

قانون المتاع القليل

وصفت آية البحث تقلب الذين كفروا في البلاد وكثرة أسفارهم بأنه متاع قليل ، والنسبة بينه وبين كثرة الأسفار عموم وخصوص مطلق ، فالمراد من المتاع القليل أعم يشمل السعة وحال الغنى والسلطان والجاه الذي عند الذين كفروا .

وهل يختص موضوع الآية برؤساء الكفر من قريش وكثرة أموالهم وسلطانهم ، الجواب لا ، فمن إعجاز الآية القرآنية أنها غضة طرية ، يتصل حكمها في مختلف الأزمنة .

ترى لماذا ذكرت الآية السابقة خصوص كثرة أسفار الذين كفروا ، الجواب من جهات :

الأولى : إنها أمر ظاهر للعيان .

الثانية : رؤية القبائل وعامة الناس قوافل قريش تقطع البراري والفلوات بآلاف الإبل ومحملة بالبضائع ، وكان هذه القوافل عرضاً للقوة والجاه . إلى جانب اكرام القبائل التي تمر بها قوافل قريش لهم فلا يتعرضون لها بالنهب والسلب لحرمة البيت الحرام وجوارهم له .

و(عن قتادة، قوله ﴿إِلَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ تِجَارًا﴾ ^(١) قال : كان أهل مكة تجارا يتعاورون ذلك شتاء وصيفا، آمنين في العرب، وكانت العرب يغير بعضها على بعض، لا يقدرّون على ذلك، ولا يستطيعونه من الخوف، حتى إن كان الرجل منهم ليُصاب في حيٍّ من أحياء العرب، وإذا قيل حَرَمِيَّ خُلِيَّ عنه وعن ماله، تعظيماً لذلك فيما أعطاهم الله من الأمن) ^(٢).

الثالثة : استيلاء الذين كفروا على شؤون البيت الحرام ، ومجتمع مكة المكرمة ، حتى صاروا يتحكمون بهوية الذين يدخلون إليها ، بمنع من لا يرغبون بدخوله مكة ، ويدل عليه صلح الحديبية ، إذ أصرت قريش يومئذ

(١) سورة قريش ١-٢.

(٢) تفسير الطبري ٦٣٤/٢٤ .

على عودة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وألف وأربعمئة من أصحابه إلى المدينة ، وعدم دخولهم مكة لأداء العمرة مع أنهم كانوا في شهر ذي القعدة وهو شهر حرام .

الرابعة : اقتراض أهل الطائف ورجال القبائل الأموال الربوية من قريش ، وهذا الإقتراض نوع حاجة وإفتتان وسلطان لحجب الناس عن دخول الإسلام .

الخامسة : كثرة الأسفار موضوع للإفتتان .

للتضمن آية البحث البشارة بأن أموال الذين كفروا إلى زوال ، وما أن دخل الذين كفروا من قريش معركة بدر حتى بدأ العد التنازلي لثروتهم ، وضرب الشلل تجارتهم وأنفقوا وبذلوا وأهلكوا طائفة من إبلهم في معركة أحد ثم الخندق ومقدماتهما ، وهو من أظهر مصاديق المتاع القليل .

قانون كثرة الأسفار حجة

لقد تضمن قوله تعالى ﴿لَا يَغْنَصُكَ أَتْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١) ، بيان أن كثرة الأسفار والتنقل بين الأمصار نعمة عظيمة ، وهو الذي تجلّى في هذا الزمان بشيوع السياحة ، سواء السياحة الدينية أو الثقافية ، أو للتجارة والكسب ، أو السياحة الترفيهية ، والرسمية والإكتشافات أو السياحة العلاجية خاصة مع استحداث وسائل نقل سريعة بل وفي غاية السرعة سواء الوسائط الجوية أو البرية أو البحرية ، وكل فرد من أقسام السياحة نعمة عظيمة ، وفيه تمتع وانتقال بين البلدان ، والإطلاع على أحوال الشعوب والأمم .

ومن أسباب سلامة المسلم من الإنذار الواردة في آية البحث تعاھده للصلاة في أوقاتها مدة السياحة ، وإدراكه بأن ذات السياحة نعمة وفضل من عند الله ، كما أنه يتخذ من السياحة وكثرة الأسفار موعظة.

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

ويتساوى المؤمن والكافر في هذه السياحة بحسب الحال والشأن والمهنة ،
 فهل تشمل آية البحث كثرة أسفار الذين كفروا وركوبهم المراكب الفارهة ،
 الجواب نعم ، وهو من أسرار حقوق الأمة وأجيال المسلمين بالنهي من الله
 إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
 الْبِلَادِ﴾^(١) لتكون ذات آية السياق مدرسة وحصناً للمسلمين بالتسليم بأن كثرة
 الأسفار والتنقل بين البلدان نعمة عظيمة يلزم الشكر لله عز وجل عليها قبل
 وأثناء وبعد التنقل .

وحينما يشكر المؤمنون الله عز وجل على نعمة كثرة الأسفار ووسائل
 النقل السريعة هل تدوم هذه النعمة عليهم وحدهم أم على أهل الأرض ،
 الجواب هو الثاني حتى الذين كفروا وجحدوا وكذبوا بآيات الله ، ولكن
 تنفر هذه النعمة عنهم وتكون سريعة الزوال ، وهو من مصاديق قوله تعالى
 ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ، وتكون حجة عليهم وسبباً لنزول العذاب العاجل بهم في الدنيا
 التي هي ملك طلق لله عز وجل ، وهو سبحانه لا يرضى باتخاذ أعدائه
 والذين يكذبون بآياته الباهرات مادة للجحود ، وهذا الإتيان مخالف للغاية
 الحميدة التي خلق الله عز وجل لها الناس وهي عمارة الأرض بعبادته ،
 قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

فان قلت لقد صارت السياحة والإنتفاع المستمر من وسائل النقل السريع
 للناس عامة ، وفي متناول الجميع ، فهل يختص المتاع القليل بالذين كفروا ،
 الجواب نعم ، بنزول البلاء بهم ، أما المؤمنون الذين يقرون بالتوحيد ،
 ووجوب عبادة الله عز وجل فان الله عز وجل يثيبهم ويكتب لهم الحسنات
 في أسفارهم لأنهم سخروها في طاعة الله ، ولم يغفلوا عن ذكره تعالى .

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

عاقبة أسفار الكافرين

عاقبة الأمر هو ما يؤول إليه والخاتمة التي يصير إليها ، ومن خصائص الإنسان تدبره في عواقب القول والفعل ، ومن لا يتدبر في العاقبة يلقي الخسارة والندامة ، وقد أصابت الخيبة ثلاثة آلاف من مشركي قريش وحلفاءهم في إنقلابهم في معركة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة من غير أن يحققوا أي غاية من غاياتهم الخبيثة ، قال تعالى ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١) .

وهل هذا الإنقلاب من مصاديق تقلبهم في البلاد الذي ذكرته الآية السابقة ، المختار نعم ، فهو تقلب وسفر وبقصد التعدي والظلم ، فقد يغتر الناس بكثرة عددهم يومئذ وهم مدججون بالسلاح ومعهم مائتا فرس . وكان عدد الصحابة في الميدان سبعمائة ، وتعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لخسارة ، وسقط منهم سبعون شهيداً منهم حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومع إقتراب العدو من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووصول حجارتهم إليه فانه لم يغادر محله في الميدان ، وهو من خصائصه والشواهد على عدم الإغترار بالذين كفروا وأسلحتهم وخيلهم وإبلهم ، خاصة وأن آية البحث ذكرت تغلبهم من باب المثال الظاهر والجلي .

ولم تذكر آية البحث عاقبة تغلب الذين كفروا ، إنما ذكرت عاقبتهم بالذات مجتمعين ومتفرقين ، لبيان استحقاقهم العذاب على سوء أفعالهم وجحودهم ، وشدة ظلمهم لأنفسهم وللناس .

وهل يؤثمون إذا اغتر بهم وبكثرة أسفارهم وأموالهم بعض الناس ، الجواب نعم لبيان أن آية البحث رحمة بهم لما فيها من الدعوة العامة لعدم

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

الإغترار أو الإفتتان بالذين كفروا ، فكل من آية البحث والآية السابقة من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

بتقريب أن عامة الناس ينتفعون من الآية القرآنية ومن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على تخفيف الآثام ومنه الإنذار من اتباع الذين كفروا .

ومن خصائص يوم القيامة تبرأ المتبوعين والتابعين بعضهم من بعض ، ولم ينجهم هذا التبرأ من الإقامة في النار ، قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ * وقال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَسَبْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(٢).

ومن معاني ذكر آية البحث عاقبة الخزي التي تنتظر الذين كفروا ، أن هذه العاقبة من السالبة الكلية الشاملة للذين كفروا جميعاً لكفرهم وجحودهم بالله عز وجل ، وتدل عليه آيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣).

ولقد أخبرت آية البحث عن سوء عاقبة الذين كفروا لتأكيد لزوم عدم الإغترار بهم ، ولبعث النفرة في النفوس منهم وإن أكثروا من الأسفار ، وبانت عليهم مظاهر الغنى والسعة .

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين التمسك بمعالم الإيمان، والإحتراز من الفتنة والإفتتان بالذين كفروا ، لبيان اللطف الإلهي في كل من :

الأولى : الآية السابقة وما تتضمنه من نهي الله عز وجل عن الإغترار بالذين كفروا .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة البقرة ١٦٦-١٦٧.

(٣) سورة البقرة ٣٩.

الثانية : آية البحث وإخبارها عن سرعة زوال النعم التي عند الذين كفروا .

الثالثة : العطف الموضوعي بين والآية السابقة وآية البحث .

قانون التضاد بين الإستجابة والمتاع القليل

لقد نصب الله عز وجل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لتغبطه الخلائق كلها ، ورزقه الدعاء ، ووعد عليه بالإستجابة .

ومن الإعجاز في نظم القرآن أن الوعد من الله عز وجل باستجابة الدعاء جاء بصيغة العموم وليس حصراً على المسلمين ، نعم تضمنت ذات الآية خروج الذين كفروا من الوعد بالإستجابة بالمخصص المتصل بقوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

لتذكر آية البحث الناس بالضرر الذي يلحق الذين كفروا في الدارين لحرمانهم أنفسهم من الدعاء واستجابة الله عز وجل له ، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار .

ومن خصائص الدعاء إضفاء البركة على عمل الإنسان والإطالة في عمره ، وهدايته لسبل الصلاح .

ومن منافع الدعاء شمول السؤال لحاجات اليوم والغد ، والدنيا والآخرة ، وقد توجه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالدعاء كما ورد في التنزيل ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ

التَّوَابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾.

وهل ينفي الدعاء معاني المتاع القليل عن صاحبه ، الجواب نعم ، لبيان أن ذكر آية البحث المتاع القليل لخصوص الذين كفروا تبكيت وتوبيخ ووعيد لهم ، وهل فيه دعوة لهم للتوبة ، الجواب نعم ، ومن إعجاز القرآن قانون كل آية قرآنية دعوة للتوبة والإنابة .

وفي قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي وكيف أنه دعا قومه للإسلام ، فأسلم ووالداه وزوجته عندما عرض عليهم الإسلام ، وأبطأ عليه قومه مع دعوته لهم ، قال (ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسِ الرِّثَاءِ.

فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ .

قَالَ فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَمَضَى بَدْرَ وَاحِدٍ وَالْخَنْدَقِ ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ أَسْلَمَ مَعِيَ مِنْ قَوْمِي وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِخَيْرٍ .

حَتَّى نَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ ، ثُمَّ لَحَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِخَيْرٍ فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ (٢).

(١) سورة البقرة ١٢٧-١٢٩.

(٢) ابن هشام / السيرة النبوية ٣٨٤/١.

قانون الكفر ضلالة

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنَّا تُرْسَلُكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

يحتمل المراد من دعاء الكافرين في الآية أعلاه وجوهاً :

الأول : المعنى اللغوي وهو النداء والطلب خاصة وأنهم لم يتوجهوا إلى الله بالدعاء إنما سألوا الملائكة أن يدعوا الله لهم ، لأنهم يعلمون أن الآخرة دار حساب وليست دار عمل .

الثاني : إرادة المعنى الإصطلاحي وهو سؤال العبد الله عز وجل العون والمدد مع بيان الفاقة .

الثالث : إرادة المعنى الجامع اللغوي والإصطلاحي معاً .

و(عن الضحاك عن ابن عباس قال : ما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال لأن أصواتهم تحجب عن الله تعالى)^(١). ولا يحجب شئ عن الله عز وجل وهو السميع البصير إنما يردها الله ولا تقبل منهم.

والمختار هو الثالث أعلاه ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً وقد ورد ذات اللفظ ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في آية أخرى بخصوص دعاء وسؤال الكافرين لأصنامهم وتوسلهم إليها ، قال تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كُفَيْهِ إِلَىٰ أَلْمَاءٍ لِّيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٢).

(١) الثعلبي / الكشف والبيان ٢١٧/٧ .

(٢) سورة الرعد ١٤ .

لقد أجاب خزنة النار بقانون قرآني حاضر في الدنيا أيضا لتجديد الحجة على الذين كفروا ببعثة الأنبياء والرسل .

فمن المشركين من كان يتوسل بالأصنام لتقريبهم زلفى إلى الله ، فان هذا الدعاء مع الكفر والشرك لا يقبل لقانون الكفر برزخ دون الدعاء ، ولقانون حرمة جعل الأصنام واسطة وشفيعاً إلى الله .

وفي يوم معركة بدر توجه أبو جهل بالدعاء (قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ شَهَابِ الزَّهْرِيِّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرِ الْعَذْرِيِّ حَلِيفِ بَنِي زَهْرَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ لَمَّا التَقَى النَّاسُ وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ قَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا يُعْرَفُ فَأَحْنَهُ الْغَدَاةَ . فَكَانَ هُوَ الْمُسْتَفْتَحُ) (١).

واحنه الغداة : أي أهلكه واجعله ينهزم ويقتل هذا الصباح .
أي أنه دعا على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو الخصوص .

فسقط صريعاً أبو جهل في المعركة بعد أن أصر على القتال .
وتبين هذه الواقعة أن رد دعاء الكافرين وصيرورته في ضلال حاجة ورحمة للناس ، فهو سأل الله قتل النبي محمد مع بقائهم على الكفر والضلالة ، ولييان أن دعاء الكافرين ضرر محض ، فلذا يرد ويشئت ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُمِثَّ نُورُهُ وَكُورُهُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٦٢٨/١ .

(٢) سورة التوبة ٣٢ .

التضاد بين السنة النبوية والإرهاب

قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

لقد صدرت تسعة عشر جزء من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) بخصوص قانون (التضاد بين القرآن والإرهاب)^(٢) وآخرها الجزء السابع والستون بعد المائتين من تفسيري هذا والحمد لله .

وهذا العنوان (التضاد بين القرآن والإرهاب) مستحدث إذ أسسته كعنوان ومعنون في هذا التفسير لأول مرة في التاريخ ، واليوم أطرح علماً جديداً ، وهو التضاد بين السنة النبوية والإرهاب ، من جهات :

الأولى : التضاد بين السنة النبوية القولية والإرهاب .

الثانية : التضاد بين السنة النبوية الفعلية والإرهاب .

الثالثة : التضاد بين السنة التدوينية والإرهاب ، وبيان صبغة السلام والسلم في رسائل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى ملوك عصره إذ استحدثت أقساماً للسنة النبوية منها السنة التدوينية والدفاعية .

الرابعة : التضاد بين السنة الدفاعية والإرهاب بلحاظ أن الدفاع يشمل القول والفعل .

وهذا القسم المستحدث للسنة من أبهى مصاديق التضاد بين السنة النبوية والإرهاب.

فلم يرفع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيفاً أو سلاحاً مدة النبوة ثلاث عشرة سنة في مكة قبل الهجرة ، وبعد الهجرة ، لم يغز قرية أو بلدة وإذا التقى الجمعان نادى بين الصنفين (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا). ولم يبدأ قتالاً أبداً ، ويتولى الحوار مع أهل الكتاب ومع الكفار بنفسه ، وبصبر وبرهان .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٢) أنظر الأجزاء ١٨٤-١٨٨-١٩٥-١٩٨-١٩٩-٢٠٣-٢١٠-٢١١-٢١٩-٢٣٥-٢٣٦-

٢٣٨-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٦-٢٥٢-٢٦٣-٢٦٧ من هذا السفر المبارك .

لقد حارب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إرهاب كفار قريش ، ودافع عن النبوة والتنزيل وأسست آيات القرآن قواعد تنزه المسلمين من الإرهاب ، والغلو والتطرف والعنف .

ويمكن استحداث علم وقانون **(التضاد بين السنة النبوية والإرهاب)** وتأليف مجلدات خاصة به لكشف الحقائق في زمن العولمة ، وإثبات أن النبي محمداً هو رسول السلام ، وسادت برسالاته قواعد وقوانين السلم والأمن المجتمعي ، وينقسم هذا القانون إلى أقسام ، منها :

الأول : التضاد بين إعجاز السنة القولية الغيري والإرهاب .

الثاني : التضاد بين إعجاز السنة الفعلية الغيري والإرهاب ﴿إِذْ

تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(١).

لتنشأ قوانين :

الأول : قانون الإعجاز الذاتي للآية القرآنية .

الثاني : قانون الإعجاز الغيري للآية القرآنية .

الثالث : قانون الإعجاز الذاتي للسنة القولية .

الرابع : قانون الإعجاز الغيري للسنة القولية .

الخامس : قانون الإعجاز الذاتي للسنة الفعلية .

السادس : قانون الإعجاز الغيري للسنة الفعلية .

وهناك صفحات مشرقة من مصاديق ودلالة التضاد بين السنة النبوية

والإرهاب .

ولم يذكر لفظ (بدر) في القرآن إلا في آية واحدة بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢) ، مع موضوعية هذه المعركة في

(١) سورة الأنفال ٩.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

تأريخ الإسلام ، ولكن آيات متعددة تتعلق بذات المعركة ومقدماتها وأسبابها ونتائجها وأثرها إلى يوم القيامة .

قانون الإعجاز في السنة النبوية

السنة النبوية مرآة القرآن ، وهي فرع الوحي ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

ومن قانون إعجاز السنة الذاتي إجتهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء عشية وصباح يوم بدر ، ومنه :
الأول : خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى معركة بدر من غير سلاح .

الثاني : لم يبدأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القتال ، وأمر أصحابه أن لا يبدأوا القتال .

الثالث : تقديم أهل البيت للقتال عندما طلب المشركون المبارزة ، وأصرروا ببقاء أكفائهم من قريش .

وهل لهذا التقديم دلالات وإعجاز غيري ، الجواب نعم .
وكذا قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل البيت .
فمن الإعجاز الغيري حينما تقدم ثلاثة من المشركين في ميدان المعركة للقتال إذ (خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة كلهم من الأنصار فقالوا : من أنتم .

قالوا : من الأنصار . فقالوا : أكفاء كرام ، وما لنا بكم من حاجة ، ليخرج إلينا أكفأؤنا من قومنا . فقال النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم : قم يا حمزة ، قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا علي ، فقاموا ودنا بعضهم من بعض ، فبارز عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وكان أمير القوم ، عتبة ، وبارز حمزة شيبه ، وبارز علي الوليد .

فأما حمزة فلم يمهل شيعة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي (عليهما السلام) على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى أصحابه، وقد قطعت رجله .

فلما أتوا به النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: أأست شهيداً يا رسول الله، قال: بلى.

قال: لو رأي أبو طالب لعلم أننا أحق منه بقوله: ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل ثم مات، وتزاحف القوم ودنا بعضهم من بعض، وأبو جهل يقول: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لم نعرف فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه^(١).

لقد احتجت الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) وعلم الله سبحانه أعظم من أن يحيط به غيره، قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٣).

قال القرطبي (العلم هنا بمعنى المعلوم أي ولا يحيطون بشيء من معلوماته وهذا كقول الخضر لموسى عليه السلام حين نقر العصفور في البحر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر)^(٤).

ولكن علم الله لم ينقص بعلم الخضر وموسى والملائكة وهو الذي تؤكد الآية أعلاه .

ودعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم من السنة القولية والفعلية معاً .

(١) الكامل في التاريخ ٢٨٤/١.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٢٥٥.

(٤) تفسير القرطبي ٢٥٦/٣.

وتقسيم السنة إلى سنة قولية وفعلية تقسيماً استقرائياً للبيان والتوضيح فالدعاء قول وفعل ، فكان النبي يوم بدر متوجهاً إلى الله بكل جوارحه ، ومستقبلاً القبلة بمقادير بدنه مع أن السهام والرماح تترى وتتوالى كالطر من قبل المشركين إذ كان عددهم نحو ألف وعدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر ، ومن عادة المقاتلين التوجه بالسهام إلى الرئيس والقائد ، خاصة وأن قريشاً تريد قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان نزول الملائكة معجزة عقلية وفعلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بفضل من الله عز وجل ، فهو سبحانه الذي أمر الملائكة بالنزول لنصرة النبي .

الفرق بين السنة والعام والحول والحجة

وهو مما إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت ، ومع هذا فهناك فروق دقيقة بينها ، وقد تطلق السنة على أيام الشدة والأذى والجذب بخلاف العام الذي يدل على الخصب والرخاء ، وتدل عليه بآيات منها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١).

ووردت هذه الآية في سورة العنكبوت مع أن هناك سورة خاصة باسم سورة نوح والتي يقارب عدد حروفها عمر نوح المذكور في الآية أعلاه . فبتفريغ النص يتبين أن عدد حروف سورة نوح هو تسعمائة وتسعة وعشرون حرفاً ، كما عن أبي عمرو الداني ، ومنهم من أوصل عدد حروفها إلى (٩٤٧) حرفاً .

ويدل لفظ الحول على الدوران والإنقلاب والمراد السنة الهجرية . وقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (من استفاد مالا فلا زكاة عليه حتى يحول عليه الحول)^(٢).

(١) سورة العنكبوت ١٤.

(٢) تفسير القرطبي ٣/٣٠٤ .

والحجة : السنة ، وأصل الحج هو القصد والزيارة .

وقد ورد في القرآن ذكر السنوات بلفظ الحجج بقوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

في حديث موسى عليه السلام مع النبي شعيب عندما أراد موسى الزواج من ابنته ورد حكاية عن شعيب في التنزيل ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) ، وفي نعت السنة بالحجة تعظيم لشعائر الله ، وإخبار بأن حج البيت كان معلوماً عند الأنبياء السابقين وهو علامة بينهم على الإيمان ، وللإشارة بأن موسى عليه السلام زائر لدين ، وأنه يروم العودة لأهله في مصر .

قانون كثرة الأسفار وسيلة

نزلت آية البحث إنذاراً للذين كفروا ، ورحمة بهم بدعوتهم للتوبة والإنابة ، وعدم إتخاذ الأسفار الكثيرة وسيلة للطعن بالنبوة والتنزيل . وبعد صلح الحديبية قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بارسال كتب إلى ملوك عصره يدعوهم إلى الإسلام ، وتتضمن هذه الكتب إخبارهم بأنه رسول الله ، وبيان قانون الدخول في الإسلام نجاة في النشاطين ، ومنها كتابه إلى هرقل ملك الروم ارسله بيد الصحابي دحية الكلبي وفيه :

(١) سورة القصص ٢٧.

(٢) سورة القصص ٢٧.

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فأسلم تسلم يوثك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن إثم الأكارين عليك)^(١).

والأكارين أي الفلاحين الذين يحرثون الأرض ، وذكر هذا الكتاب في بعض المصادر بصيغة أخرى ، وفيها قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

ولم يهمل هرقل كتاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا بد أن أخبار نبوته قد وصلت إليه وإلى حاشيته خاصة مع تضاؤل قدوم قوافل التجارة من مكة والجزيرة مع حاجة الروم تجارياً لتسوقهم من الشام ، ولحملهم البضائع القادمة من الهند والصين بواسطة اليمن مع إنقطاع الطريق البري عبر العراق لنشوب الحرب بين الروم وفارس ، والتي وثقها القرآن وأخبر بإعجاز عن كون خاتمتها تعصيذاً للمسلمين بنصر أهل الكتاب وهم الروم .

فطلب هرقل من رجاله باحضار جماعة من قوم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ممن في الشام ، فاحضر أبو سفيان وجماعة كانوا تجاراً . وقد روى أبو سفيان على عبد الله بن عباس تفاصيل حضوره بين يدي هرقل ملك الروم ، وأمر ترجمانه بسؤالهم عدة أسئلة ،

وكانت فترة هدنة بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكفار قريش ، فكانت مضامين أسئلة هرقل لأبي سفيان يتضمن الجواب عليها الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٩٨/٣ .

(٢) سورة آل عمران ٦٤ .

وكان أبوسفیان يخشى الكذب وتكذيب قومه الذين حضروا معه ، ولكنه بادر إلى ذكر مسألة الإسراء للإنتقاص من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال (أيها الملك إلا أخبرك خبراً تعرف به أنه قد كذب قال وما هو .

قلت إنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجداً هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح قال وبطريق إيلياء عند رأس قيصر .

فقال قد علمت تلك الليلة قال فنظر إليه قيصر .

وقال وما علمك بهذا قال إني كنت لا أنام ليلة أبداً حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنني فاستعنت عليه عمالي ومن يحضرني فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاوّل جبلاً . فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا هذا باب سقط عليه النجاف والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركت البابين مفتوحين .

فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربوط الدابة فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا .

فقال قيصر لقومه يا معشر الروم أستم تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبي بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم قالوا بلى قال فإن الله جعله في غيركم في أقل منكم عدداً وأضيق منكم بلداً وهي رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء^(١) .

ليكون من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الذي يريد أن ينتقص منه ، ينقلب الأمر إلى عز وفخر وشهادة بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) الإكفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ٣٠٧/٢ .

لقد أراد أبو سفيان وأصحابه بكثرة أسفارهم تحريف الحقائق وطمس شواهد التنزيل ، فأبى الله إلا إظهارها ، قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

المراد من الكتاب الذي أنزل من قبل

ترى لماذا لم تقل الآية (والكتب التي أنزلت من قبل) الجواب من جهات :

الأولى : قانون وحدة تنزيل الكتب السماوية .

الثانية : قانون كل الكتب السماوية التي نزلت على الرسل هي من عند الله عز وجل .

الثالثة : معرفة كل رسول بما عند الرسل الآخرين لوحدة الموضوع في تنقيح المناط .

الرابعة : تصديق المسلمين بكل الكتب التي أنزلت قبل نزول القرآن ، وكأنها كتاب واحد .

الخامسة : منع الاختلاف والخصومة بين المسلمين وأهل الملل السماوية الأخرى كالنصارى واليهود .

السادسة : إيجاد وجوه الالتقاء بين القرآن والكتب السماوية السابقة ، ومنها لفظ (الكتاب) و(كلام الله) ومنها ما يتعلق بأحكام الشرائع والفرائض العبادية .

السابعة : تصديق القرآن لكل الكتب السماوية السابقة دفعة واحدة .

الثامنة : من خصائص القرآن قانون الآية القرآنية تأديب وتعليم للمسلمين ، ومنه ذكر الكتب السماوية السابقة بلفظ الكتاب لإرادة اتحادها في الموضوع والحكم .

التاسعة : لا يعلم الكتب السماوية السابقة التي نزلت من عند الله عز وجل إلا هو سبحانه ، ولم يذكر القرآن إلا عدداً قليلاً من الرسل والكتب

السماوية السابقة ، قال تعالى ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١).

فجاءت الآية بلغة المفرد وإرادة جمع الجنس الكتاب في قوله تعالى ﴿وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلُ﴾^(٢) لشمول جميع الكتب السماوية وإن لم تذكر في القرآن ولم يطلع المسلمون على مضامينها القدسية.

العاشرة : بيان الإعجاز والتحدي في تشابه الكتب السماوية مع التباين والتباعد الزماني في نزولها.

الحادية عشرة : كشف التحريف والتبديل في الكتب السماوية السابقة بعرضها على القرآن ، وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٣).

ووردت كلمة ﴿مُهَيْمِنٌ﴾ مرتين في القرآن أحدهما في الأسماء الحسنى لله عز وجل ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤).

فالقرآن شاهد على صدق نزول الكتب السماوية السابقة ، وحافظ لمضامينها وما فيها من الأحكام ، وكاشف إلى يوم القيامة عما طرأ عليها من التحريف والتبديل .

(١) سورة النساء ١٦٤ .

(٢) سورة النساء ١٣٦ .

(٣) سورة المائدة ٣٨ .

(٤) سورة الحشر ٢٣ .

المراد من كلام الله

وفيه وجوه :

الأول : كل كتاب سماوي هو من كلام الله بغض النظر عن مسألة هل كلام الله قديم أو حادث ، مخلوق أو ليس مخلوقاً.

الثاني : الكتب السماوية من الوحي ، والنسبة بينه وبين كلام الله عموم وخصوص مطلق فالوحي أعم .

الثالث : التفصيل والتبعض ، فبعض الكتب السماوية من كلام الله ، وبعضها من الوحي ، والكل من عند الله ، وتدل عليه كلمة التنزيل لقانون لا ينزل من السماء إلا كلام وأمر ومشیئة الله .

وقد تكرر لفظ (كلام الله) في التوراة خمس مرات ، وفي سفر صموئيل الأول .

(٩:٢٦) و بكروا و كان عند طلوع الفجر ان صموئيل دعا شاول عن السطح قائلاً قم فاصرفك فقام شاول و خرجا كلاهما هو و صموئيل الى خارج.

٩:٢٧ و فيما هما نازلان بطرف المدينة قال صموئيل لشاول قل للغلام ان يعبر قدامنا فعبر و اما انت فقف الان فاسمعك كلام الله^(١).

كما ورد بلفظ (كلامه) وفرائضه ووصاياه نحوها في (٢:٣) احفظ شعائر الرب الهك اذ تسير في طرقه و تحفظ فرائضه وصاياه و احكامه و شهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل و حيثما توجهت.

٢:٤ لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلاً اذا حفظ بنوك طريقهم و سلكوا امامي بالامانة من كل قلوبهم و كل انفسهم قال لا يعدم لك رجل عن كرسي اسرائيل^(٢).

(١) موسوعة الكتاب المقدس ٤٥٤/١.

(٢) موسوعة الكتاب المقدس ٤٠/٢.

كما ورد (كلام الله) خمس مرات في الإنجيل منها :
(١١:٢٨) اما هو فقال بل طوبى للذين يسمعون كلام الله و يحفظونه^(١).

الرابع : إرادة القرآن وحده بنعت كلام الله .
والمختار أن كل كتاب نازل من السماء هو كلام الله ، وامتاز القرآن بأنه الجامع للأحكام والسالم من التحريف والزيادة والنقيصة ، والمتعبد بتلاوته ، وفيه الأجر والثواب .

عجالة المشركين في معركة بدر

لم تحشر وتستنفر قريش القبائل في معركة بدر معهم لأنهم كانوا على عجل من أمرهم بذريعة إنقاذ قافلة أبي سفيان إذ بلغهم تعرض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لها ، ولم يتعرضوا لها إنما كانوا في كتيبة استطلاع ، وقد تقدم المختار المستحدث ، وهو أن إدعاء هذا التعرض مكر من رجال القافلة وعددهم ثلاثون ، وفيهم عمرو بن العاص ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

فان قلت لو كان إرسال أبي سفيان رئيس القافلة ضمضم بن عمرو حيلة ومكراً وفتنة لبان وظهر بعد دخول عدد من رجال القافلة الإسلام ، والجواب هذا المكر محصور بشخص أو شخصين وتفاهم إرتكازي وتم اللجوء إليه على عجلة ومنه سماع رجال القافلة بقرب النبي وأصحابه منهم ، ولا يعلم به رجال القافلة.

والمدار على دلالة الوقائع حينئذ من وجوه :

الأول : خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة في سرية استطلاع ، وليس معه سيف .

الثاني : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسعى في منع وقوع قتال بين الطرفين .

(١) موسوعة الكتاب المقدس ٢٩٤/٤.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

الثالث : لم يبدأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قتالاً .

الرابع : لم يثبت إرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قافلة أبي سفيان ، وقد سبقتها وجاءت بعدها قوافل متعددة فلم يتعرض لهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الخامس : قانون لم يغز النبي أحداً ، وقد صدرت بخصوص هذا القانون تسعة وعشرون جزءاً من هذا السفر ، وهي :

١٦٩-١٦٨-١٦٦-١٦٥-١٦٤)

١٧٦-١٧٤-١٧٢-١٧١-١٧٠

١٨٢-١٨١-١٨٠-١٧٨-١٧٧

١٩٦-١٩٤-١٩٣-١٨٧-١٨٣

٢٢٩-٢٢١-٢١٦-٢١٢-٢٠٤

(٢٦٦-٢٦١-٢٥٦-٢٣٩

أما مشركو قريش فقد أصابهم الزهو والغرور فحالما وصلتهم الإستغاثة من أبي سفيان نادوا بالنفير في مكة ، وخرجوا في ثلاث ليالي على عجلة لإنقاذ القافلة والقتال ، فلم يكن في مقدورهم دعوتهم رجال القبائل للقتال.

وهل من موضوعية لتقلبهم في البلاد بالعزم على القتال ، والإصرار عليه والإبتداء به يوم بدر ، الجواب نعم ، لبيان أن من إعجاز آية البحث ذم الذين كفروا والإخبار بتسخيرهم النعم التي في أيديهم في معصية الله ، وقتل النفس التي حرم الله ، إذ سقط أربعة عشر شهيداً يوم بدر ، وسبعون شهيداً يوم معركة أحد.

ليكون من مصاديق (متاع قليل) عقد صلح الحديبية بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومشركي قريش في شهر ذي القعدة من السنة

السادسة للهجرة ، وقد نعتته الله عز وجل بأنه فتح مبين بقوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

قانون نار الآخرة حتم

تتضمن آية السياق دعاء المؤمنين المتعدد للدنيا والآخرة بالأمن والأمان في الدنيا والآخرة ، ترى لماذا خصت الآية السلامة من الخزي بأنه في يوم القيامة ، الجواب من جهات :

الأولى : يكون الإنسان يوم القيامة أشد حاجة للأمن والسلامة من الأهوال .

الثانية : دلالة آية البحث على وجود فرقة يلحقها الخزي في الآخرة وهم الذين كفروا ، ولم تذكر الآية عدداً من أسماء الذين كفروا أو ان نزول الآية لفتح الله عز وجل باب التوبة والإنابة ، ولأن المدار على قانون التلبس بالكفر سبب الخزي في الآخرة سواء من الأولين أو الآخرين .

الثالثة : الدنيا دار امتحان واختبار ، ولا يعلم الإنسان بما يبتلى به ، فلا بد من سؤال حسن العاقبة ، والخروج من الدنيا بطاعة الله عز وجل والعصمة من المعاصي .

الرابعة : من خصائص المسلمين والمسلمات الدعاء بالأمن من الخزي يوم القيامة .

الخامسة : تبين آية البحث وجود النار في الآخرة ، وهي مأوى الذين كفروا الذين يتخذون كثرة الأسفار في ركوب المعاصي .

وابتات شئ لشيء لا يدل على نفيه عن غيره ، فلا تفيد الآية حصر أهل النار بأولئك الكفار ، لذا لجأ المسلمون في كل زمان من أيام أبينا آدم إلى سؤال النجاة من الخزي بدخول النار .

(عن أبي سعيد الخدري : عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل متعل بنعلين من نار يغلي منهما

دماغه ، ومنهم من في النار إلى ركبتيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من هو على أرديته مع أجزاء العذاب ، ومنهم من هو إلى ترقوته مع أجزاء العذاب ، ومنهم من قد اغتمر فيها^(١).

ليبان أن عذاب النار على مراتب ودرجات بلحاظ شدة الظلم والإصرار على الجحود ومحاربة النبوة والتنزيل .

خلق الجنة والنار بشارة وإنذار

مشهور علماء الإسلام أن الجنة والنار مخلوقتان وهو المختار ولا عبرة بخلاف بعض المعتزلة كأبي علي الجبائي ، والقاضي عبد الجبار .

والمدار في المقام على الكتاب والسنة ، ومن الكتاب :

الأول : إخبار القرآن بسكن آدم وحواء برهة من الزمن في الجنة مع الملائكة ، قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢).

الثاني : سجود الملائكة لآدم بأمر من الله لنفخه من روحه فيه ، واختلاط آدم وحواء مع الملائكة ، لقانون سكن الملائكة في السماء .

الثالث : الآيات التي ذكرت خلق واعداد الجنة بصيغة الماضي منها قوله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) ، وكذا إعداد النار قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(٤).

(١) المستدرك بتعليق الذهبي ٦٤٥/٤ .

(٢) سورة البقرة ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٣٣ .

(٤) سورة آل عمران ١٣١ .

الرابع : قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَأَوْهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْمُورِ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿أَعِدَّتْ﴾ أي هيئت.

ومن السنة النصوص المستفيضة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي تتضمن الإخبار والتسليم بأن الجنة والنار موجودتان .

(وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا وضع المؤمن في قبره ، أتاه ملكان فانتهراه ، فقام يهب كما يهب النائم ، فيقال له : من ربك؟ فيقول : الله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيي . فينادي مناد ، أن صدق عبدي . فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة فيقول : دعوني أخبر أهلي . فيقال له : اسكن)^(٢).

ويجتمع الإعجاز العقلي والحسي بآية الإسراء إذ نزل القرآن بخصوصه وهو معجزة عقلية ، ووردت أحاديث نبوية بخصوصه ، وتلقاه المسلمون بالقبول والتصديق .

(وعن أنس بن مالك قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فقال : إني إمامكم فلا تبادروني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف فإني أراكم من أمامي ومن خلفي . ثم قال : والذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، قلنا ما رأيتم يا رسول الله قال : رأيتم الجنة والنار)^(٣).

وهل المراد رؤية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للجنة والنار في حديث الإسراء كما وردت ذات العبارة (رأيت الجنة والنار) فيه ، أم المراد انكشاف الغطاء في تلك الساعة للنبي وهو بين أصحابه في المدينة فرأى الجنة والنار ، المختار هو العنوان الجامع لهما.

(١) سورة النجم ١٣-١٥.

(٢) الدر المنثور ٥٨/٦.

(٣) سنن النسائي ٢١٥/٥ .

تسمية حجة الوداع

من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسمية حجه للبيت الحرام في السنة العاشرة للهجرة بحجة الوداع لوجوه :

الأول : توديع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الناس بلحاظ أنها السنة الأخيرة من عمره .

الثاني : توديع المسجد الحرام ، في آخر زيارة نبوية له ، فلا يحج أو يعتمر بعدها .

الثالث : بيان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأحكام الشرعية في هذه الحجة ، ليكون من معانيه توديع توجيه الأوامر والنواهي في مناسبة عامة ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

الرابع : توديع المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في اجتماع عبادي عام .

الخامس : اختيار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مكة المكرمة للتوديع العام ، وفي موسم الحج .

السادس : تثبيت مناسك وأحكام الحج في أذهان المسلمين ، وكيفية أدائهم لها قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لتأخذوا عني مناسككم)^(٢).

وعن عبد الرحمن بن يعمر الديلي (قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : الحج عرفات -ثلاثا- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه)^(٣).

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) السورة النبوية لابن كثير ٥٥٣/١.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٥١/١.

وذكره السيوطي (عبد الله بن يعمر الديلمي)^(١) خطأ من النساخ باسم عبد الرحمن وباللقب بدل الديلمي كتب الديلمي.

السابع : زاد عدد الوفود التي دخلت المدينة في السنة التاسعة للهجرة لدخول الإسلام على ستين وفداً ، ومنها وفد بني تميم والذين كان لهم شأن بين قبائل العرب ، ولهم باع طويل في الخطابة والشعر.

ومنها وفد عبد قيس ، ووفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب .
وفد تجيف الذي يتألف من ثلاثة عشر رجلاً ، ووفد الأشعرين ، ووفد بني سعد بن بكر ، ووفد بني أسد ، ووفد فزارة .

وبخصوص وفد كنانة (روى الواقدي بأسانيده: أن وائلة بن الاسقع الليثي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك، فصلى معه الصبح ثم رجع إلى قومه، فدعاهم وأخبرهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال أبوه: والله لا أحملك أبداً.

وسمعت أخته كلامه فأسلمت، وجهزته حتى سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وهو راكب على بعير لكعب بن عجرة.
وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خالد إلى أكيدر دومة، فلما رجعوا عرض وائلة على كعب بن عجرة ما كان شارطه عليه من سهمه من الغنيمة، فقال له كعب: إنما حملتك لله عز وجل)^(٢).

وحج البيت الحرام وإقامة الشعائر العبادية شاهد على الإنتفاع الأمثل من أيام الحياة الدنيا لخير الدارين .

قدوم وفد بني تميم

من أسباب تعجيل بني تميم القدوم إلى المدينة سرية عينة بن حصن الفزاري التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني تميم في

(١) الدر المنثور ١/٤٧٢.

(٢) ابن كثير / السيرة النبوية ٤/١٧٦ .

شهر محرم من السنة التاسعة في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجر ولا أنصاري ، وفيه مسائل :

الأولى : بيان إتساع الإسلام .

الثانية : تعدد انتماء أنساب المسلمين .

الثالثة : التخفيف عن المهاجرين والأنصار شكراً لهم ، ولتفقهم في الدين ليكون رسل النبوة والمبلغين عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة والأمصار كما دلت عليه الأيام والوقائع ، قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾^(١).

الرابعة : الأجر والثواب للذين دخلوا الإسلام حديثاً بخروجهم في السرايا ، وتأديبهم بالسلم والرفق بالناس ، لذا فقد اكتفت هذه السرية بجلب الأسرى والسبايا ليطلق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سراحهم بسؤال رؤساء تميم له في ذات المجلس .

لقد كان رجال سرية عيينة بن حصن يسيرون الليل ويكتمون النهار حتى باغتوا أحد مياه بني تميم ، وأخذوا منهم (أحد عشر رجلاً ووجدوا في المحلة إحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً فجلبهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحبسوا في دار رملة بنت الحارث .

فقدم فيهم عدة من رؤسائهم منهم عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمر بن الاهتم ورباح بن الحارث بن مجاشع .

فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري فعجلوا وجاءوا إلى باب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنادوا يا محمد اخرج إلينا .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بلال الصلاة وتعلقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكلمونه فوقف معهم ثم مضى فصلى الظهر ثم جلس في صحن المسجد فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم ونزل فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١) فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأسرى والسبي^(٢).

والأصل أنهم يتوسلون ويرجون النبي صلى الله عليه وآله وسلم إطلاق السبايا ، ولكنهم تكلموا بغلظة ، ونادوا النبي محمداً باسمه ومن وراء الحجرات وحاولوا تأخيرهم عن الصلاة ، ولكنه توجه إلى المحراب في بيان عملي لقوله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٣).

ولم يغضب بل بادر إلى إطلاق النساء والذراري في الحال إكراماً لهم ، قال تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٤). وسيأتينا إن شاء الله في الأجزاء الخاصة بقانون (لم يغز النبي (ص) أحداً) كيفية دخول وفد بني تميم إلى المدينة وتفاخرهم ، فحينما دخلوا المسجد النبوي .

(نَادَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَرَاءِ حُجُرَاتِهِ أَنْ أَخْرِجْ إِلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ فَاذَى ذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ صِيَاحِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ).

(١) سورة الحجرات ٤.

(٢) عيون الأثر ٢/٢٣٤.

(٣) سورة العنكبوت ٤٥.

(٤) سورة آل عمران ١٥٩.

فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ جَنَّاكَ تُفَاخِرُكَ ، فَأَذَنَ لِشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَا ، قَالَ قَدْ أَذْنَتْ لَخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ فَقَامَ عَطَّارْدُ بْنُ حَاجِبٍ .
فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الْفَضْلُ وَالْمَنُّ ، وَهُوَ أَهْلُهُ الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكًا ، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالًا عَظِيمًا^(١) .

وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثابت بن قيس من الخزرج بالرد عليه ليرسل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على بلال ، وكان غائباً فأخذ يرتجز الشعر في الطريق)

مَنْعَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسَطْنَا ... عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمٍ
مَنْعَاهُ لَمَّا حَلَّ بَيْنَ بَيُوتِنَا ... بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
بَبَيْتِ حَرِيدٍ عَزَهُ وَثَرَاؤُهُ ... بِجَايِبَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطِ الْأَعَاجِمِ^(٢) .
حتى إذا التقى الزبرقان بن بدر الشعر بالفخر بقومه بني تميم والثناء عليهم بقصيدة مطلعها

(نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيَّ يُعَادِلُنَا ... مِنْ الْمُلُوكِ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ ... عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعَزِيزِ تَبِعُ
وَنَحْنُ يُطْعَمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمِنَا ... مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ الْقَرْعُ
بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سُرَاتُهُمْ ... مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوِيًّا ثُمَّ تَصْطَنَعُ
فَتَنْحَرُ الْكُومَ عُبْطًا فِي أُرُومَتِنَا ... لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أَنْزَلُوا شَبَعُوا
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيٍّ نَفَاخِرُهُمْ ... إِلَّا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يَقْتَطَعُ
فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِي ذَاكَ نَعْرِفُهُ ... فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ
إِنَّا أَيْنَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ ... إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نُرْتَفَعُ^(٣) .

لييان مكارم الأخلاق النبوية ، إذ يأتي المشرك فيطري ويمدح قومه باعلى مراتب المدح ، وفي المسجد النبوي بحضرة المهاجرين والأنصار ، ولم يقاطعه

(١) سيرة ابن هشام / السيرة النبوية ٥٦١/٢ .

(٢) سيرة ابن هشام / السيرة النبوية ٥٦٢/٢ .

(٣) سيرة ابن هشام / السيرة النبوية ٥٦٢/٢ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا فرغ (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلَهُ وَسَلَّمَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ قُمْ يَا حَسَّانَ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِيمَا قَالَ فَقَامَ حَسَّانُ فَقَالَ :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ ... قَدْ بَيْنُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعْ
يَرْضَى بِهِمْ كُلٌّ مِنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ ... تَقْوَى إِلَهِهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ يَصْطَنِعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَبُوا عَدُوَّهُمْ ... أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ تَفْعُوا
سَجِيَّةَ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ ... إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعِلِمُ شَرِّهَا الْبِدْعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ ... فَكُلُّ سَبَقٍ لَأَدْنَى سَبَقِهِمْ تَبِعْ
لَا يَرْقِعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفَهُمْ ... عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوْهُونَ مَا رَقَعُوا
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَبَقَهُمْ ... أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالْنَدَى مَتَعُوا
أَعْفَى ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عَفْتُهُمْ ... لَا يَنْطَبِعُونَ وَلَا يُرْدِيهِمْ طَمَعُ
لَا يَخْلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ ... وَلَا يَمْسَهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبْعُ
إِذَا نَصَبْنَا لِحْيَ لَمْ نَدْبَ لَهُمْ ... كَمَا يَدْبُ إِلَى الْوَحْشِيَةِ الذَّرْعُ
نَسْمُو إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْنا مَخَالِبَهَا ... إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا
لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ ... وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خُورٌ وَلَا هُلَعُ
كَانَهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتِ مَكْتَنِعٌ ... أَسَدٌ بِحَلْيَةٍ فِي أَرْسَاعِهَا فَدَعُ
خُذْ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا ... وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرُ الَّذِي مَنَعُوا
فَإِنْ فِي حَرْبِهِمْ فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ ... شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ السَّمُّ وَالسَّلْعُ
أَكْرَمَ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شِيَعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
أَهْدِي لَهُمْ مَدْحَتِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فِيمَا أَحَبَّ لِسَانَ حَائِكٍ صَنَعَ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ ... إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدَّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا^(١).

ليدخل بنو تميم الإسلام ، وليبان أن من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هداية الذين يدخلون المدينة ويرون معجزاته العقلية والحسية ، وإقامة صلاة الجماعة بإمامته في المسجد النبوي خمس مرات في

اليوم ، والنظم الأمنية ، وقانون السلم المجتمعي التلقائي في المدينة بتهذيب القرآن والسنة النبوية للنفوس ، وإصلاحها للمجتمعات ، ونبذها للعنف والغزو والثأر والنهب والسلب ، وأسباب الإقتتال الشخصي والعام .

الدعوة في الأسواق

لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحضر أسواق مكة الدائمة ، وتلك التي تقام في موسم الحج مثل سوق عكاظ ، فما أن يطل هلال شهر ذي القعدة حتى تتوجه القبائل نحو سوق عكاظ بين مكة والطائف ، وهو أكبر أسواق الموسم ، وكل قبيلة لها موضع مخصوص وراية منصوبة فيه يقضون فيه عشرين يوماً .

ثم يتوجهون إلى سوق مجنة ، فيقيمون فيه عشرة أيام ، وإذا رأوا هلال ذي الحجة مضوا إلى سوق ذي المجاز القريب من عرفة ليقيموا فيه ثمانية أيام للبيع والشراء والمقايضة في الحبوب ، والتمور ، والثياب ، والسيوف ، والرماح ، والدروع ، والأنعام كالخيل ، والطيب والمسك ، والبخور ، والاصباغ كالحناء وشراء الدقيق والقاء الشعر والنثر .

فلا يختصر الحضور على التجار بل يحضر رؤساء القبائل والشعراء والوجهاء والأدب والتفاخر بالآباء والأجداد والبطولات والمغازي وتعتقد في تلك الأسواق العهود .

فجاءهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، إذ كان يخرج لعدد من هذه الأسواق خاصة وأنها تقام في أيام وأشهر حرم ، مما يأمن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم معه أذى كفار قريش .

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم اصطباغ أسواق مكة بصبغة التنزيل والدعوة إلى الله ، وصار الناس يتناقلون آيات القرآن بدل ما كان يلقي في الأسواق من الشعر .

لقد أدركوا أن بلاغة القرآن فوق كلام البشر ، وأنهم يعجزون عن الإحاطة بعلومه وذخائره .

ولقد أفاض ذهب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أسواق مكة وعرضه الإسلام على روادها المشركين ، كما ورد في التنزيل ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(١). وقولهم هذا شاهد على أقرارهم بأن النبي محمداً رسول الله من عند الله أنهم يسألون حضور ملك من السماء معه فنزل قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ...﴾^(٢)، لبيان قانون من خصائص الأنبياء وهو الدعوة إلى الله في الأماكن العامة ، كما في موسى عليه السلام بقوله تعالى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضَحًى﴾^(٣).

وسأل عمر بن الخطاب (سأل أبا مالك عن صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة وكان من علماء اليهود. فقال : صفته في كتاب بني هرون الذي لم يغير ولم يبدل أحد من ولد إسماعيل بن إبراهيم ومن آخر الأنبياء وهو النبي العربي الذي يأتي بدین إبراهيم الحنيف . يأتزر على وسطه ويغسل أطرافه في (عينيه) حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة مثل زر الحجلة، ليس بالقصير ولا بالطويل . يلبس الشملة ويجري بالبلغة ويركب الحمار ، ويمشي في الأسواق . معه حرب وقتل وسبي سيفه على عاتقه لا يبالى من لقي من الناس . معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ولو كانت في عاد ما أهلكوا بالريح ولو كانت في ثمود ما أهلكوا بالصيحة.

(١) سورة الفرقان ٧.

(٢) سورة الفرقان ٢٠.

(٣) سورة طه ٥٩.

مولده بمكة ومنشأه بها وبدء نبوته بها ودار هجرته يثرب بين جرة ونخل (وسبخة) وهو أمي لا يكتب بيده، هو بجهاد، يحمد الله على كل شدة ورخاء، سلطانه الشام .

صاحبه من الملائكة جبرئيل يلقي من قومه أذى شديداً. ويحبونه حباً شديداً ثم يدال على قومه يحصرهم حصر (الجرين)، يكون له وقعات في يثرب، منها له ومنها عليه .

ثم يكون له العاقبة يعدّ معه أقوام هم إلى الموت أسرع من الماء من رأس الجبل إلى أسفله، صدورهم أناجيلهم قربانهم دماؤهم ليوث النهار ورهبان بالليل يرعب منه عدوه بمسيرة شهر، يياشر القتال بنفسه حتى يخرج ويكلم لا شرطة معه ولا حرس يحرسه^(١).

و(عن ابن عباس قال : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، ثم قرأ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ * فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ^(٢) يعني (ليلة القدر) قال : ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها من قابل)^(٣).

ليكون ذهاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأسواق مكة من مصاديق قانون نداء الرسالة العام للإسلام ، وهو من أسرار بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة ومن أوسط أهلها ، فلم تحضر هذه الجموع في أي بقعة من الجزيرة مثلما تحضر في موسم الحج في مكة .

ليكون بناء آدم عليه السلام البيت الحرام ، ثم رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت الحرام وتجده ثم نداء إبراهيم الناس للحج بقوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٤٥٧/٥.

(٢) سورة الدخان ٣-٤.

(٣) الدر المنثور ١٣/٩.

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»^(١) مقدمة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وطوافه على وفد الحاج ومفاتيحه المعتمرين برسالاته والدعوة إلى الإسلام. لتمر الأيام سريعاً فيضطر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للهجرة ليعود بعد ثمانين سنوات فاتحاً لمكة مسلماً ومن غير قتال يعتد به .

لتكون ﴿كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾^(٢) وتعمر الأرض بعبادة الله عز وجل إلى يوم القيامة من غير أن تنصب الأوثان في البيت الحرام مرة أخرى . ومن الإعجاز في توثيق القرآن لمشي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأسواق ثم قيامه في المدينة المنورة بإنشاء سوق خاص للمسلمين واصلاحه لمعاملات البيع والشراء ، والتزهد عن الربا والمعاملات الفاسدة ، قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٣).

و(قال الكلبي : وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذئ المجاز قائمة في الإسلام حتى كان حديثاً من الدهر ، فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الإباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا وخافوا الفتنة ، فتركت حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذئ المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة)^(٤).

وانشئت الحسبة في الرقابة على الأسواق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانتهاج حكام وأمراء المسلمين تفقد الأسواق وصحة المعاملات فيها.

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو وال ، يرشد الضال ، ويعين

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة التوبة ٤٠.

(٣) سورة البقرة ٢٧٥ .

(٤) اخبار مكة للأزرقي ١/٢٢٢.

الضعيف ، ويمر بالبقال والبيع فيفتح عليه القرآن ، ويقرأ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾^(١) ويقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع ، في الولاة وأهل القدرة من سائر الناس^(٢) .
ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الغيرية إزدهار أسواق مكة بعد الفتح لأسباب متعددة منها :

الأول : الأمن في مكة والجادة العامة .

الثاني : قانون صيرورة أسواق مكة مرآة للتقوى بصلاح النفوس وصحة المعاملات والإبتعاد عن الغش والخداع .

الثالث : مضاعفة أعداد حجاج بيت الله الحرام أضعافاً كثيرة وازياد البيع والشراء .

الرابع : كثرة الغنائم التي ترد المسلمين .

الخامس : استيطان كثير من أهل القرى والبلاد المفتوحة مكة عشقاً للبيت الحرام .

السادس : وفود أفواج من الموالي ومن غير العرب إلى مكة .

السابع : جلب الصحابة والتابعين الرقيق إلى مكة من بلاد شتى ، ومنهم أصحاب حرف مختلفة .

فصار بعض الصحابة يضاربون في التجارة ويديرون الحرف والصناعات بواسطة مواليتهم .

الثامن : الأخوة الإيمانية التي تتغشى الأسواق ، مع خلو الجادة العامة من السلب والنهب .

التاسع : إنقطاع أو ندرة السرقة في الأسواق لشدة حكم الذي يسرق ربع دينار أو أكثر .

(١) سورة القصص ٨٣ .

(٢) الدر المنثور ١٩/٨ .

قانون الملازمة بين الإيمان والمسألة

لقد تضمنت آية البحث ذم الذين كفروا ، وكيف أن كثرة أسفارهم وبال عليهم ، وفيها ظلم لأنفسهم لما يصاحبها من المعاصي ، وذات الإقامة على الكفر أكبر الكبائر ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(١).

أما آية السياق فتضمنت السؤال والدعاء المتعدد الصادر من المؤمنين والمؤمنات مجتمعين ومتفرقين من جهات :

الأولى : نداء الإستجابة والإستغاثة والتوسل (ربنا) .

الثانية : التسليم بصدق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته إلى الله عز وجل.

الثالثة : الشهادة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قام بتبليغ الرسالة وأدائها على أحسن وجه .

الرابعة : تفقه المسلمين في الدين ، والتمييز بين الإيمان والكفر ، والتضاد بينهما .

الخامسة : ترى لماذا لم تقل آية السياق (ينادي للإسلام) الجواب : النسبة بين الإسلام والإيمان عموم وخصوص مطلق ، فالإيمان أخص وهو أعلى مرتبة من الإسلام ، والنداء للإيمان من مصاديق قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

السادسة : سؤال المسلمين الله عز وجل مغفرة الذنوب ، وفيه أمور :

الأول : إقرار المسلم بالذنب .

الثاني : الإيمان بقانون لا يغفر الذنوب إلا الله عز وجل .

(١) سورة النساء ٢٨.

(٢) سورة المائدة ٣.

الثالث : التسليم بأن الله عز وجل هو الغفور الرحيم .
الرابع : رجاء الملازمة بين الإيمان والمغفرة (وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : الإسلام يجب ما قبله)^(١) .

النسبة بين النداء للإيمان و﴿أَنْ آمَنُوا﴾

تحتل النسبة بين النداء للإيمان ، والنداء ﴿أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ وجوهاً :
الأول : نسبة التساوي وأن نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإيمان هو ذات النداء أن آمنوا بربكم .

الثاني : إرادة عطف البيان ، خاصة وأن من خصائص عطف البيان عدم وجود حرف عطف بين التابع والمتبوع عليه ، بخلاف عطف النسق الذي يتوسط بين التابع والمتبوع .

ومن الشواهد على عطف البيان ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ...﴾^(٢) وأن كانت النسبة ظاهراً بين الكعبة والمسجد الحرام عموم وخصوص مطلق ، فالييت الحرام أعم وأكبر .

الثالث : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : الإيمان أعم من ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ .

الثانية : ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ أعم من الإيمان .

والمختار هو الشعبة الثانية من الوجه الثالث أعلاه وإن المراد من ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ النطق بالشهادتين وإداء الفرائض العبادية ، وقد ذكرت في الجزء التاسع والخمسين بعد المائتين من هذا السفر (وموضوع النداء في الآية على شعبتين :

الأولى : الإيمان لقوله تعالى ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾^(١) .

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ .

(٢) سورة المائدة ٩٧ .

الثانية : الإيمان بالله عز وجل ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾^(١).

والنسبة بينهما عموم وخصوص مطلق ، فالإيمان بالله أخص ، ومنه يتفرع الإيمان بالملائكة والنبين والكتب السماوية المنزلة والعالم الآخر ، وفي التنزيل ﴿وَلَكِنْ الْبَرِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢).
ومن الإعجاز أن المسلمين ينادون الله عز وجل بأنهم آمنوا به سبحانه لرجاء رحمته^(٤).

وقول المسلمين ﴿فَأَمَّا﴾ سور جامع للإيمان و﴿أَنْ آمِنُوا﴾ بإعلان التصديق بكل ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من التوحيد بالإيمان بالله والإقرار بالملائكة والنبين واليوم الآخر ، وأداء الفرائض العبادية ، قال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٥).

ليكون من معاني نداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنْ

آمِنُوا﴾ وجوه :

(١) سورة آل عمران ١٩٣.

(٢) سورة آل عمران ١٩٣.

(٣) سورة البقرة ١٧٧.

(٤) كتابنا الموسوم (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء ٢٥٩ ص ١١١.

(٥) سورة البقرة ١٧٧.

الأول : أن آمنوا بالله عز وجل إلهاً ورباً وخالقاً إليه المعاد .
الثاني : أن آمنوا برسالتي والأحكام الشرعية التي جئت بها من عند الله .

الثالث : أن آمنوا بالقرآن كتاباً نازلاً من الله عز وجل .
 وفيه دعوة سماوية لتلاوة القرآن في الصلاة وخارجها ، وموضوعية هذه التلاوة في مراتب الإيمان ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ نُّبَوِّرَ﴾^(١) .

الرابع : الإيمان باليوم الآخر ، وعالم الحساب والجزاء ، وتقدير الآية (أن آمنوا بربكم فأمنا بربنا) .

ليبيان اجتهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إعلاء كلمة التوحيد ، والتصديق برسالته ومحاربة الكفر ومفاهيم الشرك .



قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ الآية ١٩٨.

الإعراب واللغة

لكن : حرف استدراك مبني على السكون المقدر لالتقاء ساكنين .
الذين : اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ .
اتقوا : فعل ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لاتصاله
بواو الجماعة .

و(واو الجماعة) ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل ،
والجملة صلة الوصول لا محل لها من الإعراب .

ربهم : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة ، والهاء ضمير
متصل مبني على السكون في محل جر مضاف إليه ، والميم علامة جمع
الذكور العقلاء .

لهم : اللام حرف جر مبني على الفتح ، والهاء : ضمير متصل مبني
على السكون في محل جر بالحرف .

جنت : مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة ، والجملة في
محل رفع خبر المبتدأ (الذين) .

تجري : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة ، منع من
ظهورها الثقل .

من : حرف جر مبني على السكون .
تحتها : ظرف مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة ، وهاء الغائب ضمير
متصل مبني على السكون في محل جر مضاف إليه .
الأنهار : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة .
خالدين : حال منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم .

فيها : (في) الفاء : حرف جر مبني على السكون ، والهاء ضمير متصل مبني على السكون في محل جر .

نزلاً : مصدر مؤكد ، مفعول مطلق ، أي تنزلهم نزلاً .

من عند الله : من : حرف جر ، عند : اسم مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره ، الله : اسم الجلالة مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة .

وما : الواو : حرف عطف واستئناف مبني على الفتح ، (ما) اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ .

عند : ظرف مكان منصوب وعلامة نصبه الفتحة على آخره .

الله : اسم الجلالة مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة ، وشبه الجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .

خير : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة .

للأبرار : اللام : حرف جر مبني على الكسر .

الأبرار : اسم مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره لأنه جمع

تكسير .

ونزلاً : أي منزلاً وثواباً ورزقاً ، والنزل : ما يقام للضيف .

(وجعلت للرجل نزلاً ، أي ما يقيمه لنزوله من طعام وغيره)^(١) .

الأبرار : جمع بار ، مثل انصار ، وناصر ، وأشهد ، وشاهد .

والأبرار هم الصادقون في إيمانهم المطيعون لله ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ

لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٢) .

(١) جمهرة اللغة ٤٦٠/١ .

(٢) سورة الانقطار ١٣ .

في سياق الآيات

وفيه وجوه :

الوجه الأول : صلة آية البحث بالآية السابقة

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُسَّ الْمِهَادُ﴾^(١) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : مع قلة كلمات الآية السابقة فقد ذكرت حال الذين كفروا في الدنيا وفي الآخرة ، أما في الدنيا فانها أخبرت عن النعم التي يتمتعون بها ، وأنها متاع سريع الزوال ، على نحو العموم المجموعي بالفتح للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢) أو قطع النعم عن الأفراد بابتلاء خاص ، أو هلاك طائفة منهم كما في قوله تعالى ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^{(٣)(٤)} .

أما آية البحث فانها ذكرت حال المتقين في الآخرة بما هو الضد من حال الذين كفروا ، باقامة المتقين في الجنات والنعيم الدائم بضيافة وفضل من عند الله عز وجل ، وفيه خطاب للعقول بأن يختار الإنسان أما النعيم وأما الجحيم .

ويكون الاختيار في عالم الأفعال ، من وجوه :

الأول : قانون الكفر يؤدي إلى النار .

الثاني : قانون تقوى الله تؤدي إلى الجنة .

وهذا التضاد والتباين من الشواهد على أن القرآن معجزة عقلية من

وجوه :

(١) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٢) سورة الفتح ١ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٤) أنظر الجزء الواحد والتسعين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

الأول : قانون جعل آيات القرآن عالم الآخرة حاضراً في الوجود الذهني.

الثاني : قانون انصت الناس طوعاً وانطباعاً لآيات القرآن ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

الثالث : قانون مخاطبة آيات القرآن للعقول .

الرابع : قانون طرد آيات القرآن الغفلة عن الناس ، قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢).

المسألة الثانية : لقد ابتدأت آية السياق بالمبتدأ والخبر ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومن الإعجاز أنها جملة تامة وتفيد معنى ودلالة واضحة ، وتصل إلى شغاف القلوب كإنذار من الكفر واللهو والصدود عن الدعوة إلى الإيمان .

وللدلالة على اتصالها بالآية التي قبلها مع وحدة الموضوع ، أما آية البحث فانها ابتدأت بحرف الإستدراك ﴿لَكِنْ﴾ لتبين أيضاً صلتها مع الآية السابقة ، ولكن مع التضاد في الموضوع والحكم بينهما.

يبين الجمع بين الآيتين قانون الملازمة بين الكفر والخسارة والعذاب الأخروي ، وقانون الملازمة بين التقوى والنعيم الأخروي .

واستحضار الإنسان لهذين القانونين مجتمعين ومتفرقين يبعث النفرة في نفسه من الكفر ، ويرغبه بالإيمان وعمل الصالحات ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٢) سورة يوسف ٣.

(٣) سورة الحجرات ٧.

المسألة الثالثة : لقد ذكرت آية البحث أمرين يخصان الذين كفروا وهما:
الأول : قانون الدنيا مع الكفر متاع قليل .

الثاني : قانون إقامة الذين كفروا في نار جهنم في الآخرة .
 ويدرك الناس زوال النعم عن الذين كفروا ليكون دعوة للهداية والصلاح ، أما آية البحث فيتعلق موضوعها بالذين آمنوا واتقوا الله عز وجل في الغيب .

فهم يعيشون في الدنيا بقانون العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، وتراهم يتلون ولكن الإيمان يملأ قلوبهم ، ويحرصون على إقامة الصلاة والفرائض العبادية حتى إذا ما غادروا الدنيا استراحوا من همها وأحرزوا الثواب العظيم .

ومن وجوه ابتلاء المؤمنين ما ورد ذكره قبل ثلاث آيات بقوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١) (٢) .

فجاءت آية البحث بالشارة لهم ودعوتهم للصبر وعدم الإفتتان بالذين كفروا وما عندهم من النعم الدنيوية ، لذا جاءت الآية الأخيرة من سورة آل عمران وهي بعد آيتين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .



(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) أنظر الجزء الرابع والستين بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

التضاد بين النعيم والجحيم في الآخرة

ومن الإعجاز في سياق الآيات أنها تتضمن البيان والتوضيح لحال النعيم الذي يكون عليه الذين يخلصون طاعة الله فيه يوم القيامة ، من وجوه :

الأول : الإقامة في الجنان .

الثاني : تعدد الجنان التي التي أدخرها الله عز وجل للمؤمنين .

الثالث : جريان الأنهار من تحتهم في الجنة ، وهذا الجريان حقيقة ومجازاً .

أما الحقيقة فهي جريان الماء في امكنة ثابتة ، وأما المجاز فذات الأنهار تنتقل من مكان إلى آخر ، ومن جنة إلى أخرى ، ومن خصائص أنهار الجنة أن الماء يجري من غير اوعية وشقوق وكفتا نهر .

الرابع : اللبث الدائم في الجنان .

الخامس : الأمن والطمأنينة يوم القيامة بدليل قوله تعالى ﴿نُزُلًا مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٢).

السادس : كثرة النعم الإلهية على المؤمنين في الآخرة بما يفوق التصور .

المسألة الرابعة : من معاني الجمع بين الآيتين تأكيد التضاد بين المؤمنين

والذين كفروا من حين الدخول في القبر ، إذ يتلقى الملكان منكر ونكير الكافر باللوم والتوبيخ ، ويتلقيان المؤمن بالرضا والبشارة .

وهل يدل قوله تعالى ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾^(٣) على مصاحبة الغيظ والحنق

والأسى للذين كفروا في قبورهم .

الجواب نعم ، إذ تعاد الأرواح للأجساد في القبور حال مساءلة منكر

ونكير الميت عن التوحيد والنبوة .

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٨.

(٣) سورة آل عمران ١١٩.

ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (من مات فقد قامت قيامته)^(١).

وهذا الحديث ضعيف لعدم ذكر اسناد له ، وهو ما يمنع من التفكير في موضوعه ، إذ تنفصل الروح عند الموت عن الجسد ، وتخلف في العالم العلوي وتكشف لها حقائق من معالم التنزيل ، وعالم الأعمال بما يبعث الندم عند الكافر ، والسكينة عند المؤمن.

قانون مطرقة منكر ونكير

يدخل ملكا المساءلة والحساب الإبتدائي منكر ونكير قبر الميت بآية من عند الله عز وجل ، إذ ينكشف لهما القبر ، وتعاد الروح إلى الميت إلى حقوقه (أي معقد الأزار) والحقو : الخصر ، ومتنصف الإنسان. وفي يد كل من الملكين مطرقة ثقيلة لو اجتمع آلاف من البشر لا يستطيعون تحريكها ورفعها .

وهل حملهما لهاتين المطرقتين خاص بمساءلة المشرك والمنافق ، الجواب لا ، إذ أنهما مصاحبتان لهما عند الدخول في كل قبر ، إلى جانب شدة أصواتهما مما يبعث الرعب في قلب الميت ويربكه ، ولكن الله عز وجل يفضل بثبيت المسلمين بكلمات الإيمان ، وحتى الكافر فانه مع خوفه وفرعه فلا يجيب الملكين إلا بما كان يظنه في الدنيا ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢).

وفي حديث تميم الدارمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قال : ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصيافي)^(٣).

(١) البحار ٧/٥٨ / تفسير أبي السعود ٤٨٦/٢ .

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

(٣) الصياصي : جمع صيصية : الشوكة كالتى في مؤخر رجل الديك ، وتأتي الصياصي بمعنى الحصون ، قال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

وأفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعتهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها .
 قال: فيقولان له : اجلس ، قال : فيجلس فيستوي جالسا .
 قال : وتقع أكفانه في حقويه . قال : فيقولان له : من ربك .
 وما دينك ، ومن نبيك .

قال : قالوا : يا رسول الله، ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من الملكين ما تصف .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) .
 قال : فيقول: ربي الله وحده لا شريك له، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكة، ونبيي محمد خاتم النبيين .

قال : فيقولان : صدقت. قال: فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا، وعن يمينه أربعين ذراعا، وعن شماله أربعين ذراعا، ومن خلفه أربعين ذراعا، ومن عند رأسه أربعين ذراعا، ومن عند رجله أربعين ذراعا .

قال : فيوسعان له مائتي ذراع .

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعا تحاط به .

قال: ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة .

قال : فيقولان له: ولي الله، هذا منزلك إذ أطعت الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له : انظر تحتك.

مِنْ صِيَاصِيهِمْ﴾ الأحزاب ٢٦.

(١) سورة ابراهيم ٢٧.

قال : فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال : فيقولان : ولي الله نجوت آخر ما عليك .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا^(١) وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾^(٢).

ويحتاج كل إنسان ساعتئذ رحمة الله فتنزل على المؤمنين ، فلا ينجي الإنسان من مطرقة منكر ونكير إلا الإيمان والاستقامة ، ومغادرة الدنيا على كلمة التوحيد .

ويسأل منكر ونكير الكافر والمنافق عن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من التوحيد ووجوب عبادة الله ، وفي حديث قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وَأَمَّا الْكَافِرُ - أَوِ الْمُنَافِقُ - فَيَقُولُ لَا أَدْرِي ، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ .

فَيَقَالُ لَا دَرِيْتَ وَلَا تَلَيْتَ . ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ)^(٣).

والترديد بين الكافر والمنافق إنما ورد من جهة أحد رجال السند ، وفي رواية عبد الأعلى عن سعيد يرفعه (وأما الكافر والمنافق فيقول لا أدري)^(٤).

المسألة الخامسة : من نظم القرآن الابتداء بالثناء على المؤمنين ، ثم ذم الذين كفروا ، أما في المقام فقد ورد ذم وتبكيث ووعيد للذين كفروا في آية السياق لتأتي بعدها آية البحث ، وفيه وجوه :

(١) تفسير ابن كثير ٥٠٥/٤ .

(٢) سورة مريم ٧٢ .

(٣) صحيح البخاري ٢٤٦/٥ .

(٤) الجمع بين الصحيحين ٤٣٨/٢ .

الأول : العطف الموضوعي لآية البحث وآية السياق على الخطاب الإلهي الموجهه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قبل السابقة ﴿لَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١).

الثاني : من خصائص الإستدراك بـ(لكن) في أول آية البحث التنبيه على قانون التضاد بين الكفر والإيمان في الماهية والجزء .

الثالث : من خصائص الذين كفروا الإمتناع عن الإقرار باليوم الآخر ، وعالم الحساب ، وورد حكاية عنهم في التنزيل ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢) ، الذين قالوا : ارحام تدفع وأرض تبلع وليس وراء ذلك شيء ، وهو قول الدهريين .

ومن مصاديق صبغة الإعجاز العقلي للقرآن محاربته هذه المقولة وما يستحدث مما يشابهها في كل زمان وإلى يوم القيامة .

ومن خصائص آية البحث وآية السياق أنهما حرب على الإلحاد والجمود وزجر للناس عنه ، لذا ترى الدهريين في كل زمان أفراداً قليلين ، سرعان ما يهلكون من غير خلف لذات الفكرة في ذريتهم أو تدرك التوبة والإيمان الذرية .

وهو من منافع التنزيل في استدامة سيادة كلمة التوحيد بين الناس ، ومن مصاديق وراثه أهل الإيمان للأرض ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُتِبَ فِي الزُّبُورِ بَعْدَ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارَ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٦ .

(٢) سورة الجاثية ٢٤ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٥ .

(٤) سورة الرعد ٤٢ .

المسألة السادسة : تبين آية السياق سرعة انقطاع تنعم الذين كفروا في الحياة الدنيا ، ليدركوا أن اللهو واللعب الذي فيها سريع الزوال ويتعقبه الحساب والعقاب الأليم ، بينما نزلت آية البحث بشارة للذين آمنوا ، وترغيباً للناس بالإيمان بوعود كريمة متعددة لا يقدر عليها وعلى الإيفاء بها تامة غير منقوصة إلا الله عز وجل ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ أَمْلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١).

أما آية البحث فتتضمن تجدد واستحداث النعم على المؤمنين ، وفيه دعوة للذين كفروا للتوبة والإنابة وبيان قانون الإيمان ﴿تَجَارَةً لَّنِ بُيُوتِ﴾^(٢) وخير محض في النشاطين .

المسألة السابعة : لقد ذكرت آية السياق جهنم كمثوى وعقاب للذين كفروا لبعث النفرة في نفوس الناس من مفاهيم الكفر ، والزجر عن اتباع الذين كفروا أو الميل إليهم.

ومن الشواهد على أن القرآن معجزة عقلية متجددة هو دلالة الجمع بين آية البحث والآية السابقة بجعل الإنسان بالخيار بين المتاع القليل الزائل المصاحب للكفر قهراً وانطباقاً ، وبين النعيم الدائم ثواباً على الهداية والإيمان ، فلا يختار العاقل إلا النعيم الدائم ، لذا وردت آيات القرآن بمخاطبة الناس بصفة أولي الألباب ، أي أصحاب العقول الراجحة التي تختار النفع الدائم وتتجنب الأذى والضرر ، قال تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

(١) سورة غافر ١٦.

(٢) سورة فاطر ٢٩.

(٣) سورة المائدة ١٠٠.

المسألة الثامنة : بعد أن أختتمت الآية السابقة بالوعيد الأخروي للذين كفروا والذي جعله القرآن كالقريب ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسُورِ الْمِهَادُ﴾^(١) ابتدأت آية البحث بحرف الإستدراك (لكن) لبيان التباين الموضوعي بين ما قبلها وما بعدها.

لتخبر آية البحث عن الأمل والأمن والسعادة الأبدية للذين يخشون الله في الغيب مع تعدد النعم التي ينالونها في الآخرة وأسماها الخلود في النعيم لجذب الناس لمنازل الإيمان ، وفوزهم بهذا النعيم .
فمن فضل الله عز وجل الترغيب بالنعم ، والإنذار من الكفر والجحود الذي لا يؤدي إلا إلى النار .

وذكرت آية البحث أن للمتقين عند ربهم جنات ، لبيان الثواب العظيم الذي أعده الله لهم ، بينما ذكرت آية السياق النار وبالأعلى الذين كفروا .
وإذا كان عالم القبر برزخاً بين الدنيا والآخرة ، فانه لا برزخ بين الجنة والنار يوم القيامة ، فالإنسان إما إلى النعيم الدائم ، أو العذاب الأليم ، قال تعالى ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢) ، وقال تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨٥.

(٣) سورة الرعد ٣٥.

(٤) سورة الحشر ٢٠.

الوجه الثاني : صلة آية البحث بالآية قبل السابقة ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١).

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : نزلت آية السياق خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ ومع أنه خطاب خاص إلا أن حكمه عام للمسلمين والناس جميعاً.

وفيه نهى عن الإغترار والإفتتان بالذين كفروا في كثرة أسفارهم ومظاهر النعم التي يتنعمون بها ، ومن معاني الجمع بين الآيتين وجوه :

الأول : لا تغتر بكثرة أسفار الذين كفروا فان الجنة بانتظار المتقين .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا تغتروا بتقلب الذين كفروا في البلاد فان جنات تجري من تحتها الأنهار هي مثواكم الدائم في الآخرة .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا اثبتوا في منازل الإيمان ولا يفتنكم الذين كفروا ، ويقول الملائكة يوم القيامة لأصحاب النار ﴿ذُوقُوا فِتْنَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾^(٢).

ولو اغترت طائفة من الناس بالذين كفروا في تقلبهم في البلاد ، فهل يؤثم الذين كفروا على هذا الإفتتان ، الجواب نعم .

المسألة الثانية : ترى لماذا توجه الخطاب والنهي في آية السياق إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإجماع المسلمين على عصمته بعد النبوة ، وأن اختلفوا بخصوص ما قبلها .

والمختار الإطلاق في عصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الجواب للتنبيه والإنذار العام ، وأن تقلب الذين كفروا في البلاد فتنة عامة ، وسبب لصد طائفة من الناس عن الإسلام .

(١) سورة آل عمران ١٩٦ .

(٢) سورة الذاريات ١٤ .

فجاءت هذه الآية واقية ووقاية من هذه الفتنة ، وهو من إعجاز الآية القرآنية بأنها حرب على الأسباب والسبل التي قد تحول دون دخول الناس الإسلام ، وهذه الحروب متجددة كل يوم ، وهي حصانة للمسلمين ، وسبب من أسرار تلاوة كل مسلم ومسلمة آيات وسور من القرآن كل يوم على نحو الوجوب العيني .

المسألة الثالثة : ذكرت آية السياق البلاد بخصوص تغلب وتقلب وكثرة الذين كفروا ، والبلاد جمع بلد .

ليكون من معاني الجمع بين الآيتين دعوة المسلمين إلى الصبر وفيه وجوه:
الأول : قانون تقوى الله مدد في الصبر .

الثاني : قانون تقوى الله واقية من الإنذار بتقلب الذين كفروا في البلاد .

الثالث : من معاني تقوى الله الإنقطاع إلى ذكره وفيه غنى عن التطلع والإفتتان بما عند المشركين ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١).

وفيد الجمع بين الآيتين مقارنة السفر في البلاد كمتاع قليل مع الإقامة الدائمة في الجنة لما فيه ترغيب بالإيمان والتوبة ، وإجتنب مفاهيم الضلالة.
المسألة الرابعة : تتصف آية السياق بقلة كلماتها ، إذ تتألف من خمس كلمات ، وقد صدر الجزء الخامس والستون بعد المائتين من هذا السفر خاصاً بتفسيرها وتأويلها ، ويتضمن (١٨٣) قانوناً.

وابتدأت الآية بالخطاب والنهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لا يغرنك) أي لا تفتتن بكثرة أسفار الذين كفروا ، ولا تغتر ولا تنشغل بها فهي متاع قليل زائل لقانون الكفر ماحق للنعم .

والمراد من الخطاب عامة أجيال المسلمين ، قال تعالى ﴿وَلْيُنْجِصَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَيُحَقِّقَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وهل من اختبار وتنزيه وتمحيص وتطهير الذين آمنوا النهي عن الإغترار بالذين كفروا ، الجواب نعم .

والنسبة بين التمحيص والنهي عن الإفتتان بالذين كفروا عموم وخصوص مطلق فالتمحيص أعم ، لتكون آية البحث منه ، وبينما تدرك كثرة تنقل الذين كفروا في البلاد بالحواس ، بحاسة البصر والسمع ، جاءت آية البحث لتصرف بصائر وقلوب المسلمين إلى النعيم الدائم في الآخرة . ومن معاني الإعجاز العقلي للقرآن غلبة البصيرة على حاسة البصر والسمع ، فيكون وصف الجنة التي أعدها الله للمتقين خطاباً للبصائر والعقول والحواس .

المسألة الخامسة : تضمنت آية البحث الوعد الصادق باقامة الذين آمنوا الصلاة وعملوا الصالحات طاعة لله عز وجل وقرية إليه في الجنة جزاء لهم ، وفضلاً من عند الله عز وجل ، وذكرتهم الآية بصفة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ ومن تقوى الله عز وجل عدم الإغترار أو الإفتتان بالذين كفروا لبيان قانون السلامة من الإغترار بالذين كفروا من تقوى الله .

وفيه ترغيب للمسلمين بالصبر والتحمل والرضا بحياة الزهد ، وإدراك قانون سرعة زوال النعم من المال والجاه عن الذين كفروا ، بينما نعمة الإيمان هي الأسمى وهي باقية ولا تستلزم مالاً أو جاهاً .

فليس بين الإنسان والإيمان برزخ أو موانع أو حاجة إلى طلب الإذن من الخلائق ، إنما هو اعتقاد بالجنان ، وتصديق وتسليم وانقياد للتنزيل وما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

المسألة السادسة : من معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق ﴿لَا يَرْفُكْ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) دعوة الذين كفروا للتوبة والإنابة وفيه

(١) سورة آل عمران ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

الضرر ، وترغيب الناس بالإيمان وهو خير محض ونفع في النشاطين ، فليس من عاقل إلا ويختار النفع.

وذكرت آية البحث النفع العام للمؤمنين بالخلود بالنعيم ، هذا الخلود الخالي من الإضرار بالآخرين من عامة الناس ، وليس فيه تنافس أو تحاسد أو ضغائن أو عداوة كما يحصل في الحياة الدنيا بين كل أهل صنف سواء في الرياضات أو المهن أو التجارات ، قال تعالى ﴿وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

و(عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتصد بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة : فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا.

قَالَ قَتَادَةُ : وَكَانَ يُقَالُ : مَا يُشَبَّهُ بِهِمْ إِلَّا أَهْلُ جُمُعَةٍ حِينَ انْصَرَفُوا مِنْ جُمُعَتِهِمْ)^(٢).

المسألة السابعة : تضمنت آية السياق ذم الذين كفروا مع نهي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والناس جميعاً عن الإفتتان بكثرة أسفارهم ، فهي نعمة زائلة ، وسبب زوالها الكفر والجحود لبيان قانون الكفر قاطع للنعمة ، وقانون عدم إستدامة النعمة مع الكفر ، لتأتي آية البحث فتؤكد الفوز كل الفوز بتقوى الله عز وجل ، والتحلي بالصلاح ، وفي حال الرخاء والشدة ، والسعة ، والضيق .

(١) سورة الأعراف ٤٣.

(٢) الدر المنثور ١٠١/٦ .

وبينما ذكر لفظ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مائة وسبعاً وخمسين مرة في القرآن ، فقد ذكر لفظ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه ثلاث مرات ، وكل آية من هذه الآيات تدعو الناس للتحلي بالتقوى ، وإجتنب الكفر ومفاهيم الضلالة .

إعجاز الجمع بين النهي والإستدراك

ابتدأت آية السياق بأداة النهي (لا) في قوله تعالى ﴿لَا يَغْرَبْكَ﴾ ، لبيان استقلال موضوعها أما آية البحث فابتدأت بحرف الإستدراك (لكن) لبيان صلة الآية بما قبلها مع التباين في الموضوع والحكم ، وفيه دعوة لإستحضار الآية السابقة في الوجود الذهني مع قانون عدم حيولة التلاوة دون الربط بين الآيات في المعنى والدلالة ليتجلى قانون ذات تلاوة القرآن فقاها وارتقاء في سلم المعارف .

ومن خصائص كل من النهي في أول آية السياق والإستدراك في أول آية البحث البعث على العمل بمضامين آيات القرآن ، وتقدير آية السياق : يا أيها الذين آمنوا لا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد ، وأنه نعمة زائلة ، وسبب الزوال هو اختيار الكفر ، وإن قلت ذات الدنيا متاع زائل .

الجواب هذا صحيح ، ولكن زوال النعم التي عند الذين كفروا سريع بسعيهم لمحاربتهم النبوة والتنزيل ، كما في معارك الإسلام الأولى معركة بدر ، وأحد ، والخندق ، وحنين ، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

وفي معركة بدر التي اختار مشركو قريش موقعها وأوانها ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذي كان كارهاً للقتال ، ولم يستعد له إذ كان خروجه في كتيبة استطلاع حول المدينة ، ونشر مبادئ الإسلام ، وإقامة الصلاة في أفواه القرى ، وفي الجادة العامة ، فلما نشبت المعركة سقط

(١) سورة البقرة ٥٧.

سبعون قتيلًا من المشركين وأسر سبعون منهم ، وسقط أربعة عشر شهيداً من المسلمين .

وانتصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بفضل ومدد ملكوتي من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرٍّ وَآتَمَّ أَذْلَهُ فَأَتَوُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) لبيان قانون نصر الله انتقاص لمتاع الذين كفروا .

دلالة التضاد بين الذم والمدح

ذكرت آية السياق ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبصيغة الذم والوعيد بالنار أما آية البحث فذكرت ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وبلغة المدح والثناء والوعد بالجنة.

ليان قانون عالم الآخرة مرآة للحياة الدنيا ، وأن الجزاء في الآخرة على سنخية العمل في الدنيا ، لبيان قانون ترتب النجاة لكل لإنسان على اجتنابه الكفر الكفر والجحود ، وبالهداية إلى سبل الإيمان والرشاد ، لبيان خسارة الذين كفروا للدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فمتاعهم فيها قليل وسريع الزوال ، ولا غرابة ، وأما في الآخرة فقد أخبرت آية السياق بأن مآلهم إلى النار ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾^(٢).

ويدل الجمع بين هذه الآية وآية السياق على حقيقة وهي تقلب الذين كفروا في البلاد فساد وإشاعة للمنكر ، والإنفاق في الصدود عن سبيل الله فاستحقوا الذم والوعيد ، ولو اغترت طائفة من الناس بالذين كفروا فهل يؤثم الذين كفروا بهذا الإنذار أم أن القدر المتيقن الإثم ما يأتي بسبب فعل الإنسان نفسه .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة النحل ٨٨.

الجواب هو الأول لقاعدة التسييب وإغراء الناس ، ليكون الذين كفروا من شياطين والإنس بتزيينهم مفاهيم الضلالة ، وصيرورتهم ظالمين لأنفسهم وغيرهم ، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(١).

قانون الإنذار بعث على التقوى

لقد ذكرت آية السياق أربع مسائل تخص الذين كفروا وهي :

الأولى : في الدنيا بأن تقلبهم في البلاد متاع قليل وبلغة فانية بذاته وسنخيته ، في ذم سماوي لسوء إختيار الكفر والضلالة .

الثانية : مصير الذين كفروا هو نار جهنم لا يجدون منها مهرباً ولا مفراً .

الثالثة : صيرورة النار مهاداً وفراشاً دائماً للذين كفروا .

الرابعة : فراش الذين كفروا في النار أليم ، وهو سبب للعذاب الشديد المتصل .

ولبيان أن ذات فراش الذين كفروا يؤذيهم ، وهذا الفراش هو ذات النار ، ومن معاني ﴿بِسْرِ الْمَهَادِ﴾^(٢) أن هذا الفراش لا يصلح للجلوس أو النوم عليه في ليل أو نهار لأنه نار ودخان .

لنتعقبها آية البحث التي تصف حياة المؤمنين على الضد والتقيض من الآية السابقة .

إذ يقيم أهل الإيمان والتقوى في الجنة والنعيم الدائم ثواباً وجزاء من عند الله عز وجل ، لبيان أن الإقامة في دار الخلود بحسب الاعتقاد والعمل

(١) سورة الأنعام ١١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٧.

في الدنيا ، قال تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١).

لقد آذى الذين كفروا من قريش النبي محمداً وأهل بيته وأصحابه ، وعندما يئسوا من منعه من الدعوة إلى التوحيد ، ورأوا استمرار نزول آيات القرآن التي تدم عبادة الأوثان التي كانوا عليها ، وتدعو الناس إلى الإيمان بالحجة والبرهان ، ومنه تدبر الناس في آيات القرآن ، وأنها فوق كلام البشر ، والتي تحض الناس على التدبر في الآيات الكونية ، وتحثهم على المبادرة بالتصديق بنبو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

مسائل في الجمع بين الآيتين

من معاني الجمع بين الآيتين أمور :

الأولى : جعل الإنسان بالخيار إما الإقامة الدائمة بالعذاب في النار الذي هو عقاب للبقاء على الكفر ، وإما الخلود في النعيم للذي يتوب ويصلح نفسه وعمله ، مع تفضل الله عز وجل بتقريب الناس إلى مقامات الهدى والإيمان ، وكل من آية البحث والسياق من مصاديق هذا التقريب .

الثانية : تقريب الناس إلى منازل الهداية والإيمان ، وهو من إعجاز القرآن ، فلا يستطيع سلطان أو دولة هداية عامة الناس إلى الاختيار الأحسن مثل الجمع بين آيتين من القرآن ، إحداهما تبعث النفرة في النفوس من الكفر ، والأخرى تبعث الشوق إلى الآخرة بالإيمان .

الثالثة : من معاني الجمع بين الآيتين تعزيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته السماوية ، ودعوته إلى الله ، فهذا الجمع أمضى في النفوس من السيف في الأجساد .

(١) سورة الزلزلة ٧-٨.

(٢) سورة التوبة ١٢٨.

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم يشهر سيفاً للقتال ، إنما لاقى أذى قريش في مكة قبل الهجرة بالصلاة وتلاوة القرآن في الصلاة ، مما صار سبباً لدخول رهط من الناس في الإسلام .
الرابعة : ومن الإعجاز في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمور :

الأول : قانون تزايد عدد المسلمين مع تقادم الأيام والسنين .
الثاني : قانون تحلي المسلمين والمسلمات بالصبر ، وأول شهيد في الإسلام امرأة وهي سمية بنت خباط والددة عمار بن ياسر ، قتلت لأنها أبت الإرتداد عن الإسلام ، وسيأتي بعد آيتين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) التي هي آخر آية من سورة آل عمران .
الثالث : التناقص في عدد الذين كفروا .
الرابع : تعضيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنزول الملائكة لنصرته .

الخامس : صدق إيمان الصحابة وأهل البيت .
السادس : سلامة القرآن من التحريف والزيادة والنقصان .
وهل من موضوعية لآيات القرآن والسنة النبوية فيه ، الجواب نعم ، وهو من أسرار نزول القرآن من عند الله عز وجل ، ودوام الوحي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) .

قانون بعث الخوف في قلوب الكفار

لقد أخبرت آية السياق عن حال مخصوص للذين كفروا في الدنيا ، وهو كثرة أسفارهم وما تدل عليه هذه الكثرة وذمها في القرآن من أمور منها :

(١) سورة آل عمران ٢٠٠ .

(٢) سورة النجم ٣-٤ .

الأول : كثرة أموال وسعة جاه الذين كفروا .

الثاني : اتخاذ الذين كفروا نعمة السفر والتنقل في ملك الله موضوعاً

ومادة للهو واللعب ، ومحاربة النبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(١).

الثالث : قانون قبح الإنتفاع من النعم من منازل الكفر والجحود .

ومن الإعجاز في آية السياق عدم توجه الخطاب فيها للذين كفروا ، إنما توجه الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصيغة النهي ، عن الإغترار بهم وبكثرة حلهم وترحالهم ، والمراد بالنهي وموضوعه الأمة وأجيالها المتعاقبة.

ومن خصائص آية السياق بعث الخوف والفرع في قلوب الكفار ، وحجب اللذة المصاحبة لكثرة الأسفار فلا تصل إليهم .

ومن الإعجاز الغيري لآية السياق ملاحظتها للذين كفروا في حلهم وترحالهم ، وهو من الإعجاز في تشريع تلاوة كل مسلم القرآن خمس مرات في الصلاة اليومية ، والجهر بالتلاوة في أكثر ركعاتها .

إذ يجب الجهر بالتلاوة في صلاة الصبح وهي ركعتان ، وصلاة المغرب وهي ثلاث ركعات ، وصلاة العشاء وهي أربع ركعات ، لما في هذه التلاوة من التذكرة والتجديد اليومي بصيغ الإنذار والبشارة ، والوعد والوعيد في القرآن.

فصحيح أن آية السياق تخاطب النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنها إنذار وعيد للذين كفروا ، فهي إنذار بدلالة الآية السابقة التي أخبرت بأن كثرة أسفار وأموال الذين كفروا متاع قليل ، ووعيد لقانون عاقبة الكفر الخلود في النار .

بينما جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية التي لا تحتل إلا الصدق والحق ، وتتضمن البشارة والوعد الكريم للمؤمنين باللبث الدائم في النعيم. وهل توجه الخطاب في آية السياق إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع إلحاق المسلمين به تعريض بالذين كفروا وإزدراء لهم .
الجواب نعم ، فلم تخاطبهم الآية الكريمة ، ومع هذا فهي إنذار لهم ، وهذا الإنذار مركب يشمل الحياة الدنيا وعالم البرزخ ويوم القيامة .
نعم تضمنت الآية السابقة الوعيد للذين كفروا وأن مصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمِهَادُ﴾^(١).

كما وردت آيات كثيرة تتضمن الإنذار الصريح للذين كفروا ، منها قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢).
وهل كثرة أسفار الذين كفروا استدراج لهم ، الجواب نعم ، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾^(٣).

و(عن أبي الدرداء قال : ما من مؤمن إلا الموت خير له ، وما من كافر إلا الموت خير له فمن لم يصدقني فإن الله يقول ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾^(٤))
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٥)^(٦).

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة المائدة ١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٧٨.

(٤) سورة آل عمران ١٩٨.

(٥) سورة آل عمران ١٧٨.

(٦) الدر المنثور ٢/٣ .

وإذا كان الأمر استدراجاً فلا يكون سبباً للإغترار لأنه امتحان وبلاء.

الدعوة لإختيار النعيم

تختص آية السياق بحال السعة والمندوحة عند الذين كفروا وكثرة أسفارهم في الواقع اليومي المحسوس بالسمع والبصر بينما يختص موضوع آية البحث بحال النعيم الدائم للمؤمنين في الآخرة.

ومع أن حال الذين كفروا ظاهر جلي للناس نزلت آية البحث لتمنع الناس من تمنيه ، وتجذبهم إلى مصاديق النعمة الكبرى ، والسعادة القصوى حيث الأنهار الجارية والقصور الفخمة ، والخور العين ، والطيبات من المأكول والمشرب في الجنة .

ليكون من معاني الجمع بين الآيتين قانون ندب الناس إلى العمل الصالح والسعي إلى الجنة ، ويتجلى هذا الندب واستنهاض الناس في الحديث النبوي أيضاً.

و(عن اسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تزهر ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في فاكهة دار سليمة ، وفاكهة خضرة وخيرة ونعمة ، في محلة عالية بهية.

قالوا : نعم يا رسول الله قال : قولوا إن شاء الله قال القوم : إن شاء الله^(١).

ومن معانيه تخيير الناس بين المتاع القليل الزائل وبين الخلود في النعيم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) بلحاظ وجوه:

الأول : قانون كل آية قرآنية رحمة للناس جميعاً .

(١) الدر المنثور ٤٨/١.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

الثاني : قانون الآية القرآنية رحمة للإنس والجن.

الثالث : قانون الآية القرآنية رحمة في الدنيا وفي الآخرة .

الرابع : قانون حضور الآية القرآنية مع تاليها في القبر وعالم البرزخ .
ليجتهد المسلمون في تعاهد آيات القرآن ، والعمل بأحكامها ، وتوثيق السنة النبوية والسعي للأمن في عالم البرزخ الذي حذر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فتنه وعذابه ، والعمل للفوز بشفاعته النبي يوم الورد .
وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا تبع جنازة علاه كرب ، وأقل الكلام ، وأكثر حديث نفسه)^(١).

وحديث نفسه هو التسييح والذكر والإستغفار وتلاوة القرآن.
وعن عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ)^(٢).

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾^(٣) وفيه مسائل :

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٣٨٢/٨ .

(٢) سنن ابن ماجه ٤٧٥/١٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٥ .

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بحرف العطف الفاء في ﴿فَاسْتَجَابَ﴾

ليبان فورية وسرعة استجابة الله لأولي الألباب لقوله تعالى ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).
وبلحظ الصلة مع آية البحث فيه ترغيب للمؤمنين بالدعاء وسؤال الله عز وجل الفوز بالجنة ، واللبث الدائم فيها.

وذكرت آية السياق استجابة الله عز وجل للمؤمنين في أدعيتهم التي وردت في الآيات الأربعة السابقة لها ، والتي من إعجازها ابتداؤها بالثناء على الله ، وبيان بديع صنعه ، وعظيم قدرته وإظهار ومصاديق العبودية والطاعة لله عز وجل مع الدعاء في ذات الآية بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَأُولِي الْأَبْصَارِ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ يَتَكَوَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

لتبين الآية أعلاه أموراً :

الأول : وجوب عبادة الناس لله عز وجل .

الثاني : قانون ذكر المؤمنين لله عز وجل عن قيام وقعود واضطجاع على نحو يومي متجدد ، والمراد اتصال ذكر الله على كل حال .

الثالث : التفكير بخلق السموات والأرض من منازل الإيمان عبادة .

الرابع : قانون التفكير في صنع وخلائق الله ذكر وعبادة.

بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية

الإقرار بأن الله عز وجل هو الخالق للسموات والأرض وهو رب ومالك كل شيء ، وأن هذا الخلق لعل تعجز عن إدراكها ، وقد بين الله

(١) سورة آل عمران ١٩٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٩١ .

عز وجل علة خلق الناس وهي وجوب عبادته لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وهل هذا الإقرار واجب على الناس ، الجواب نعم ، وهو شعبة من الإيمان .

ومن الفوارق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية أن توحيد الربوبية هو الاعتقاد الجازم بتفرد الله بالخلق والملك والتدبير والرزق والإحياء والإقامة .

وأما توحيد الإلهية فهو الإقرار بأن الله عز وجل وحده الذي يستحق العبادة ، وليس من معبود إلا هو سبحانه .

ومن الناس من لا يذكر الله إلا عند الشدائد ، ومع هذا فإن الله عز وجل يستجيب له ، ولكنه بعد كشف الضر يهجر الدعاء والذكر ولا يواظب على أداء الفرائض العبادية ، لبيان قبح الصدود والجحود عند الرخاء ، وقانون الإمتناع عن الشكر لله جحود.

قانون ذكر الجنة باعث للصلاح

لقد تكرر قوله تعالى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢) في كل من آية البحث وآية السياق ، وذكرت آية البحث خصائص المتقين في الجنة من جهات :

الأولى : الجنات وأنهارها نزل وضيافة للمتقين في الآخرة بفضل ولطف من عند الله عز وجل .

الثانية : بيان قانون من الإرادة التكوينية ، وهو الخير والنعم العظيمة التي أعدها الله للأبرار الذين يطيعونه في الدنيا ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾^(٣).

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة آل عمران ١٩٨.

الثالثة : تأكيد الثواب في الآخرة لكل من :

الأول : أولو الألباب الذين اجتهدوا في الدعاء والمسألة .

الثاني : الذين أدوا الفرائض العبادية .

الثالث : الذين عملوا عملاً صالحاً بقصد القربة إلى الله سواء كانوا من

الرجال أو النساء .

الرابع : الذين هاجروا في سبيل الله ، وبسلامة من دينهم ، قال تعالى

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجَرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

الخامس : بشارة القرآن بالثواب بالجنة للمؤمنين الذين أخرجوا من

ديارهم وأرضهم لثباتهم على الإيمان .

وهل يختص ثواب الهجرة بأصحابها ، الجواب لا ، لذا جاءت آيات

الدعاء الأربعة السابقة عامة في أدعية المؤمنين من الأولين والآخرين ، نعم

لقد صارت بنزول القرآن تركة عظيمة للمسلمين ، وكنزاً ينهلون منه آداب

الدعاء ، ويدركون معه الثواب العظيم.

السادس : بشارة الذين أودوا وتحملوا المشاق في سبيل الله بالجنة التي

تجري تحتها الأنهار .

السابع : الأجر العظيم في الآخرة للذين قاتلوا دفاعاً عن النبوة والتنزيل

، قال تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)^(٤).

(١) سورة الإنسان ٥.

(٢) سورة النحل ٤١.

(٣) سورة آل عمران ١٤٦.

(٤) أنظر الجزء ١١٨ من هذا السفر والذين اختص بتفسير هذا الآية المباركة .

وتدل الآية أعلاه على شمول مضامين آية السياق للمسلمين وأتباع الأنبياء من الأمم السابقة .

الثامن : تفضل الله عز وجل بدخول الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله الجنة.

وتقدير ﴿وَقَاتِلُوا قُتِلُوا﴾ على وجوه :

الأول : قاتلوا في سبيل الله ولم يقتلوا .

الثاني : قاتلوا في سبيل الله وقتلوا في ميدان المعركة .

الثالث : قاتلوا في سبيل الله وقتلوا خارج المعركة .

الرابع : قتلوا لأنهم مؤمنون .

الخامس : قاتلوا في سبيل الله ، وماتوا على الفراش ، وتفضل الله عز وجل وكتب لهم القتل في سبيله .

السادس : الذين قتلوا من غير أن يقاتلوا .

وقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا قُتِلُوا﴾ من مصاديق جمع الواو للعطف والإستئناف

لتعدد الموضوع ، ولتشمل الآية المستضعفين والمسلمات.

كما في سمية بنت خباط أم عمار بن ياسر وهي أول شهيدة في الإسلام إذ قتلها بنو مخزوم لإمتناعها عن ترك الإسلام ، وكما في سرية القراء الذين أرسلهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل نجد لتعليم القرآن بناء على طلب وإلحاح من قبل أبي براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة الذي أجابه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقول (إني أخشى عليهم أهل نجد .

فقال أبو براء : أنا لهم جار أي هم في جوارى فابعثهم ليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين، فيهم الحارث بن الضمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن ورقاء الخزاعي

وعامر بن فهير مولى أبي بكر، وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد .

فساروا حتى نزلوا بين معونة وهي أرض بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم^(١).

وقد غدر بهم وقتلوا جميعاً في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة بعد أربعة أشهر من معركة أحد ، مع أنهم ليسوا سرية قتال ، فكانت فاجعة أليمة .

وقد تقدم التفصيل في الجزء الواحد والستين بعد المائتين من هذا السفر فهي من الشواهد على أن النبي محمداً لم يغز أحداً ، وجاءت آية السياق لمواساة المسلمين وأجيالهم بالثواب العظيم الذي أعدّه الله عز وجل لهم . لقد خرجوا من المدينة للتبليغ ، وقيل أن عددهم سبعون صحابياً ، والمختار أن عددهم أربعون ، قتل منهم سبعة وثلاثون^(٢).

الجمع بين الآيتين من القرآن

من علوم القرآن التي يلزم تأسيسها والتوسعة فيها علم الجمع بين كل آيتين وفيه أمور :

الأول : قانون الجمع بين كل آيتين رحمة عامة بالناس .

الثاني : قانون الجمع بين كل آيتين من القرآن مدرسة لاستنباط المسائل والأحكام .

الثالث : دلالة الجمع بين كل آيتين من القرآن على سلامة القرآن من التحريف .

الرابع : قانون بعث الجمع بين كل آيتين من القرآن الشوق في النفوس للتوبة والإنابة .

الخامس : قانون حاجة علم التفسير للجمع بين كل آيتين من القرآن .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٣/٧ .

(٢) أنظر الجزء ١٦٦ / ٢٦١ .

السادس : تجلي الإعجاز في الجمع بين كل آيتين .

السابع : قانون انتفاء التعارض بين آيات القرآن .

الثامن : الجمع بين كل آيتين ضياء وهدى ، ومدرسة لاستنباط الأحكام .

التاسع : قانون الجمع بين كل آيتين دعوة يومية متجددة للهداية

والصلاح .

ومن خصائص القرآن إطراد علومه ، فهي من اللامتهي من جهة الإعجاز والشواهد التي تدل على أنه معجزة عقلية متجددة تخاطب العقول ، وتجذب النفوس إلى الإيمان .

ومنه علم الجمع بين كل آيتين ، وما فيه من الدلائل والمنافع ، ومنه قانون الجمع بين آية البشارة وآية الإنذار بعث للنفرة في النفوس من الكفر ، وترغيب للناس للإيمان .

والجمع بين آية تذكر الجنة وعظيم الثواب فيها ، وآية تذكر العذاب الأليم للذين كفروا أمضى من السيف في قيام الحجة على الناس ، وهو من الشواهد على قانون انتشار الإسلام بالحجة والبرهان وآيات القرآن وليس بالسيف .

النسبة بين الذين آمنوا والمتقين

لقد أخبرت آية السياق عن استجابة الله عز وجل للمؤمنين في أدعيتهم لأموال الدنيا والدين ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وما في هذه الأدعية من الدلالة على إيمانهم بالله والنبوة واليوم الآخر .

وهل آية البحث من مصاديق هذه الإستجابة ، الجواب نعم من وجوه :

الأول : تزكية آية البحث للذين يخشون الله بالغيب ، وهي مرتبة ﴿وَمَا

يُلْقَاهَا إِلَّا دُوحٌ عَظِيمٌ﴾^(١) ومن خصائص المؤمنين خشيتهم من الله عز وجل .

الثاني : البشارة بالجنة للذين اجتهدوا في طاعة الله .

الثالث : دلالة مفهوم آية البحث على سلامة المؤمنين من التخويف والوعيد بالفرع والرعب من العذاب في موطن يوم القيامة .

والنسبة بين الذين آمنوا والمتقين عموم وخصوص مطلق ، فالذين آمنوا أعم ويشمل الذين نطقوا بالشهادتين ، أما المتقون فهم الذين أخلصوا العبادة لله عز وجل وامتنعوا عن معصيته ، والنسبة بين ترك المعصية والإمتناع عنها عموم وخصوص مطلق ، فالإمتناع أخص لدلالته على القصد والإرادة وأنه أمر وجودي .

وقال الإمام علي عليه السلام (وقد سئل عن التقوى فقال : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل)^(١).

قانون الثناء على المتقين

لقد تضمنت آية البحث الثناء على الذين يخشون الله بالغيب ، والبشارة والوعد من الله عز وجل بأنه أعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ولا يقدر على هذا الوعد وعلى إمضائه وتحقيقه إلا الله عز وجل وحده ، وهو من مصاديق صبغة الإعجاز العقلي للقرآن .

وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ...﴾^(٢) الوارد في آية السياق .

الجواب نعم ، لقوله تعالى قبل أربع آيات ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٣) وفي هذه الآيات مسائل :

الأولى : لزوم الإجتهد والإلحاح في الدعاء .

الثانية : الدعاء لأمر الدنيا والآخرة .

(١) الأربعين النووية ٤٣/١ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٤ .

الثالثة : المواظبة على أداء الفرائض العبادية .

الرابعة : إخلاص النية بقصد القربة إلى الله عز وجل .

وآية البحث من اللطف الإلهي بالمتقين خاصة وبالمسلمين والناس جميعاً لما فيها من مدح المتقين والإخبار السماوي بفوزهم يوم القيامة باللبث الدائم في النعيم .

والنسبة بين المسلمين والمتقين عموم وخصوص مطلق ، فالمسلمون أعم ، فليس كل من ينطق بالشهادتين هو من المتقين .

ليكون من خصائص آية البحث بعث المسلمين والمسلمات على التقوى ، وترغيبهم بسنن الإيمان ، وفيه وجوه :

الأول : قانون البشارة بالجنة باعث على الإيمان ، وإخلاص الطاعة لله عز وجل .

الثاني : تبعث آية البحث النفرة من الكفر ومفاهيم الضلالة ، لذا جاءت متعقبة لآية ذم الذين كفروا ، والإخبار بأن بشارة القرآن للمتقين بالجنة جزاء عاجل .

لأن هذه البشارة حق وصدق ، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(١).

الثالث : المختار أن النسبة بين المؤمنين والمتقين عموم وخصوص مطلق ، فالمتقون أخص ، وهم خاصة المؤمنين ، ولا تعني آية البحث إنحصار دخول الجنة بالمتقين .

بل جاءت لآيات بدخول الذين نطقوا بالشهادتين ، وأدوا الفرائض العبادية الجنة ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

(١) سورة النساء ١٢٢.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلَالٌ ﴿١﴾

وتحتمل منزلة المتقين في الجنة وجوهاً :

الأول : التساوي بينها وبين منزلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

الثاني : ليس من ضابطة كلية عامة ، فقد يكون المتقي أعلى منزلة في الجنة ، وقد يكون العكس .

الثالث : المتقون أعلى منزلة في الجنة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وكل منهم على خير وفي نعمة عظيمة .
والصحيح هو الثالث .

و(عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن في الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس)^(١) .

إعجاز الآية الذاتية

يدل إبتداء هذه الآية بحرف الإستدراك (لكن) على أمرين :

الأول : إتصال موضوع الآية بالآية السابقة .

الثاني : المغايرة بين موضوع هذه الآية والآية السابقة .

فبعد إخبار الآية السابقة عن سرعة زوال النعم عن الذين كفروا ممن حارب النبوة والتنزيل ، وسوء عاقبتهم ، وخلودهم في النار يوم القيامة ذكرت هذه الآية منازل السمو والسعادة للذين آمنوا وعملوا الصالحات .
ومن الإعجاز الذاتي في آية البحث أنها لم تذكر أحوال المتقين في الدنيا من الغنى أو الفقر ، والأمن أو الخوف ، والرخاء أو الشدة ، لبيان أن مدار اللبث الدائم في النعيم على تقوى الله والخشية منه بالغيب .

(١) سورة النساء ٥٧ .

(٢) الدر المنثور ٦ / ٤٢٧ .

ولم يرد لفظ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بصيغة الماضي في القرآن إلا ثلاث مرات ، تتضمن كل واحدة منها الإخبار عن سعادتهم في الآخرة وخلودهم في النعيم ، بينما ورد لفظ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بصيغة الأمر خمساً وخمسين مرة.

ويتوجه الخطاب فيها تارة للناس عامة وأخرى لخصوص الذين آمنوا منها قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١).

ليبان أن النسبة بين الذين آمنوا والمتقين عموم وخصوص مطلق ، فالمتقون أخص ، وأن التقوى مرتبة بعد الإيمان تستلزم طاعة الله ورسوله ، والخوف والخشية من سخط الله والذي يترتب على فعل القبيح .

ونسبت آية البحث خلود المتقين في الجنة إلى كرم ولطف وفضل الله بقوله تعالى ﴿نَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٢) أي ضيافة وجزاء وورد مقله قبل ثلاث آيات ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٣).

ولم تقل الآية (نزلًا عند الله) وأنهم ضيوف عند الله إنما الناس في رحمة الله في الدنيا والآخرة ، ولكن أضافت الآية (من عند الله) لبيان أن إقامة المتقين في الجنة بمشيئة ولطف من عند الله عز وجل .

ثم اختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ لبيان أن الذي أعده الله عز وجل لأهل الصلاح والتقوى نعمة عظيمة ، وخير من المتاع القليل والمال والجاه الذي يتنعم فيه الذين كفروا في الحياة الدنيا .

وبينما ذكرت الجنة ﴿نَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلم تذكر خاتمة الآية حرف الجر والتبعية (من) إذ قالت ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(٤).

(١) سورة الأحزاب ٧٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٧.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

(٤) سورة آل عمران ١٩٨.

ومن خصائص آية البحث تهذيب النفوس وإصلاح المجتمعات لقانون الملازمة بين تقوى الله والصلاح ، فيجتهد المؤمن بطاعة الله ، ليكون له صلاحاً ، ويقتبس الناس منه ، ويلتفتون إلى علة هذه الطاعة وهي القرية إلى الله والفوز برضاه ، وما أعد الله عز وجل للمؤمنين من الثواب العظيم في الآخرة .

ويمكن تسمية آية البحث آية ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في آية البحث .

إعجاز الآية الغيري

لقد ابتدأ نظم القرآن بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وبهذه البسمة تفتتح كل سورة من القرآن باستثناء سورة التوبة لبيان أن خلق الإنسان من رحمة الله ، وكذا رزقه وخلافته في الأرض إلا أن الذين كفروا جحدوا النعم باختيار الكفر والضلالة ، وأعرضوا عن الآيات الكونية ، وامتنعوا عن التصديق بالنبوات ، وما صاحبها من المعجزات الحسية .

فمن خصائص كل نبي مجيؤه بمعجزة وأمر خارق للعادة وسالم عن المعارضة لحمل الناس على التصديق بما جاء به من وجوب الإيمان وأداء الصلاة والفرائض العبادية الأخرى وطاعة الله والرسول ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(١).

لقد انقضى زمان النبيين ، وليس من نبي أيام نزول القرآن إلا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجاءت الآية بصيغة الجمع مما يدل على وجود عالم الآخرة ، وأن الجنة مثوى الصالحين .

(١) سورة النساء ٦٩.

وليس من نبي أو رسول إلا وجاء بوجوب الصلاة ، لتكون عنوان التقوى التي تذكرها آية البحث بقوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ ومن رحمة الله عز وجل في الدنيا الوعد الكريم باقامة المتقين في الجنان ، والآية خطاب عام للناس ليلحقوا بالمتقين ، ويرغبوا بما عند الله ، فلذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

فمن إعجاز آية البحث الغيري أنها تنذب الناس للإيمان ، وتجذبهم إلى طاعة الله ورسوله ، وهي حجة على الذين يتخلفون في منازل الصدود عن النبوة والتنزيل .

وهل يختص قوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ بعالم الآخرة أم يشمل الحياة الدنيا والعوالم الطولية ، المختار هو الثاني ، قال تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

قانون التباين في العقابة

ابتدأت آية البحث بحرف الإستدراك (لكن) لتلمي على القارئ والسامع استحضار موضوع الآية السابقة لما يفيد هذا الحرف من معنى الإستدراك والتباين بين ما قبلها ، وهو سوء عاقبة الذين كفروا وإقامتهم الدائمة في جهنم ، وبين الثواب العظيم الذي أعدّه الله عز وجل للمؤمنين والمؤمنات الذين عمروا الأرض بذكره والخشية منه تعالى.

وهل عاقبة الناس يوم القيامة من مصاديق رد الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) حينما سألوهم واستفهموا عن خلافة

(١) سورة النحل ٩٦.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الناس في الأرض مع وجود من ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١) أم أن موضوع الآية هو الحياة الدنيا .

الجواب هو الأول ، إذ أخبر الله عز وجل الملائكة بانقطاع خلافة الناس في الأرض ، وأن عالم الجزاء ينتظرهم ، والذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء يخلد في نار جهنم .

والآية الكريمة أبهى وأعظم وأصدق وعد يتلقاه الناس في الحياة ، ولا يناله إلا المتقون .

ومن خصائص هذا الوعد عجز الناس عن إدراك ماهيته ومصاديقه ، وهو أسمى وأكبر من التصور الذهني وعن (ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خلق الله سبحانه جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم قال لها : تكلمي، قالت : قد أفلح المؤمنون ثلاثاً ثم قالت : أنا حرام على كل بخيل ومرائي)^(٢) .

ويعلم الناس حقيقة الدنيا بأنها إلى زوال ، وقد لا يستصحب بعضهم هذه الحقيقة ، فقطعت آية البحث هذه الشبهة وأخبرت عن أمرين :

الأول : خلود المتقين في الجنة ، فليس من موت أو زوال أو هلاك .

الثاني : اتصال إقامة المتقين في الجنة لا يغادرونها ، قال تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لَا

يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ﴾^(٣) .

فلا يعاقب أهل الجنة على السيئات التي صدرت منهم في الدنيا ، ولا يستعتبون ، ولا يطلب منهم الرجوع إلى الدنيا ، لتأكيد ومباشرة عمل الصالحات .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٢٩/٩ .

(٣) سورة الجاثية ٣٥ .

الآية سلاح

لقد رزق الله عز وجل الإنسان مرتبة الخلافة في الأرض إذ خاطب الملائكة وأشهدهم على هذه الخلافة ، وبين لهم الحجة في أهلية الإنسان لهذه الخلافة بتعليم آدم الأسماء للملائكة بفيض من الله .

وهو فرع الخلافة في الأرض ومقدمة لها ، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) .
وأمد الله عز وجل الإنسان بأسباب الخلافة وأعانه عليها ، ومنها بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية ، التي اختتمت بالقرآن كتاباً جامعاً للأحكام وسالماً من التحريف ، والزيادة والنقصان ، قال تعالى ﴿ وَرَزَّكُنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيُوتًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢) .

ومن هذا البيان ذكر آية البحث والآية السابقة لأحوال الناس يوم القيامة وترتب حالهم فيها بلحاظ عملهم في الدنيا .

إذ أن الآخرة دار جزاء وثواب فالذين كفروا خالدين في نار جهنم ، لم ينفعهم متاع الدنيا ، بل صار وبالاً عليهم ، لأنه نعمة تلقوها بالجنود والصدود عن الآيات الكونية والمعجزات النبوية ، وكل فرد منها دعوة للإيمان ، ومنها ترغيب آية البحث بالهداية والصلاح لذكرها حسن العاقبة بالخلود في النعيم ورجاء فضل الله عز وجل .

و(كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك)^(٣) .

(١) سورة البقرة ٣١ .

(٢) سورة النحل ٨٩ .

(٣) النسائي / السنن الكبرى ٤/٤٦٣ .

ومن معاني الآية سلاح جعلها عالم الآخرة حاضراً في الوجود الذهني للسياحة الفكرية في ربوع الجنة وتصور جريان أنهارها والتي ليس لها أوعية إذ أن أنهار الأرض تسير في أخاديد شقتها في الأرض.

أما في الآخرة فإن الأنهار تسير من غير ضفاف وأكتاف تحصر الماء فيه وتمنعه من الفيضان والتسرب ، ومع أن ماء الأنهار في الأرض يساوي نسبة ضئيلة من مجموع المياه في الأرض وتساوي أقل من واحد بالمائة (١٪) من مياه البحار والمحيطات .

فان آيات القرآن التي تخبر عن الجنان لم تذكر البحار أو المحيطات بل ذكرت الأنهار لعذوبة مائها ولجريانها وما فيه من البهاء والطمأنينة بالعيش الكريم.

والمختار أنه ليس في الآخرة بحار ومحيطات أو أنهار جليدية أو مياه جوفية إلا أن يشاء الله ، أو مع سؤال أهلها لله عز وجل .

قانون الآية القرآنية مدد وعون في النشاطين

من خصائص الآية القرآنية أنها مدد وعون للإنسان في هدايته وصلاحه ، ومن هذا المدد الثواب العظيم للمؤمن الذي يعمل الصالحات بالإقامة في النعيم الدائم في الآخرة ، ويسعى الإنسان بالفطرة لجلب النفع لنفسه ، ودفع الضرر عنها ، وليس من نفع أعظم من اللبث الدائم في النعيم ، والبلغة والوسيلة إليه هي تقوى الله عز وجل ، لذا فان آية البحث واقية ، ونجاة من النار التي ذكرتها الآية السابقة جزاء وعقاباً للكافرين الذين جحدوا بالربوبية ، وارتكبوا الفواحش وظلموا أنفسهم ، واتخذوا من كثرة أموالهم وأسفارهم مادة وسبباً لمحاربة النبوة والتنزيل .

وتتضمن آية البحث الخلود في النعيم لأهل التقوى والصلاح ، لبيان التباين بين الدنيا والآخرة ، وأن الدنيا سريعة الزوال .

وتتضمن آية البحث الوعد بالأمن والطمأنينة والرزق الكريم للمؤمنين والمؤمنات في الآخرة لأنهم في ضيافة الله عز وجل لقوله تعالى ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١).

وآية البحث حرب على الكفر والجحود لحصرها الفوز بالنعيم الأخروي بالمتقين ، ومن معاني الجمع بينها وبين الآية السابقة عدم وجود برزخ بين الجنة والنار فاما إلى الجنة وأما إلى النار .
ومن فضل الله عز وجل بيان صفات أهل النار وهم الكفار ، والسمت الحسن لأهل الجنة وهم الذين يخشون الله بالغيب ومن هذه الخشية التصديق بالرسول وأداء الفرائض العبادية .

وهل تنفع الآية القرآنية قارئها في القبر ، الجواب نعم .
(عن أنس مرفوعاً قال : يبعث رجل يوم القيامة لم يترك شيئاً من المعاصي إلا ركبها إلا أنه كان يوحد الله ، ولم يكن يقرأ من القرآن إلا سورة واحدة فيؤمر به إلى النار فطار من جوفه شيء كالشهاب .
فقلت : اللهم إني مما أنزلت على نبيك صلى الله عليه وسلم وكان عبدك هذا يقرؤني ، فما زالت تشفع حتى أدخلته الجنة ، وهي المنجية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢)^(٣)).

مفهوم الآية

تبعث آية البحث الأمل في النفوس ، وتقرب الناس من الإيمان ، وتتضمن الإخبار عن العالم الآخر ، عالم الخلود في الدنيا للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والغني والفقير ، لتكتب الملائكة أعمالهم ، ويحصى الله عز وجل أنفاسهم ونواياهم ورغائبهم التي تبرز للخارج بالقول أو الفعل ،

(١) سورة آل عمران ١٩٨.

(٢) سورة الملك ١.

(٣) الدر المنثور ١٠/٦٤.

وتلك التي تبقى حييسة الصدور ، وهل يحصي الله على الإنسان حسده
لغيره ، الجواب نعم ، وفي التنزيل ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الصدُّورُ﴾^(١).

أما الآخرة فهي عالم الحساب من غير عمل ، ويجتمع الناس بعد
النشور والبعث من القبور في صعيد عام ، ليبدأ التباين والتضاد بين
المؤمنين والذين كفروا من أول مواطن وأهوال الآخرة ، بحال
السكينة والطمأنينة عند المؤمنين ، وحال الفزع والخوف والحسرة
والأسى عند الذين كفروا ، وكأنها مقدمة للفصل بينهم بدخول
المؤمنين الجنة ، ودخول الكافرين النار .

ولم تذكر آية البحث المواطن المتعددة في يوم القيامة كالحوض ، والميزان
، وتطابير الصحف ، وعبور المؤمنين على الصراط ، ولكن مفهوم الآية يدل
عليها ، لأنها ذكرت خاتمة الجزاء بسوق المؤمنين إلى الجنة .

وبعد أن ذكرت الآية السابقة إلتخاذ الذين نار جهنم فراشاً قهراً بدليل
قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾^(٢) تسحبهم الملائكة بغلظة
وسمياً عنيفاً على وجوههم أفواجاً بعد أفواج .

فان قيل ذات كلمة (سيق) وردت أيضاً بخصوص أهل الجنة ، قال تعالى
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٣).

والجواب تدل مضامين هذه الآيات وآيات أخرى على التباين في كيفية
السوق ، وتؤكد السنة النبوية .

(١) سورة غافر ١٩.

(٢) سورة الزمر ٧١.

(٣) سورة الزمر ٧٣.

وذكر الله عز وجل المتقين باحرازهم اجتناب النار كما في قوله تعالى ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى﴾^(١).

وتبين الآية أن دخول المتقين في الجنة ليس عن إستحقاق إنما هو ضيافة ولطف من عند الله ، بدليل قوله تعالى ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو من إعجاز الآية .

وفي التنزيل ﴿وَكُوَيُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ ذَنْبَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢) ، وفيه بعث للسكينة والطمأنينة في نفوس المسلمين لخصوص حالهم في الآخرة ، وليبان أن من معاني قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) ، في الدنيا بخصوص سلامتهم من أهوال يوم القيامة ، وإقامتهم في النعيم الدائم بفضل من الله عز وجل ، وهل من فضل الله عز وجل احتساب الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، الجواب نعم .

وأختتم الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(٤) وفيه ثناء من الله لنفسه لكثرة النعم التي يتفضل بها على المؤمنين في الدنيا والآخرة ، والجنة فرد عظيم منها .

(١) سورة الليل ١٧.

(٢) سورة النحل ٦١.

(٣) سورة البقرة ٢٧٧.

(٤) سورة آل عمران ١٩٨.

إفادات الآية

تبعث آية البحث على التقوى وترغب بالصلاح ، وهو من الإعجاز العقلي الغيري للآية القرآنية ، وحصرت آية البحث النعم الأخروية والخلود بالجنة بالمتقين .

ومن التقوى أداء الإنسان الفرائض العبادية جماعة وبمراى من الناس ، وسراً وخفية وعند الإنفراد والخلوة عن الناس ، كما في الصيام فهو فريضة وواجب على المسلمين والمؤمنين من الأمم السابقة لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

والصيام في الإصطلاح هو الإمساك عن الأكل والشرب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وتأتي على الصائم ساعات من النهار يختلي بنفسه ، لا يعلم بما يفعل إلا الله عز وجل ، ومع هذا يتقيد بأحكام الصوم ، وهو من مصاديق تقوى الله ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٢).

و(عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل ، جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلا الصوم ، والصوم لي وأنا أجزي به . وللصائم فرحتان : فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ، ولخلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)^(٣).

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(٢) سورة الملك ١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٦٩١/١ .

ومن تقوى الله إقامة الصلاة التي هي عمود الدين ، وقوام صلاح المجتمعات وواقية من المعاصي ، وسبب للعفو ومغفرة الذنوب ، ومنها اخراج الزكاة والصدقات المستحقة قربة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعن عبد الله بن مسعود (أن رجلاً تصدق بناقاة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقاة ، كلها مخطومة)^(١).

ومن خصائص آية البحث أنها وسيلة سماوية لارتقاء المسلمين في مراتب التقوى والصلاح ، والتسابق في الخيرات والمبادرة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإنصات له .

الآية لطف

من خصائص الإنسان حبه للحياة في نفسه وبقاء ذات الوجود بالذرية من البنين والبنات ، ويسعى لإطالة عمره ، والوقاية من الأمراض وعلاجها بما يطيل أيامه في الدنيا ، ولو في مشقة وتعب .

فنزلت آية البحث بأمرين :

الأول : الخلود .

الثاني : النعيم الدائم .

ولا يجتمعان إلا في الجنة التي أعدها الله للمتقين .

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (لما أسرى بي إلى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها قيعان تفق ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة وربما امسكوا فقلت لهم مالكم ربما بنيتم وربما امسكتم).

(١) الدر المنثور ١٧٩/٢ .

فقالوا حتى تجيئنا النفقة فقلت وما نفقتكم فقالوا قول المؤمن في الدنيا سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإذا قال بنينا وإذا أمسك أمسكنا^(١).

ليان أن الإكثار من التسبيح والذكر طريق للإقامة في الجنة ، وما من إنسان إلا وعنده مندوحة وسعة للتسبيح .

وتبين الآية قانوناً وهو انفراد الجنة بنعم لا يقدر على إحصائها الإنسان فهي أعم من أن يحيط بها عالم التصور منها جريان الأنهار من غير أوعية ومن تحت قصور الجنة ، من دون أن تضرب تلك القصور التي هي قائمة من غير أسس .

ومن اللطف الإلهي في آية البحث الوعد الكريم في خاتمة الآية بقوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(٢) ، لبيان انتفاع المؤمن من فضل الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، وهو الذي يهديه لسبل البر والصلاح .

وهل تشمل خاتمة الآية عالم البرزخ ، الجواب نعم ، فمن الخير الذي أعدّه الله للمؤمنين النجاة من عذاب القبر ، ومساءلة منكر ونكير .

الآية بشارة

آية البحث بشارة محضة ، وسبيل نجاة وعز للمؤمنين ، ومضامين الآية أعظم بشارة في تاريخ الإنسانية خصّ الله عز وجل بها المتقين من الأولين والآخرين ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

(١) تفسير القمي ٢٢/٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٨ .

(٣) سورة الحجرات ١٣ .

وقد جاءت آيات أخرى بوصف الجنائن منها ذكر مساحتها التي لا يستطيع الناس قياسها بقوله تعالى ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وجاءت آية تصف أهل الجنة الذين يتلقون البشارة من الملائكة يوم القيامة بأنهم المؤمنون الذين استقاموا بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢).

لتأتي السنة بالتخفيف في القدر المتيقن من الإستقامة والثبات عليها ، إذ ورد (عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾^(٣) قال : من مات عليها ، فهو ممن استقام)^(٤).
ويحتمل نزول الملائكة في الآية أعلاه وجوهاً :

الأول : في الحياة الدنيا .

الثاني : عند الإحتضار .

الثالث : عند الموت ودخول القبر ، ويأتي منكر ونكير بالبشارة للمؤمن في قبره ، أو يأتي ملائكة أخرى يختصون بنقل هذه البشارة .

الرابع : عند البعث من القبور .

الخامس : التباين والتعدد بحسب مراتب الإيمان والتقوى والصلاح فمنهم من تبشره الملائكة من ساعة الإحتضار وتكرر البشارة ، ومنهم في المواطن اللاحقة .

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) سورة فصلت ٣٠.

(٣) سورة فصلت ٣٠.

(٤) الثعلبي / الكشف والبيان ١٨/١٢ .

السادس : تعدد نزول الملائكة على المؤمن من ساعة الإحتضار إلى أن يدخل الجنة ويؤنسون وحشته في القبر ، ويدفعون عنه مساءلة رومان فتان القبور ومنكر ونكير ، ويحضرون عند البعث من القبور ، وساعة النشور ، وعند الميزان وإعانتهم له في العبور على الصراط وإلى أن يدخل الجنة وهو من مصاديق ما ورد في التنزيل حكاية عن الملائكة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(١).

فان قلت إن الدنيا دار امتحان واختبار فلا ينزل الملائكة على المؤمنين ، ولم نر هذا النزول ، إنما نزل الملائكة بالوحي على الأنبياء ، والجواب تدل الآية أعلاه على نزول الملائكة على المؤمنين في الدنيا باخبارهم عن ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة .

ويذكر الملائكة المؤمنين يوم القيامة بولايتهم في الدنيا بهدايتهم إلى سبل الصلاح ، وصرفهم عن السيئات ، ودفع المكاره عنهم ، قال تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٢).

كما أخبر القرآن عن نزول الملائكة يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

رومان فتان القبور

رومان اسم ملك يدخل القبر وتعود معه الروح إلى جسد الميت ، ويسبق دخوله حضور ومساءلة منكر ونكير و(عن عبد الله بن سلام أنه قال: سألت رسول الله عن أول ملك يدخل في القبر على الميت قبل منكر ونكير،

(١) سورة فصلت ٣١.

(٢) سورة الرعد ١١.

قال صلى الله عليه وآله: يا ابن سلام يدخل على الميت ملك قبل أن يدخل نكير ومنكر يتلأأ وجهه كالشمس اسمه (رومان) فيدخل على الميت، فيدخل روحه ثم يقعه فيقول له : اكتب ما عملت من حسنة وسيئة. فيقول : بأن شئ أكتب.

أين قلبي ؟

وأين دواتي ؟

فيقول: قلمك إصبعك، ومدادك ريقك، اكتب. فيقول: على أي شئ أكتبه وليس معي صحيفة.

قال: فيمزق قطعة من كفنه فيقول: اكتب فيها، فيكتب ما عمل في الدنيا من حسنة، فإذا بلغ سيئة استحي منه، فيقول له الملك: يا خاطئ أفلا كنت تستحي من خالقك حيث عملتها في الدنيا والآن تستحي مني. فيكتب فيها جميع حسناته وسيئاته ، ثم يأمره أن يطويه ويختمه، فيقول: بأي شئ أختمه وليس معي خاتم.

فيقول : اختمها بظفرك، ويعلقها في عنقه إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى ﴿وَكُلِّإِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(١) ثم يدخل بعد ذلك منكر ونكير^(٢).

وفي دعاء الإمام علي بن الحسين عليه السلام على حملة العرش ذكر رومان وصفته إذ قال : وملك الموت وأعوانه ، ونكر ونكير ، ومبشر وبشير ، ورومان فتان القبور).

و(قد روى عن ابن مسعود : أنه قال يا رسول الله : ما أول ما يلقي الميت إذا دخل قبره.

: يا ابن مسعود ما سألني عنه أحد إلا أنت فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول : يا عبد الله اكتب عملك فيقول : ليس

(١) سورة الإسراء ١٣.

(٢) البحار ٥٦/٢٣٤.

معي دواة ولا قرطاس فيقول : هيهات كفنك قرطاسك ومدادك ريقك وقلمك إصبعك فيقطع له قطعة من كفنه ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب في الدنيا فيذكر حيثئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد ثم يطوى الملك القطعة ويعلقها في عنقه^(١).

تعقب منكر ونكير

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى ﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(٢) أي : عمله فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر وهما ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنيابهما لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض كلامها كالرعد القاصف وأعينهما كالبراق الخاطف ونفسهما كالريح العاصف بيد كل واحد منهما مقمع من حديد لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكا .

فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة فتدخل في منخر الميت . فيحيا الميت من الصدر ويكون كهياتة عند الغرغرة ولا يقدر على حراك غير أنمه يسمع وينظر قال : فيقعدانه فيبتدئانه بعنف ويتهرانه بجفاء وقد صار التراب له كالماء حيثما تحرك انفسح فيه ووجد فرجة فيقولان له : من ربك . وما دينك ، ومن نبيك ، وما قبلتك ؟ فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال : ومن وكلكما علي ؟ ومن أرسلكما إلي ؟ وهذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار فيقول أحدهما للآخر : صدق كفي سرنا ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة .

ويفتحان له بابا إلى الجنة من تلقاء يمينه ثم يفرشان له من حريرها وريحانها ويدخل عليه من نسيما وروحها وريحانها ويأتيه عمله في صورة أحب الأشخاص إليه يؤنسه ويحدثه ويملا قبره نورا ولا يزال في فرح وسرور

(١) القرطبي / التذكرة ١٤٠/١ .

(٢) سورة الإسراء ١٣ .

ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة و يسأل : متى تقوم الساعة ؟ فليس شيء أحب إليه من قيامها^(١).

وبيّن تعدد مجيئ الملائكة للميت في قبره أهوال عالم القبر ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٢) ، كما يتجلى التمايز والفصل الفعلي بين المؤمن والكافر في القبر بلحاظ أسئلة الملائكة للميت وأجوبته عليها .

وهل يعلم ملك الموت حال الميت عند قبض روحه هل هو مؤمن أو كافر .

الجواب نعم ، لموضوعية الإيمان في تخفيف سكرات الموت ، ووطأة شدة قبض الروح .

وحينما يدخل رومان ومنكر ونكير القبر هل يعلمون حال الميت ، وهل هو من أهل الإيمان أو لا ، أم لا يعلمانه إلا بعد عودة الروح إلى جسده وسؤاله .

المختار هو الأول ، ليكون سؤالهم وجواب الكافر حجة عليه ، ومقدمة لنزول عذاب القبر به .

الآية إنذار

ابتدأت آية البحث بحرف الإستدراك (لكن) لتذكير المسلمين وعامة الناس بمضامين الآية السابقة وما فيها من إقامة الذين كفروا في النار ، وإتخاذها مهاداً وفرشاً قهراً وانطباقاً وانعدام المهلة أو الفترة أو الإستراحة فيها .

ليكون في حرف الإستدراك هذا تكرار للإنذار والوعيد الذي تضمنته الآية السابقة ، لتأتي آية البحث بأعظم بشارة في الدنيا ، وهي خاصة

(١) القرطبي / التذكرة ١/ ١٤٠ .

(٢) سورة القيامة ٣٦ .

للمتقين لتكون إنذاراً للذين كفروا ، ودعوة لهم للتوبة والإنابة لقانون اجتماع الدعوة للإيمان مع الإنذار في القرآن .

ومن معاني ذكر (المتقين) على نحو الخصوص في الدنيا حجب البشارة بالجنة عن الذي يقف عند النطق بالشهادتين ويعمل الموبقات ، وهو من الإعجاز في التخصيص بالآية الكريمة ، لتدعو آية البحث الإنسان للهداية والإيمان ثم الرشاد والصلاح.

وتبعث الآية الأسى والحزن في قلب الكافر لحرمانه نفسه من البشارة بالجنة ومن دخولها .

لتدل آية البحث في مفهومها على إنذار الذين كفروا من وجوه :
الأول : قانون قبح اختيار الكفر .

الثاني : بعث الفرقة والنفرة بين الذين كفروا ، إذ تجعل آية البحث بعضهم يسخط على بعض ، ويكون هذا السخط مقدمة لتبرء كل فريق منهم من الآخر ، سواء بين الرؤساء أو الرؤوسين ، أو بين التابعين والمتبوعين ، ويوم القيامة بعد أن يشهد الكافرون على أنفسهم بالكفر والضلالة يقول الله عز وجل لهم ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ دَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتَّهَمُوا عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

الثالث : تخلف الذين كفروا عن بلوغ النعم الأخروية سبب لبعث الحسرة في نفوسهم في الحياة الدنيا .

الصلة بين أول وآخر الآية

ابتدأت الآية بحرف الإستدراك (لكن) للإخبار عن قانون التباين والتضاد بين حال الذين كفروا وحال المؤمنين في الآخرة ، وقانون انتفاء الوسط بين دخول الجنة ودخول النار ، قال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(١).

فليس من فريق ثالث ليكون كل إنسان بالخيار في تعيين مكانه في الآخرة ، ومن بديع صنع الله عز وجل أن هذا الخيار الأخروي يكون من الدنيا ، لأنها مزرعة الآخرة .

فاخبرت الآية السابقة بأن الذين كفروا وأكثروا الأسفار وجمع الأموال ومع تسخيرها في محاربة النبوة والتنزيل بأن إقامتهم الدائمة في نار جهنم . وابتدأت آية البحث بالإشارة إلى الآية السابقة والتباين الموضوعي في الحكم بقوله تعالى (لكن) ثم ذكرت الذين يخشون الله عز وجل بالغيب بسلامتهم من المصير الذي يؤولون إليه والذي يتصف بشدة العذاب الذي ليس فيه فترة أو تخفيف ، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

وأظهرت آية البحث جزاء التقوى والصلاح بدخول الجنة ، وبينما ذكرت الآية السابقة النار بصيغة المفرد ذكرت آية البحث الجنات بصيغة الجمع ، ومن الدلائل فيه كثرة الذين يدخلون الجنان . وهل يختص دخولها بالمتقين ، الجواب لا ، إنما تشمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين يدخلونها بالشفاعة .

ومع قلة كلمات الآية فقد ذكرت المتقين والبشارة والوعد الكريم لهم بالإقامة الدائمة في جنات الخلد ، واختتمت بذكر الأبرار لبيان أن الله عز

(١) سورة الحشر ٢٠.

(٢) سورة البقرة ٥٧.

وجل أعدّ لهم الجنات وزيادة وهم الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا الطاعة لله عز وجل وعصموا أنفسهم عن المعاصي ، وضد الأبرار الفجار الذين تكون النار فراشاً وغطاء ودثاراً لهم .

و(عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله ﴿وَكَا يَشْفَعُونَ لِلْإِمْنِ ارْتَضَى﴾^(١) فقال : إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)^(٢).

وفيه وجوه :

الأول : صيرورة أهل الكبائر من المتقين ببركة شفاععة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : الحاق أهل الكبائر بالمتقين واصلاحهم لمرتبة التقوى ، لأن الجنة لا يدخلها إلا المتقون .

الثالث : موضوعية الشفاععة بتبدل صفة الإنسان إلى ما هو خير .

الرابع : الذين يدخلون الجنة أعم من المتقين ، ومنهم التوابون . والمختار هو الأخير ، وقد ذكرت آيات قرآنية صفات لأهل الجنة ، لكنها لا تخرج عن مصاديق التقوى ، كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٣).

والتائبون في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ ذَلِكَ يُدْخِلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا^(٤).

(١) سورة الأنبياء ٢٨.

(٢) الدر المنثور ٥٦/٧.

(٣) سورة النساء ١٣.

(٤) سورة مريم ٦٠-٦١.

ومن أحبه الله لا يدخله النار ، وقد ورد لفظ (التائبون) بصيغة الرفع مرة واحدة في القرآن بقوله تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وبصيغة النصب مرة واحدة في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُسْتَطِيرِينَ﴾^(٢).

وكل منهما في الثناء على التوابين وبعث السكينة في نفوسهم. وهل التوابون من أهل الكبائر ، الذين ورد ذكرهم في الحديث النبوي أعلاه ، الجواب لا .

وقد يستصحب الإنسان قصر حياته في الدنيا ، ويظن انقطاع الآخرة وعدم استدامة الإقامة في الجنة فأخبرت آية البحث عن الخلود في الجنات ، لتكون نعمة الجنة على وجوه :

الأول : الدخول في الجنة ، وسوق الملائكة المؤمنين إليها .

الثاني : الإقامة في الجنة .

الثالث : تعدد كثرة النعم التي في الجنة ، مما يعجز الإنسان عن تصورها .

الرابع : الخلود في الجنة ، واللبث الدائم فيها ، قال تعالى ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا

بُخْرَجِينَ﴾^(٣).

وتقدير الآية : فلا يخافون الخروج من الجنة لأن لبثهم فيها دائم وإقامتهم فيها خالدة .

وان قيل قد سكنها آدم وحواء وأخرجنا منها ، والجواب من وجوه :

(١) سورة التوبة ١١٢.

(٢) سورة البقرة ٢٢٢.

(٣) سورة الحجر ٤٨.

الأول : لم يدخل آدم وحواء الجنة إنما خلقا فيها ليعمرا الأرض بالخلافة والتقوى .

الثاني : الخلود في الجنة ثواب على الإيمان وعمل الصالحات في الدنيا ، وأيام الخلافة في الأرض .

ويتجلى قانون من يدخل الجنة ثواباً يكون خالداً فيها ولا يخرج منها أبداً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) .
فمن الخوف الذي نجى الله المؤمنين منه الخوف من إنقضاء أيامهم في الجنة ، والخروج منها .

الثالث : يدخل رضوان خازن الجنة إليها ويخرج منها وكذا عدد من الملائكة الذين يقومون بوظائف في الجنة .

الرابع : كان إبليس يسكن الجنة ، ويظن الملائكة أنه منهم ، وصلى ركعتين بأربعة آلاف سنة ، ومع هذا أخرج منها ، للدلالة أن الجنة التي لا يخرج منها أهلها هي جنة الثواب والتي يكون فيها المؤمنون ضيوفاً بفضل الله عز وجل كما في قوله تعالى في آية البحث ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٢) .

ولم تقل الآية (نزلاً عند الله) إنما قالت ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأن الله عز وجل مالك كل شئ ، والضيف ومادة الضيافة ملك له وحده ، وفي التنزيل ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٣) .

واختتمت الآية بالوعد الكريم للأبرار الصادقين في بيانهم والذين اجتهدوا في طاعته ، وامتنعوا عن معصيته .

ترى ما هي النسبة بين الإقامة في الجنة وبين خاتمة الآية بأن ما عند الله خير للأبرار .

(١) سورة يونس ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٨ .

(٣) سورة غافر ١٦ .

المختار هو العموم والخصوص المطلق ، إذ تتضمن خاتمة الآية البشارة بأن فضل الله عز وجل على المؤمنين المطيعين لله عز وجل يشمل توالي النعم ، واختتامها بالإقامة في جنة الخلد .

وابتدأت الآية بالأنعام من الله على الذين اتقوا ربهم ، واختتمت بذكر نعم الله عز وجل على الأبرار .

ترى ما هي النسبة بين المتقين والأبرار ، المختار هو العموم والخصوص المطلق وأن الأبرار أخص من المتقين ، وهو ظاهر نظم آية البحث .

ابتدأت آية البحث بحرف الإستدراك (لكم) لبيان اتصال وتضاد موضوع وحكم آية بالآية السابقة إذ أخبرت الآية السابقة عن العذاب الأليم الذي ينتظر الذين كفروا بالخلود في نار جهنم ، وصيرورتها فراشاً ومهاداً لهم.

دلالة صيغة الجمع (جنات)

من مصاديق ورود لفظ الجنات بصيغة الجمع في آية البحث وآيات أخرى تعدد صفات الحسنی للذين يدخلون الجنة ، ففي بداية سورة المؤمنين ذكرت صفات متعددة لأهل الجنة وهي :

الأولى : المؤمنين .

الثانية : الخاشعون في صلاتهم .

الثالثة : الذين يعرضون عن اللغو .

الرابعة : الذين يؤدون الزكاة .

الخامسة : الذين يحفظون فروجهم إلا على ما أحل الله عز وجل .

السادسة : الذين يحفظون الأمانة والعهد والميثاق .

السابعة : الذين يتعاهدون الصلاة في أوقاتها .

وقال الله تعالى في الثناء عليهم والوعد الكريم لهم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ

* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

ولقد بشر الله عز وجل الصادقين في قولهم وعملهم ومقاصدهم في طاعة الله بالخلود في الجنات كما ورد في التنزيل ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

وهل تدل صيغة الجمع (جنات) على إمكان انتقال المؤمن من جنة إلى أخرى سكناً أو زيادة لأهل الجنة الأخرى ، أو إطلاعاً وسياحة فيها ، الجواب نعم .

من غايات الآية

وفيه مسائل :

الأولى : بيان الاختلاف والتضاد بين المتقين والذين كفروا في الآخرة .

الثانية : تأكيد قانون الآخرة دار الحساب والجزاء .

الثالثة : قانون تقوى الله والخشية منه حاجة للفرد والجماعة .

الرابعة : بيان فضل الله عز وجل في رسالة النبي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم ونزول آيات القرآن بالفصل والتمييز بين المؤمنين والكافرين .

الخامسة : قانون الثناء على المتقين ودلالة هذا الثناء على حب الله عز

وجل لهم .

السادسة : الوعد الكريم من الله عز وجل للمتقين بالإقامة في الجنان .

السابعة : لقد جعل الله عز وجل نعمة الجنة مما لا يقدر الإنسان على

عدها وإحصائها ، وذكرت آية البحث صفة منها وهي جريان الأنهار من

تحت القصور طيلة مكوث المتقين في الجنة إلى ما لا نهاية .

وهل هذه الأنهار التي في الجنة هي نفسها الأنهار التي في الأرض أيام

الحياة الدنيا .

وقد ورد في حديث الإسراء أن النبي رأى أربعة أنهار إذ قال (وإذا أربعة أنهار يخرج من أصلها : نهران باطنان : ونهران ظاهران ، فقلت : يا جبريل ، ما هذه الأنهار ، فقال : أما الباطنان ، فنهران في الجنة . وأما الظاهران فالنيل والفرات)^(١).

وأنهار الجنة أعم وأكثر من هذه الأنهار .
والمختار أن النسبة بين ماء أنهار الجنة وأنهار الدنيا عموم وخصوص مطلق ، فأنهار الجنة أكثر سعة وماء ودواماً ، ولا يتبخر أو ينضب ماؤها .
الثامنة : خلود المتقين في جنات النعيم ، إذ أن قوله تعالى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ، يجمع أموراً :

الأول : دخول المؤمنين الجنة .

الثاني : لبث المؤمنين الدائم في الجنة ، فليس من موت أو فناء بعده .
الثالث : دخول المؤمنين الجنة ثواباً وجزاء لهم من عند الله عز وجل ، ويدل قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) ، على أن السوق إلى الجنة والإقامة الدائمة فيها ثواب وجزاء وفضل من عند الله عز وجل .

التاسعة : بشارة آية البحث بأن المتقين ضيوف عند مقام الربوبية مما يدل على إكرامهم غاية الإكرام ، ويسمى وفد الحاج كل سنة ضيوف الرحمن لبيان أنهم يقدمون على رب البيت ، وليس على ذات البيت ، لذا تكون التلبية في الحج واجباً ، ويستحب الإكثار منها ، لتكون شاهداً على التقوى ، ونوع طريق للنجاة في الآخرة .

العاشرة : اختتام آية البحث بالوعد العظيم بما أعدّه الله عز وجل للأبرار في عالم الآخرة ، والسلامة من الحزن عند الدخول في القبر ومنه

(١) الدر المنثور ٦/ ١٩٢ .

(٢) سورة الأحقاف ١٤ .

كثرة النعم التي يعجز الناس في التصور الذهني عن إدراكها ، إذ قال ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾

ابتدأت آية البحث بحرف الإستدراك (لكن) الذي لا عمل له وكسرت نونه لإلتقاء الساكنين .

ومن معاني ابتداء آية البحث بحرف الإستدراك (لكن) بعثه الأمل في نفوس المسلمين ، ودفع اليأس والقنوط عنهم ، لأن الإفتتان بالذين كفروا وأموالهم فتنة في الدين والسلوك ، فانتقلت آية البحث إلى السياحة في عالم الجنان وما أعد الله عز وجل للذين يخشونه من النعيم الدائم كيلا يلتفت المسلم بما عند الذين كفروا من النعم التي أخبرت آية السياق بأنها متزلزلة وسريعة الزوال .

لقد ذكرت الآيتان السابقتان الذين كفروا بالذم والوعيد مع كثرة أموالهم من غير خشية منهم على التعدي على النبوة والتنزيل ، وصيرورتهم في حال غضب وغيظ لأن الله عز وجل يكفي النبي محمداً شرورهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢).

ترى لماذا تعقب الثناء على المتقين في آية البحث ذم الذين كفروا في الآية السابقة ، الجواب من جهات :

(١) سورة السجدة ١٧.

(٢) سورة الزمر ٣٦ .

الأولى : بيان حب الله عز وجل للمؤمنين وسخطه على الذين كفروا ،
وفي التنزيل ﴿ أَفَنُؤْتِي رِضْوَانًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا فَيُخْشِعُوا بِحُكْمِ اللَّهِ وَيَتَّقُوهُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ﴾ (١) (٢).

الثانية : الترغيب بتقوى الله .

أصل التقوى الوقاية والإحتراز بطاعة الله للأمن والسلامة من عقوبته وعذابه .

ومن التقوى إكرام النفس بصيانتها من أسباب العذاب ، ليكون جزاء
تقوى الله الخلود في النعيم ، قال تعالى ﴿ إِنِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴾ (٣).

الثالثة : يبين قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ سلامة المؤمنين من الشرك ،
لدلالة الآية على أنهم ليس لهم رب إلا الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

بيان قانون الملازمة بين تقوى الله وبين الخلود في الجنان.
لم تذكر الآية أن هذه الجنات في الآخرة ، ولكن الدلالة عليه من وجوه :
الأول : خلو الدنيا من جنات فيها أنهار تجري ، إنما في الدنيا يجري الماء
في الأنهار ، والأنهار أوعية يجري فيها الماء من المنبع إلى المصب .

الثاني : الشواهد القرآنية في ترتب دخول الجنة على الإيمان والعمل
الصالح ، وأنها وعد من عند الله ، قال تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

(١) سورة آل عمران ١٦٢.

(٢) أنظر الجزء ١٤٨ من هذا السفر والذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٣) سورة الحجر ٤٥.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا دَانَتْمْ وَظَلَّتْهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿١﴾.

الثالث : ذكر الجنات كثواب وجزاء على الإيمان والعمل الصالح واختصاص المؤمنين بالفوز بها ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْسَى لَهُمْ﴾ (٢).

قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾

لقد جعل الله عز وجل الآخرة دار الجزاء ، ليفوز المؤمنون الذين يعملون الصالحات باللبث الدائم في الجنة ، وهذا اللبث والخلود نعمة وفضل من الله ، فلا فناء ولا خروج من جنة الآخرة ، جنة الثواب والجزاء على الإيمان والعمل الصالح ، وتحتل نعم الجنة من حيث الكم والكيف مع تقادم الزمان وجوهاً :

الأول : تزايد وتكاثر نعم الجنة .

الثاني : النقص والإنتقاص في نعم الجنة .

الثالث : التساوي في نعم الجنة في كل أوان امتداد من الجنة ، إذ ليس فيها ليل أو نهار ، ولا شمس أو قمر ، إنما هو نور ويعرف مقدار الليل بارخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرف مقدار أوان النهار برفع الحجب وفتح الأبواب ، قال تعالى ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٣).

(١) سورة الرعد ٣٥.

(٢) سورة محمد ١٢.

(٣) سورة مريم ٦٢.

والمختار هو الثالث ، وهو من فضل الله ، ولييان أن نعيم الجنة متجدد ، وذات قانون نعم الجنة لا تفتنى أبداً ، قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(١).

ومن معاني الخلود في الجنة انتفاء الملل والسامة فيها ، ومن إعجاز نظم الآية تقديم جريان الأنهار من تحت الجنان قبل ذكر الخلود في الجنة ، لبيان أنه خلود في نعيم ، ومنه قانون إنعدام الفترة في نعيم الجنة . فمن معاني الخلود في المقام إتصال نعم الجنة ، وجاء ذكر جريان الأنهار للدلالة على اتصال النعم والثمرات ، والطيبات في الجنة .

وعن الحسن البصري وأبي قلابة قالوا قال رجل (يا رسول الله هل في الجنة من ليل ، قال : وما هي بك على هذا ؟ قال : سمعت الله تعالى يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٢) فقلت : الليل بين البكرة والعشي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة)^(٣).

قوله تعالى ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

لييان أن دخول الذين اتقوا الله عز وجل الجنة بضيافة وكرم ولطف من عند الله ، وليس عن إستحقاق ، لبيان أن إقامتهم في الجنة هبة ونعمة وضيافة من عند الله ، والمتسالم أن الضيف لا يدفع شيئاً للمضيف ، إنما الضيافة كرم وأمر حسن وممدوح عند أجيال الناس على اختلاف المشارب والمذاهب .

(١) سورة الحجر ٢١.

(٢) سورة مريم ٦٢.

(٣) تفسير القرطبي ١١/١١٦.

ليكون من معاني الآية نيل النعم العظيمة في الجنة لأنها ضيافة من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾^(١).

نعم ورد في القرآن ما يدل على أن هذه الضيافة بسبب الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) أي أن دخول الجنة ليس جزاء فقط بل زيادة من فضل الله عز وجل رهبة منه سبحانه ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾^(٣).

تري لماذا ورد حرف (من) في الآية ولم تقل الآية (نزلاً عند الله).
الجواب لبيان أن الضيافة بمشيئة وبأمر من عند الله ، فالضيافة أمر صادر من عند الله ، والناس في الدنيا والآخرة في ضيافة الله ، لذا يسمى وفد الحاج (ضيوف الرحمن).

سؤال الوفاة مع الأبرار

تبعث آيات القرآن على تفقه المسلمين في الدين ، ليكون من منافع تلاوة المسلمين والمسلمات القرآن في الصلاة اليومية الإرتقاء في سلم الفقه لقانون الصلاة اليومية مدرسة فقاها ، قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ﴾^(٤).

ومن إعجاز آيات القرآن تذكيرها بالموت وعالم الحساب بعد الموت ، وحاجة الإنسان مطلقاً ، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن إلى الإستغفار

(١) سورة الكهف ١٠٧.

(٢) سورة السجدة ١٩.

(٣) سورة فصلت ٣٢.

(٤) سورة المطففين ١٨.

والدعاء ، وإن كان دعاء الكافرين مردوداً لوجوب الإيمان كشرط في قبوله والإستجابة له ، قال تعالى ﴿فَادْعُوا مَدْعَاءَ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١).

ولابد من الإحصاء في المقام من وجوه :

الأول : إحصاء وجمع الآيات التي ذكر فيها الموت .

الثاني : إحصاء الآيات التي تخص عالم البرزخ والقبور .

الثالث : إحصاء آيات الوعد والوعيد .

وهذا الإحصاء ليس مجرداً بذاته ، إنما يشمل دراسة هذه الآيات ، واستقراء المسائل والقوانين منها مجمعة ومتفرقة ، ومن الصلة بينها وبين آيات القرآن الأخرى .

وقال الواحدي (﴿وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرارِ﴾^(٢) يعني : الأنبياء ، أي : في جملتهم حتى نصير معهم)^(٣).

والنسبة بين الأبرار والأنبياء هي العموم والخصوص المطلق ، فالأبرار أعم ويشمل هذا العنوان المؤمنين الأخيار الذين أطاعوا الله ورسوله . وهل في قوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ﴾^(٤) إشارة إلى عالم البرزخ ، أم أن القدر المتيقن منها الإقامة في الجنة .

المختار هو الأول إذ أن الله عز وجل يعطي بالآتم والأوفى والأعم . وهل تسمية سورة الملك (المنجية) وأنها تنجي من عذاب القبر كما ورد في الحديث النبوي من مصاديق خاتمة آية البحث ، الجواب نعم .

(١) سورة غافر ٥٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٣.

(٣) الواحدي / الوجيز ١/١١٤.

(٤) سورة آل عمران ١٩٨.

هلاک أبرهة وجنوده مقدمة لبعثة النبي محمد (ص)

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي سَفَلٍ...﴾ (١).

لقد ولد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عام الفيل وبعد الواقعة بشهرين ، وهل كان القضاء على أبرهة وأصحابه نصراً من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم .
ليان نعمة الله عز وجل على الناس بحفظ البيت الحرام لأن أبرهة كان يقصد هدمه ولسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في بطن أمه ، فلو دخلوا مكة لاستباحوها وقتلوا الرجال وبقروا بطون الحوامل ، وشاء الله عز وجل أن يحفظ النبي محمداً حملاً وفي أيام الصبا ، وفي دعوته في مكة وهو نبي ثلاث عشرة سنة ثم سلامته ليلة الهجرة عندما عزم مشركو قريش على قتله في فراشه في معارك الإسلام ، بدر ، وأحد ، والخندق ، وحين خاصة وأن من خصائصه عدم مغادرته لمكانه في الميدان ، وسلامته من محاولات الإغتيال المتعددة .

وسورة الفيل مكية ، وتتصف هذه السور بالقصر ، ولغة الإنذار والوعيد ، ومن معاني قصر هذه السور وقلة كلمات الآية الواحدة منها مخاطبة العقول ، وصيرورة زوار مكة والمعتمرين ووفد الحاج رسلاً إلى قومهم لتبليغهم بنزول القرآن والتدبر في مضامينه ، وكيف أنه فوق كلام البشر .

وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ على وجوه :

الأول : أي الم تعلم .

الثاني : ألم تسمع .

الثالث : ألم تر آثار ما فعل ربك بأصحاب الفيل .

ويصح الجمع بين هذه الوجوه ولييان أن تواتر بعض أخبار الوقائع حق وصدق ، وجاء التنزيل لتأكيدھا ، والخطاب في الآية خاص للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتقديره : ألم تر يا رسول الله ، ولكن حكمه عام وهو شامل لأجيال المسلمين والناس جميعاً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ...﴾^(١) ، ومن إعجاز القرآن قانون صيرورة الوقائع بآيات القرآن حقاً وصدقاً .

لقد بنى أبرهة في اليمن صرحاً وسماء القليس ليحج له العرب بدل البيت الحرام ، فأحدث وبال فيه رجل من كنانة فعزم أبرهة على هدم البيت الحرام وسار بجيوشه ، وكان دليله أبو رغال الذي مات في الطريق إلى مكة في موضع يسمى المغمس ، فصارت العرب ترحم قبره ، ورمى الله عز وجل أبرهة وجنوده بطيور كثيرة يتبع بعضها بعضاً على نحو الجماعات ، وهي صغيرة دون الحمام ومع كل طائر ثلاثة أحجار .

لينجو البيت الحرام من الهدم ، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل مكة من القتل ، وفيه دعوة لهم للإيمان عندما يبعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، وأطرح مسألة مستحدثة في علم التفسير وهي هل من صلة بين قوله تعالى ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^(٢) ، وبين هلاك أبرهة وجنوده ، ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم ، بتقدير أن رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت لتبقى إلى يوم القيامة ويأمن من الظلمة ، وهذا البقاء برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعاهد أمته للبيت ، وأداء مناسك الحج والعمرة ، وسواء على نحو الوجوب كوجوب حجة الإسلام أو الإستحباب.

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة البقرة ١٢٧.

ولتدخل اليمن في الإسلام ولم يبق من القليس إلا حفرة كبيرة مسورة
وبضع شجيرات ، وهي اليوم مكب للنفايات .

قانون الملازمة بين الصلاة وعمارة الأرض

قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١).

وفيه شاهد على قانون الملازمة بين الإيمان والصلاة ، ولما كان آدم أبو
البشر نبياً رسولاً ، فيتجلى قانون ملازمة الصلاة لعمارة الأرض ، فقد
تعاهد آدم وحواء الصلاة وجعلها تركة للأبناء.

ليتوارث المؤمنون الصلاة فقوله تعالى ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أعلاه أي
أن الصلاة واجب على المؤمنين والمؤمنات في كل زمان من أيام أبينا آدم .
وقد جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتعاهد الصلاة وضبط
كيفيتها وقال (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(٢).

ولم يترك الصلاة يوماً إلى حين مغادرته إلى الرفيق الأعلى وكان يصلي
في كل حال وفي المسجد والسفر وعلى الراحلة ، ومنه صلاة الخوف .
ومن إعجاز القرآن نزول شطر من آية ثم نزول شطر آخر منها كما في
قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾^(٣).

فقد نزل الشطر الأول من الآية جواباً لسؤال قوم من التجار للنبي محمد
صلى الله عليه وآله وسلم عن كيفية صلاتهم حال السفر ، أما الشطر الثاني
من الآية ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا
مُبِينًا﴾^(٤).

(١) سورة النساء ١٠٣.

(٢) تفسير الخازن ١٦٤/٢ .

(٣) سورة النساء ١٠١.

(٤) سورة النساء ١٠١.

فتزل في كتيبة عسفان في شهر جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، وفيه مسائل :

الأولى : صلاة الخوف أقصر من صلاة القصر .

الثانية : صلاة القصر تشريع يلزم المسلم في سفره في حال الأمن أو الخوف ، السعة أو الضيق ، وهو هبة ورحمة من الله عز وجل لما في السفر من المشاق ، أما صلاة الخوف فلا تؤدي إلا عند الخوف والخشية من العدو أو من السباع ونحوها .

ومن خصائص الأرض وخلافة الإنسان فيها شهادة كل بقعة منها يوم القيامة لمن صلى عليها .

الثالثة : صلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند فتح مكة لمدة تسعة عشر يوماً قصراً ، منها عشرة أيام من رمضان أفطروا فيها .

وعن أنس قال (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة).

وعن عمران بن حصين ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في السفر إلا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال : أتموا فإنما قوم سفرٌ وحين سمع ابن مسعود أن عثمان صلى بمنى أربع ركعات استرجع^(١) أي قال ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢).

(وروي عن زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام أن علياً عليه السلام خرج وهو يريد صفين حتى إذا قطع النهر أمر مناديه فنادى بالصلاة فتقدم فصلى ركعتين حتى إذا قضى الصلاة أقبل على الناس بوجهه فقال: أيها الناس ألا من كان مشيعاً أو مقيماً فليتم الصلاة فإنما قوم سفر ألا ومن صحبنا فلا يصوم من المفروض والصلاة المفروضة ركعتان)^(٣).

(١) تفسير أبي السعود ١٤٧/٢ .

(٢) سورة البقرة ١٥٦ .

(٣) البحار ٤١٧/٣٢ .

وأول ما فرضت الصلاة ركعتان ثم زيدت فصارت أربعة في صلاة الظهر والعصر والعشاء .

فاقرت في السفر ركعتين .

وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (كان يصلي حين قدم المدينة ركعتين ركعتين، فأمر بإتمام أربع للمقيم وذلك في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني بعد مقدمه بشهر)^(١).

واتمام أربع ركعات هذا من الوحي إذ أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

والنسبة بين صلاة شدة الخوف وصلاة المطاردة هي العموم والخصوص المطلق ، فكل صلاة مطاردة هي من صلاة الخوف ومن صلاة شدة الخوف وليس العكس .

وهل يؤثم الذين كفروا عند إخافتهم المؤمنين وحملهم على أداء صلاة الخوف ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق خاتمة آية البحث ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُسْ إِلَيْهَا﴾^(٣).

وتسمى صلاة المطاردة على وجوه :

الأول : صلاة شدة الخوف .

الثاني : صلاة المسايقة .

الثالث : صلاة المعانقة .

ويسقط شرط الإستقبال ، نعم لا بد من الوضوء أو التيمم ، ويصح التيمم ولو بالسرج أو عرف الدابة .

وهل يمكن تسميتها بصلاة الإيماء ، الجواب لا ، فهي أخف من صلاة الإيماء التي يومئ فيها للركوع وأكثر منه للسجود ، فليس فيها إيماء إنما هي

(١) البحار ٣٧١/١٥ .

(٢) سورة الحشر ٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٧ .

تكبير وتهليل ، ويجزي فيها التكبير مرتين ، إلا صلاة المغرب ففيها ثلاث تكبيرات صلى أمير المؤمنين وأصحابه في صفين ليلة الهرير صارة الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالتكبير والتهليل وهم على الخيل وعندما عادوا إلى المعسكر لم يعيدوا الصلاة .

وإذا كان المكلف على غير وضوء ساعته فيتيمم من سرجه أو عرف دابته ، كما ورد في صحيحة زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام (الذي يخاف اللصوص والسبع يصلي صلاة الموافقة إيماء على دابته .

قلت : رأيت ان لم يكن المواقف على وضوء كيف يصنع ولا يقدر على النزول؟ قال: يتيمم من لبد سرجه أو دابته أو من معرفة دابته فان فيها غبارا ويصلي ويجعل السجود أخفض من الركوع ولا يدور إلى القبلة ولكن أينما دارت دابته غير أنه يستقبل القبلة بأول تكبيرة حين يتوجه^(١).

ليبان نفي الحرج في الدين ، وأولوية السلامة من الأذى مع تعاهد الصلاة وذكر الله .

المراد من أولي الألباب

الألباب جمع لب وهو جوهر وصلب الشئ .

وتحتمل النسبة بين أولي الألباب وبين المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ...﴾^(٢) وجهين :

الأول : نسب التساوي ، وأن المؤمنين الذين يذكرون الله هم أولو الألباب والعقول.

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وأن المراد من أولي الألباب المعنى الأعم ، وهم الناس بلحاظ أنهم أصحاب عقول .

(١) تهذيب الأحكام ٧٠/٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٩١ .

والمختار هو الأول ، وهو الذي تدل عليه آيات القرآن ، إذ ذكر ﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ست عشرة مرة في القرآن ، وبصيغة الرفع والنصب والجر . والتي نزلت بصيغة المدح والثناء عليهم ، وأن الآيات ذكرى وعبرة وموعظة لهم ، ومنها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

والمختار أن المراد من أولي الألباب في القرآن هم الذين سخروا عقولهم لسبل الهداية والإيمان ، واتخذوا الدنيا مزرعة للأخرة ، وانشغلوا بالدعاء والذكر والتسبيح ، واتعظوا من الوقائع والأحداث بما يزيد إيمانهم . لقد سخر المؤمنون أنفسهم للتدبر في الآيات الكونية ، وأنها من بديع صنع الله ، وتصديق معجزات الأنبياء والإقرار باليوم الآخر ، والعمل للنجاة في مواطن الحساب .

والنسبة بين العقول والألباب عموم وخصوص مطلق ، فاللب أخص في معناه ، ويتضمن قوله تعالى ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ المدح والثناء لتسخير المؤمنين عقولهم في طاعة الله عز وجل .

وورد في القرآن قوله تعالى ﴿أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ مرتين في القرآن بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٣).

ولم يرد في القرآن لفظ (أولو الأبصار) بصيغة الرفع .

(١) سورة الزمر ١٨ .

(٢) سورة النور ٤٤ .

(٣) سورة الحشر ٢ .

والمختار أن المراد من أولي الأبصار الذين يسخرون حواسهم للإعطاء والإيمان ، وفيه حجة على الناس جميعاً في تجلي الآيات الكونية الظاهرة ومعجزات الأنبياء الحسية مثل الشمس والقمر .

ومن فضل الله عز وجل مخاطبة أولي العقول الراجعة بقوله تعالى ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وندب الناس لتسخير حواسهم للهداية والإيمان .

مخاطبة العقول

الإنسان من عالم الخلق والإمكان فيلازمه الضعف ، وإبتلاه الله باجتماع العقل والهوى والتزاحم والصراع بينهما في مملكة النفس ، ومن فضل الله عز وجل تخلف إغواء ابليس وشياطين الإنس والجن عن مجارة العقل أو قهره عند أهل الإيمان ، ومن أسباب هذا التخلف الآيات الكونية التي تدل على وجود الصانع ومجيئ الأنبياء ونزول الكتب السماوية بوجوب عبادة الله عز وجل .

وعن الإمام علي عليه السلام (وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أُسِيرَ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ)^{(١)(٢)}.

ومن خصائص الإعجاز العقلي في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قانون مخاطبة آيات القرآن للعقول ، والتي وردت في آية البحث من جهات :

الأولى : إكرام آية البحث للذين يخشون الله بالغيب ، ومن مصاديق هذه الخشية أداء الفرائض العبادية .

الثانية : بيان آية البحث لوجود أمة من الناس تتصف بالتقوى والصلاح ، وبهم يسترزق الناس .

(١) ابن أبي الحديد / نهج البلاغة ١ .

(٢) في الأصل : تحت عند هوى أمير .

الثالثة : بينما تكلمت الآية السابقة عن حال الذين كفروا والتضاد بين النعيم المؤقت الذي يعيشون في الدنيا وبين سوء عذابهم المستديم في الآخرة ، أخبرت آية البحث عن حال النعيم الدائم للمتقين في الآخرة .

الرابعة : البيان في ماهية الجزاء الحسن الذي يلقاه المتقون في الآخرة بالخلود في جنات وقصور وأنهار فضلاً وكرماً من الله عز وجل .

الخامسة : مخاطبة خاتمة آية البحث للعقول بقانون أن ما عند الله عز وجل خير للمؤمنين الذين يعملون الصالحات .

ذم المقالات الباطلة

من خصائص القرآن ذم وفضح المقالات الباطلة التي يذكرها الذين كفروا والمذاهب الفاسدة .

وهل يختص هذا الذم بالمقالات أيام التنزيل ، الجواب لا ، إنما يشمل ما قبل وما بعد التنزيل وإلى يوم القيامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

ومن الشواهد على إحاطة كلمات القرآن المحدودة باللامحدود من الوقائع والأحداث ، مخاطبته أرباب العقول الراجحة وأولي النهي الذين تزرهم عقولهم عن الموبقات ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢).

لتكذيب المشركين بالبعث بعد الممات والوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب وخسروا الحياة بعد الموت بقولهم ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت نحن ويحيا أبناؤنا من بعدنا .

فتكون حياة الأبناء حياة لهم ، لأن الأبناء منهم ، ويحفظون أسماءهم كما يقال : ما مات من خلف ابناً مثل فلان.

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة الجاثية ٢٤.

وأضيف وجهاً آخر في تفسير الآية وهو قصدهم الوفيات والولادات العامة ، فالناس في حركة دائبة هذا يغادر الدنيا ، وهذا يولد فلا يختص المعنى بالوالد وابنه ، ولا تتوقف الحياة اليومية والمعاملات على وفاة شخص أو جماعة .

ولم يعلموا أن استقرار المجتمعات هذا ، وعدم التأثير بموت شخص أو طائفة دفعة ، إنما هو من مصاديق خلافة الإنسان في الأرض بقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

﴿وَمَا يُؤَلِّكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(٢) أي نموت بسبب تعاقب الليالي والأيام وطول العمر ، ويسمون الدهرية إنكاراً منهم لملك الموت ، وجحوداً بآيات القرآن والسور المكية التي نزلت بلغة التخويف والوعيد ، ومنها ما يكون لها سبب نزول.

وعن ابن عباس (كان النبي صلى الله عليه وآله يصلي عند المقام فمر به أبو جهل فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا وتوعده، فأغلظ له رسول الله وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني أما والله إني لأكبر هذا الوادي نادياً، فنزلت ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾^(٣) إلى قوله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾^(٤) فقال ابن عباس : لو نادى لاخذته الزبانية بالعذاب مكانه)^(٥).

وعن ابن عمر الزبيري قال للإمام جعفر الصادق عليه السلام (أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل قال : الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة الجاثية ٢٤ .

(٣) سورة العلق ٩ .

(٤) سورة العلق ١٧-١٨ .

(٥) البحار ٢٠١/١٨ .

فمنها كفر الجحود ، والجحود على وجهين ؛ والكفر بترك ما أمر الله ؛ وكفر البراءة وكفر النعم.

فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول: لارب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهرية وهم الذين يقولون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١) وهو دين وضعوه لانفسهم بالاستحسان على غير ثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون ، قال الله عزوجل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢) أن ذلك كما يقولون وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) يعني بتوحيد الله تعالى فهذا أحد وجوه الكفر.

وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق ، قد استقر عنده وقد قال الله عزوجل ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٤) وقال الله عزوجل ﴿وَكَاذِبِينَ قَبْلُ يُسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٥) فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر كفر النعم وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾^(٦) ، وقال ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ

(١) سورة الجاثية ٢٤.

(٢) سورة الجاثية ٢٤.

(٣) سورة البقرة ٦.

(٤) سورة النمل ١٤.

(٥) سورة البقرة ٨٩.

(٦) سورة النمل ٤٠.

لَا زَيْدَ نَكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١)، وقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾^(٢).

والوجه الرابع من الكفر ترك ما أمر الله عز وجل به وهو قول الله عز وجل ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فِرْقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾^(٣) فكفرهم بترك ما أمر الله عز وجل به ونسبهم إلى الايمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة وذلك قوله عز وجل يحكي قول إبراهيم عليه السلام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾^(٥).

يعني تبرأنا منكم ، وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾^(٦) وقال ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ

(١) سورة ابراهيم ٧.

(٢) سورة البقرة ١٥٢.

(٣) سورة البقرة ٨٤-٨٥.

(٤) سورة البقرة ٨٥.

(٥) سورة الممتحنة ٤.

(٦) سورة ابراهيم ٢٢.

دُونَ اللَّهِ أَوْ ثَانًا مَوْدَّةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا^(١) يعني يتبرء بعضكم من بعض^(٢).

وأبو عمر الزبير هو محمد بن عمرو بن عبد الله بن مصعب بن الزبير وهو من العلماء ، ذكره النجاشي ، روى عن الإمام الصادق عليه السلام.

بحث روائي

كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستشهد بقوله تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾^(٣) لما فيه من التأديب ونبد العصية القبلية والإنقطاع إلى التفاخر بالآباء ، إنما الفضل والتفضيل بالخشية من الله عز وجل ، وأداء الواجبات العبادية ، والتحلي بخصال الصلاح قربة إلى الله عز وجل .
(وأخرج الخطيب عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة أوقف العباد بين يدي الله تعالى غرلاً بهماً فيقول الله : عبادي أمرتكم فضيعتم أمري ، ورفعتم أنسابكم فتفاخرتم بها ، اليوم أضع أنسابكم ، أنا الملك الديان أين المتقون؟ أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وعن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، الناس رجلان برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب .

(١) سورة العنكبوت ٢٥.

(٢) الكليني / الكافي ٥٤١/٢ .

(٣) سورة الحجرات ١٣.

قال الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(١) إلى قوله ﴿خَيْرٌ﴾ ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، ألا إن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها ، كلكم لآدم وحواء كطف الصاع^(٢) بالصاع ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوجوه^(٣).

و(عن عقبة بن عامر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الناس لآدم وحواء كطف الصاع لم يملأوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب، قال: ثني ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أنسابكم هذه ليست بمساب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم طف الصاع لم تملأوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو عمل صالح حسب الرجل أن يكون فاحشاً بذياً بخيلاً جباناً^(٤).

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) كطف الصاع بالصاع : أي أنهم سواء في الحسبة والمنزلة .

(٣) الدر المنثور ٩/ ٢٦٧ .

(٤) تفسير الطبري^(٤) ٢١٣ .

(وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أنسابكم هذه ليست بمسيئة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملأوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأخرج ابن مردويه عن سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من التراب ، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أبيض ولا أبيض على أحمر إلا بالتقوى .

وأخرج الطبراني عن حبيب بن خراش القصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وأخرج أحمد عن رجل من بني سليط قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى ههنا ، وقال بيده إلى صدره ، وما تواذ رجلان في الله فيفرق بينهما إلا حدث يحدث أحدهما والمحدث شر والمحدث شر والمحدث شر^(١) .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (قال : ان رسول الله صلى الله عليه وآله زوج المقداد بن الاسود الكندي ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ، وانما زوجه لتضع المناكح ، وليتأسوا برسول الله صلى الله عليه وآله وليعلموا أن اكرمهم عند الله اتقاهم)^(٢) .

قانون الهجرة أمان من الإفتنان

من الآيات في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هجرته من مكة حيث جوار البيت الحرام بعد أن عزم المشركون على قتله في ذات الليلة ، وقد هاجرت طائفة من المسلمين إلى الحبشة قبل هجرة النبي محمد

(١) الدر المنثور ٩/٢٦٧ .

(٢) تهذيب الأحكام ٢/٢٢٧ .

صلى الله عليه وآله وسلم بعدما اشتد أذى قريش لهم ، وهجرة الحبشة هذه معجزة غريبة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشاهد وجداني حاضر على صدق نبوته .

ومن الإعجاز في هذه الهجرة السلامة من الإفتتان مسألتان :
الأولى : الإعراض عن قريش ، وسعيها لإكراه هؤلاء الصحابة لترك الإسلام واتباع الرسول .

الثانية : العصمة من الإفتتان بدين أهل الحبشة ، إذ كانوا من النصارى .
 ومن الإعجاز في المقام أن النبي محمداً لم يترك المسلمين الأوائل في مكة يلاقون أذى قريش الآخذ بالإطراد والإزدياد ، ولم يأمرهم بالهجرة إنما عرض عليهم الأمر ترغيباً بقوله لهم (لو خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا) ^(١) .
 لبيان تزكية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لعبادة النصارى ، لقد دخل هؤلاء المهاجرون ارض الحبشة من عبادة الأوثان ، والسلامة فيها من الإكراه أو ترك الإسلام .

ولم يبق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء المهاجرين مقيمين في مكة عضداً وسنداً له في ملاقة أذى المشركين ، بل رغبهم بالهجرة وفيه مسائل :

الأولى : إنه من الشواهد على شجاعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : حال السكينة والطمأنينة عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لسلامته من أذى وضرر المشركين ، وفي التنزيل ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ^(٢) .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٣٢١/١ .

(٢) سورة الزمر ٣٦ .

الثالثة : لقد كان المشركون يخوفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالآلهة من الأوثان ، وفي المرسل عن قتادة قال (قال لي رجل : قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لتكفن عن شتم آلهتنا أو لتأمرنها فلتخبلنك فنزلت ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(١) ^(٢) .

لتدل دعوته طائفة من أصحابه للهجرة إلى الحبشة ، وآخرين إلى المدينة على شجاعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحسن توكله على الله ، وعدم خشيته من المشركين والأصنام التي يعبدون .

وحتى في يوم فتح مكة عندما سير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم السرايا لهدم الأصنام حول مكة كان المشركون يخوفون الصحابة من هدمها ، ولا تختص الهجرة بالمسلمين الذين هاجروا من مكة بل يشمل المهاجرين من غير مكة كما أن آيات الهجرة تشمل المؤمنين المهاجرين في كل زمان ، وفي التنزيل ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^(٣) إذ هاجر إبراهيم من دار قومه إلى الشام .

علم الإيناس في الآية القرآنية / علم جديد

هذا اليوم هو السادس عشر من شهر ربيع الأول من السنة السابعة والأربعين بعد الأربعمئة والألف وقد تقدم في الأسبوع الماضي تأسيس لعلم الآخرة كما تقدم يوم أمس تأسيس علم جديد وهو جمع الكلمة القرآنية الواحدة للحقيقة والمجاز مع الأمثلة.

وأوسس علماً جديداً وهو علم الإيناس في آيات القرآن لمناسبة إتمام تألوفي للجزء الثامن والستين بعد المائتين من (معالم الإيمان في تفسير القرآن)

(١) سورة الزمر ٣٦.

(٢) الدر المنثور ٤٥٣/٨ .

(٣) سورة الصافات ٩٩.

والذي يتضمن تفسير قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(١).

وتتجلى في آيات القرآن بدائع البلاغة ، وبيان جواهر المعاني بكلمات محدودة تبعث الشوق في النفوس إلى تلاوة القرآن ، وسماع آياته وحفظها ، ومن إعجاز القرآن أثر بلاغته في إقرار العرب بصدق نزوله من عند الله ، وحفظهم الآيات ، وتناقل الركبان لها ، خاصة وأن العرب آنذاك أرباب البلاغة ، وسادة الشعر ، والبيان بسلاقت سليمة ، بدليل القصائد المعلقة ، والتي وإن لم يثبت تعليقها في الكعبة إلا أنها تدل على إرتقاء بلاغي بديع ، فلا بد أن يأتي القرآن بما هو أعظم منه ، والله عز وجل لا تستعصي عليه مسألة .

ومن بلاغة القرآن الإيناس وما فيه من الآداب واللطائف ، ومعاني إزالة الوحشة .

وذكرت من أمثله الأنس برشد اليتيم كما في قوله تعالى ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾^(٢) ، ومنها الإنس بالضيف ، وورد لفظ ﴿آنَسْتُ﴾ ثلاث مرات في القرآن كلها بخصوص قصة موسى عليه السلام ، وأنه أنس وأحس بوجود نار في طريقه هو وزوجته وأهله ، وكانوا في أيام الشتاء .

(عن ابن عباس في قوله ﴿أَوْاجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾^(٣) يقول : من يدل على الطريق)^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٨.

(٢) سورة النساء ٦.

(٣) سورة طه ١٠.

(٤) الدر المنثور ٤٩٧/٦.

والعلم الجديد اليوم هو موضوع الإيناس في القرآن أعم من ينحصر بمفردة (أنس) ومشتقاتها ، إنما يشمل المعاني التي تدل على الإيناس ، وترتب الإيناس على مضامين آيات القرآن ، وبهذا يكون الإيناس علماً مستقلاً تؤلف فيه المجلدات باتباع آيات القرآن آية آية لقانون كل آية قرآنية تتضمن الإيناس سواء في منطوقها أو مفهومها .

ومعاني الإيناس وبعثها السكينة في النفوس ، والترغيب بالإيمان والعمل الصالح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكما في علم أسباب النزول بأن المدار على عموم المعنى ، وليس على أسباب النزول وحدها .

وكذا فان علم الإيناس الذي أؤسسه يدور مدار معاني الإيناس وتحقيق مصداق الطمأنينة والغبطة والسرور عند تلاوة الآية القرآنية ، والتدبر في معانيها ، خاصة وأن للكلمة القرآنية وجوهاً متعددة من غير تعارض بينها ، وكذا يمكن استنباط دلائل معاني الإيناس بالجمع بين آيتين من القرآن أو أكثر .

ومن أسماها إخبار القرآن عن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أكرمه الله عز وجل به ، وقد صدرت لي والحمد لله أربعة أجزاء بعنوان (خصائص النبي محمد (ص)) وفيها نحو تسعمائة خصيصة ، وتأتي أجزاء أخرى إن شاء الله بهذا الخصوص .

مصداق للإيناس

من موضوع الإيناس في القرآن آية البحث وهو قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(١) ، وفيه مسائل :

(١) سورة آل عمران ١٩٨.

الأولى : ابتدأت الآية بحرف الإستدراك (لكن) لبيان إنطواء حال التخويف والعذاب في الآية السابقة ، والانتقال إلى الضد منها ، وضد التخويف البشارة والأمل .

الثانية : الثناء على المؤمنين بذكر الله عز وجل لهم والثناء عليهم بوصفهم بالمتقين ، وفيه ترغيب بالتقوى ، وبعث للسكينة في نفوس المؤمنين ، والإستئناس في أداء الصلاة والفرائض العبادية الأخرى ، وما ورد في الكتاب والسنة من الثواب العظيم عليها .

ومن معاني الإيناس في ذكر المتقين والثناء عليهم العصمة من الوحشة عند التحلي بالتقوى ، والخشية من الله .

الثالثة : البشارة بدخول الجنة ، وهو أعظم إيناس في الدنيا ، وأكثر أفراد الإيناس شمولاً للأفراد وأهل ملة التوحيد ، لذا تفضل الله عز وجل وذكر الجنات في آية البحث بصيغة الجمع .

الرابعة : من الإيناس في آية البحث الوعد الكريم بالخلود في الجنان ومن أشد المنغصات في الدنيا إدراك الإنسان بانقطاع حياته في الدنيا بالموت ، فتأتي هذه الآية لطرده الكدورة .

وليس من إنسان إلا ويستحضر الموت في محطات من حياته ، بوقائع وشواهد وجدانية ، وفقد الأب أو الأم وعند المرض و(عن أنس بن مالك قال : مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقوم من الأنصار يضحكون ، فقال : أكثروا ذكر هادم اللذات)^(١) .

وهذا الإكثار لا يتعارض مع الإكثار من ذكر الجنة والإستئناس بذكرها ، بل يكون ذكر المؤمن للموت سكينة وطمأنينة لأنه نوع طريق وانتقاله إلى عالم الخلود في النعيم .

الخامسة : من إعجاز آية البحث جمعها بين الطمأنينة والإيناس عند المؤمن ، والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فالطمأنينة أعم ، نعم

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٢/٢٠١ .

الإيناس بذكر الجنة خاص بالمؤمنين ، وهو باعث للناس جميعاً للتوبة والهداية والإيمان .

وقد أخبرت آية البحث بأن المتقين ضيوف دائمون في الجنان بفضل من الله عز وجل ، لبيان أن خصائص هذه الضيافة تفوق عالم التصور .

السادسة : اختتام الآية بوعد كريم يجعل المؤمن يسبح في عالم الإيناس ، ويدعو الناس للإيمان وهو قوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ .

السابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾^(١) ويدرك المسلمون عجزهم عن معرفة معشار ما أعد الله عز وجل للمتقين من النعم ، ومصاديق الفضل ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَقَوَائِمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(٢) .

نفحات الإستدراك في آية البحث

لا يختص حرف الإستدراك في أول آية البحث لبيان المائز بين المؤمنين والذين كفروا ، بل يشمل وجوهاً متعددة منها ما يخص آية البحث من وجوه :

الأول : وجود أمة من المتقين في كل زمان ، وفيه حجة على الذين كفروا بأن تقوى الله ليس أمراً نادراً أو صعباً ومستعصياً ، بل هي قريبة من كل إنسان .

الثاني : إقامة الحجة على الذين كفروا بقيام الأنبياء والرسل بالتبليغ ، وعندما يدخل الذين كفروا النار كما أخبرت الآية السابقة يضجون إلى الملائكة رجاء سؤال الله عز وجل تخفيف يوم من العذاب ، فيجيبهم

(١) سورة آل عمران ١٩٨ .

(٢) سورة المرسلات ٤١-٤٢ .

الملائكة ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١).

الثالث : تبين الآية مصاديق من نصر الله عز وجل للمؤمنين ، وفضله عليهم في الدنيا بالهداية ، وفي الآخرة بالثواب العظيم ، قال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٢).

الرابع : الوعد الكريم من الله عز وجل للذين يخافونه في الغيب ، فيتلقون ما جاء به الرسل والتنزيل بالقبول والرضا والاستجابة .

الخامس : اطمئنان المؤمنين بالفصل بينهم وبين الذين كفروا في الآخرة ، فليس من إفتتان .

السادس : عجز الذين كفروا عن حسد المؤمنين .

السابع : فوز المؤمنين بنعمة غير موجوده في الدنيا وإن بذل الملوك الأموال من أجل تحقيقها ، وهي جريان الأنهار من تحت القصور ، ومن الإعجاز في المقام ورود لفظ (الأنهار) بصيغة الجمع .

الثامن : نعمة الخلود في النعيم ، وعدم مغادرة الحياة ، وليس من حالة إغماء أو مرض أو آفة سماوية أو أرضية ، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٣).

التاسع : جزاء الله للمؤمنين الذين أخلصوا الطاعة لله بضيافتهم عنده تعالى ، ليدرك المؤمن أنه ليس بينه وبين هذه الضيافة والإكرام العظيم سوى مفارقة الروح الجسد .

(١) سورة غافر ٥٠.

(٢) سورة غافر ٥١.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٤.

العاشر : تعدد النعم الأخروية على الذين صدقوا في إيمانهم بما يزيد على الجنات التي تجري تحتها الأنهار ، كما في خاتمة آية البحث ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ .

وهل فيه دعوة للمسلمين والمسلمات للدعاء للفوز بالجنة وما أدخر الله عز وجل للمؤمنين ، ورجاء استحداث نعم أخرى لهم من مثل ما ورد عن (عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله جعل مائدة عليها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لا يقعد عليها إلا الصائمون)^(١) .

خصائص آدم عليه السلام

وفيه وجوه :

الأول : آدم هو أول إنسان خلق الله عز وجل ، وحواء أول امرأة خلقها الله .

الثاني : لقد خلق الله كلا منهما من غير أب ولا أم .

الثالث : لقد خلق الله عز وجل آدم من التراب ، قال تعالى ﴿وَمِنْ

آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(٢) .

الرابع : آدم أول إنسان عمر الأرض .

الخامس : آدم أول إنسان قضى أول ليلة في الأرض هو وحواء .

السادس : آدم أول من أقام الصلاة في الأرض .

السابع : آدم أول نبي وأول رسول .

الثامن : هبط آدم إلى الأرض من الجنة بعد أن عاش فيها هو وحواء برهة من الزمن .

التاسع : آدم هو الإنسان الأول .

(١) الدر المنثور ١/٣٦٦ .

(٢) سورة الروم ٢٠ .

العاشر : أول من بشر بالنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو آدم أبو البشر .

الحادي عشر : آدم أول خليفة في الأرض ، قال تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

الثاني عشر : آدم أول إنسان تكلمت معه الملائكة ، واحتج عليها بأمر الله عز وجل ، كما في قوله تعالى ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٢).

الثالث عشر : آدم أول مصطفى ، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٣).
الرابع عشر : أول إنسان من تعلم الأسماء من الناس هو آدم وعلمه الله عز وجل .

الخامس عشر : آدم أول نبي أخذ عليه الميثاق للتصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، (قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصرنه)^(٤).

السادس عشر : آدم الإنسان الوحيد الذي نفخ الله فيه من روحه ، قال تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(٥).

السابع عشر : يتصف آدم وحواء بأنهما لم يخلق في رحم ، ولم يمرا بمرحلة الطفولة والصبا .

الثامن عشر : خلق آدم وحواء في الجنة .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٣.

(٣) سورة البقرة ٣١.

(٤) تفسير ابن كثير ٨/١١٠.

(٥) سورة السجدة ٥ .

التاسع عشر: أول من نبي وجحد آدم (عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أول من جحد آدم أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر.

قال: أي رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أي رب كم عمره. قال: ستون عاماً قال: رب زد في عمره. فقال: لا إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة.

فلما احتضر آدم وأتته الملائكة لتقبضه قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً.

ف قيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. فأبرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة، فكمل الله لآدم ألف سنة، وأكمل لداود مائة عام^(١).

ذكر قریش في القرآن

قال تعالى ﴿لِإِلَافٍ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٢).

مع قلة كلمات هذه الآية وعدد آياتها أربعة، فقد وردت كلمات فيها لم ترد في غيرها، وهي ﴿لِإِلَافٍ﴾ ﴿قُرَيْشٍ﴾ ﴿إِيْلَافِهِمْ﴾ ﴿رِحْلَةَ﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ ﴿هَذَا﴾ ﴿الْبَيْتِ﴾ ﴿أَطْعَمَهُمْ﴾ ﴿آمَنَهُمْ﴾.

ولم يذكر اسم قبيلة عربية في القرآن غير قریش وهي من كنانة، ولم تكن قریش قبيلة كبيرة، وشاء الله أن يكرمها بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتأخذ صفة القبيلة العالمية لتلاوة المسلمين في مشارق ومغارب

(١) الدر المنثور ٢/٢٥١.

(٢) سورة قریش ١-٤.

الأرض آيات القرآن خمس مرات على نحو الوجوب العيني ، ومنها سورة قريش .

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم صيرورة قبيلته قبيلة عالمية نذكر في كل بلد وكل يوم ، وهل يمكن القول أشهر قبيلة في العالم يرد ذكرها على الألسن ببركة ذكرها في القرآن واستقلال سورة بذكرها المختار نعم .

وتتضمن السورة التذكير بنعم الله عز وجل على قريش من جهات :
الأولى : نجاة قريش والبيت الحرام وولايتهم له من أبرهة وأصحاب الفيل ، وقد تقدم يوم أمس أن هذه السورة هي الوحيدة في القرآن التي تبدأ بلام التعليل .

وتشير صلة موضوعها بالآية السابقة ، ليكون هلاك أصحاب الفيل مقدمة لولادة وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ وقع هلاكهم قبل ولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشهرين .

الثانية : تألف وإجماع قريش بجوار البيت الحرام .

الثالثة : تجارة قريش المتكررة كل سنة في الصيف لبلاد الشام لأنها باردة ، وفي الشتاء إلى اليمن وحمير لأنها بلاد حامية .

ليبان وجوب شكرهم لله عز وجل بتعاهد عبادته تعالى ، والتي تتجلى بالتصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾

خاتمة الآية بشارة ووعد كريم من عند الله عز وجل ، ودعوة للإيمان ، وذم للكفر وبيان الحرمان من النعيم بسبب التلبس به .

والأبرار جمع بار ، وهو الصادق الذي لا يفعل إلا الخير والعمل الصالح ، ومن خصائص الأبرار أمور :

الأول : الإقرار بربوبية الله المطلقة ، وأن الناس عبيد له .

وهذا الإقرار أهم حرز وسلاح يحتاجه العبد بعد دخوله القبر ،
ويصاحبه في مواطن الآخرة ، يفارقه أهله وأصدقاءه عند الدفن ، ولكن
كلمة التوحيد تتصف بالفناء فتدخل معه القبر وتكون ضياءً .

الثاني : قانون توجه الأبرار بالدعاء (ربنا) لما فيه من معاني التوحيد .

الثالث : طاعة الله ، وإتيان الأفعال بقصد القرية إلى الله .

وهذه الطاعة واجب عيني على المكلف لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ، وهي مؤونة وصاحب كريم في القبر ، وذخيرة ليوم
القيامة .

ويتباهى أهل القبور بما لديهم من طاعة الله وفي الحديث أنهم حلقاتاً
يتحدثون ، كما (عن حبة العرنى قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام
إلى الظهر فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لاقوام فقامت بقيامه حتى
أعيت .

ثم جلست حتى مللت ، ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولاً .
ثم جلست حتى مللت ، ثم قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين
إنني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة ، ثم طرحت الرداء
ليجلس عليه فقال: يا حبة إن هو إلا محادثة مؤمن أو مؤانسته .
قلت: يا أمير المؤمنين وإنهم لكذلك ؟ قال: نعم ، ولو كشف لك لرأيتهم
حلقاتاً محتبين يتحادثون ، فقلت أجسام أم أرواح .

فقال : أرواح ، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل
لروحه: الحقني بوادي السلام ، وإنها لبقعة من جنة عدن)^(٢) .

الرابع : قانون تنزه الأبرار عن إيذاء الآخرين .

الخامس : الحب في الله وإظهار مصاديق طاعته .

السادس : قانون إعراض الأبرار عمن يؤذيهم ، والصفح عنه .

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) البحار ٦ / ٢٦٨ .

رجاء الأجر والستر والثواب والوقاية من عذاب البرزخ ، قال تعالى ﴿وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

السابع : قانون ملازمة الأبرار لمنازل رضوان الله .

وتفيد (مع) في قوله تعالى ﴿وَوَفَّيْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٢) على الظاهر الغيرية ، ولكنها تتضمن معنى اجعلنا من الأبرار.

ومن معاني ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ في الآية مغادرة أجيال من الأبرار الحياة الدنيا إلى دار النعيم ، وبيان قانون وجود أمة من الأبرار في كل زمان.

و(عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك قتلى بدر^(٣) ثلاثاً ثم قام عليهم فناداهم .

فقال : يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعون وأناى يجيبون وقد جيفوا.

قال : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في القليب قليب بدر^(٤).

وفيه دلالة بأن الأموات مطلقاً عندما يغادرون الدنيا يسمعون الأصوات من حولهم ، لقانون الموت ليس عدماً محضاً.

و(عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه : إنه ليسمع قرع نعالهم ، يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل .

(١) سورة النور ٢٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٣.

(٣) أي من المشركين .

(٤) تفسير القرطبي ٣٢٦/٧ .

زاد ابن مردويه : الذي كان بين أظهركم الذي يقال له محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فيراهما جميعاً^(١).

إنما هو زهوق الروح ، ومغادرتها للبدن ، وانتقال العبد من دار الدنيا إلى عالم البرزخ ، قال تعالى ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾^(٢).

فذكرت الآية أن الموت مخلوق كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَآلَةَ آبَائِكَ إِبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَخَشِيَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ ﴾^(٣)، فيحضر الموت عند حلول الأجل).

بحث بلاغي

البلاغة لغة هي الوصول إلى الشئ ، وفي الإصطلاح مطابقة الكلام الفصيح للحال بأبهى صيغة ، وينقسم علم البلاغة في اللغة العربية إلى ثلاثة أقسام :

الأول : علم المعاني وهو الذي يختص بالطرق التي يتخذها المتكلم لإيصال المعنى الذي يقصده إلى المتلقي ، ومنه صيغة الخبر والإنشاء والتعريف والتكثير ، والتقديم والتأخير ، والذكر والحذف .

(١) الدر المنثور ٥٧/٦ .

(٢) سورة الملك ٢ .

(٣) سورة البقرة ١٣٣ .

الثاني : علم البيان ، ويشمل الطرق المتعددة التي توظف وتصلح لبيان المعنى الواحد ، ومنه التشبيه ، والمجاز ، والإستعارة ، والكناية التي هي إرادة معنى من لفظ بعيد .

الثالث : علم البديع ، وهو سبل تحسين الكلام مع مراعاة مطابقة الحال ومقتضاه من غير تعقيد في المعنى ، وينقسم إلى قسمين :

الأول : المحسنات اللفظية مثل الجناس والسجع والتقسيم .

الثاني : المحسنات المعنوية أو الحسية ، ومنها حسن التعليل والمقابلة والتورية .

ومن وجوه إعجاز القرآن بلاغته التي تحدى بها العرب وفصاحتهم ، إذ نزل القرآن في أيام بلوغ الشعر والبلاغة والفصاحة عند العرب ذروتها ، وهذا لا يعني انحصار إعجاز القرآن ببلاغته ، لقانون تضمن كل آية قرآنية الإعجاز المتعدد ، وكذا قانون تجلي الإعجاز بالجمع بين كل آيتين من القرآن.

ومن إعجاز القرآن في المقام أنه الأصل والسبب والمادة لوضع أنظمة وقواعد البلاغة العربية ، وفيه وجوه :

الأول : قانون حفظ القرآن اللغة العربية.

الثاني : قانون تأسيس القرآن لقواعد البلاغة .

الثالث : قانون بعث آيات القرآن وبعث العلماء المسلمين من العرب

وغيرهم للغوص والإبحار في علوم البلاغة

الرابع : قانون إظهار القرآن لمحاسن اللغة العربية .

قوانين الجزء ٢٦٨

وفيه القوانين التالية :

الأول : قانون اللطف الإلهي بتهيئة الرزق للإنسان قبل أن يخلق .

الثاني : قانون دعوة الناس لعبادة الله عز وجل بعد ضمان رزقهم في السماء.

الثالث : قانون الرزق في الأرض كالمال والأنعام والغلات مما هو مكتوب للناس في السماء .

الرابع : قانون تعضيد آية الأوامر والنواهي بالآية التي تليها ، وهو من إعجاز نظم القرآن .

الخامس : قانون زجر القرآن عن الإفتتان بالذين كفروا سواء بكثرة أسفارهم وأموالهم ، أو ما عندهم من الجاه والسلاح والأتباع والخدم والسلطان .

السادس : قانون مغادرة الدنيا على الكفر والجحود يدخل صاحبه النار.

السابع : قانون بعث القرآن الناس للإيمان .

الثامن : قانون وجوب السعي لإكتساب الحسنات ودخول الجنة ، فنذكر في علم الفقه والأصول الأحكام التكليفية الخمسة ، الوجوب ، الندب ، والإباحة ، والكرهية ، والحرمة .

التاسع : قانون الصلاة فرض على المؤمنين من أيام أدينا آدم ، وليس من نبي إلا وجاء بوجوب أداء الناس للصلاة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١).

العاشر : قانون سرعة الإستجابة ، ابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابْ﴾ .

الحادي عشر : قانون لا يقدر على الإستجابة العظمى إلا الله عز وجل .
الثاني عشر : قانون اقتران الإستجابة بالوعد من عند الله عز وجل ، ولا يقدر على كل منهما إلا الله عز وجل ، وكذا في اجتماعهما .
الثالث عشر : قانون اختيار الكفر مانع من دوام النعم ، قال تعالى ﴿لَنْ شُكِرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

الرابع عشر : قانون الكفر برزخ دون توارث النعمة .
الخامس عشر : قانون بعث الآية القرآنية الخيبة والقنوط واليأس في قلوب الذين كفروا .

السادس عشر : قانون ملازمة الخيبة للكفر ، وتدلل عليه خاتمة قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) فمن لم يسارع إليه الموت والهلاك من الذين كفروا تصاحبه الخيبة والحسرة والأسى .

السابع عشر : قانون وراثته المؤمنين نعمة الثقلب في البلاد .
الثامن عشر : قانون استدامة نعمة الثقلب في البلاد بالإيمان ، وهو من مصاديق قانون التضاد بين الإيمان والكفر في الدنيا ، ليكون هذا التضاد مقدمة ومرآة للتضاد والتناقض الجلي والبين في الإقامة الدائمة في الآخرة .
التاسع عشر : قانون الإستجابة على الفور .

العشرون : قانون إنتفاء البرزخ بين الجنة والنار ، قال تعالى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٣) .

الواحد والعشرون : قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل لا يخلف الميعاد ، وأن وعده في القرآن حق وصدق .
الثاني والعشرون : قانون انتفاء البرزخ بين الإيمان والكفر ، قال تعالى

(١) سورة إبراهيم ٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٣) سورة الشورى ٧ .

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(١).

الثالث والعشرون : قانون التعزيد بين خاتمتي كل آيتين من القرآن تأكيد بشارة المؤمنين في خاتمة آية السياق لسوء عاقبة الذين كفروا ، ودعوة آية البحث الناس للهداية والإيمان.

الرابع والعشرون : قانون الحاجة للدعاء للنجاة من الخزي يوم القيامة ، ولو دعا الذين كفروا بالنجاة من الخزي يوم القيامة فهل ينفعهم هذا الدعاء ، الجواب لا ، قال تعالى ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٢).
الخامس والعشرون : قانون الإيمان واقية من الخزي.

السادس والعشرون : قانون نزول الآية خزي للذين كفروا.
السابع والعشرون : قانون كل آية من القرآن تدم الذين كفروا بالمنطوق أو المفهوم .

الثامن والعشرون : قانون بعث كل آية من القرآن الأسى في قلوب الذين كفروا .

التاسع والعشرون : قانون في كل آية قرآنية نازلة من السماء خزي للذين كفروا .

الثلاثون : قانون بعث الآية القرآنية النفرة في نفوس الناس من الذين كفروا .

الواحد والثلاثون : قانون ذم الذين كفروا دعوة للإيمان والصلاح .
الثاني والثلاثون : قانون تسليم المؤمنين بأن الله عز وجل ربهم ورب الناس جميعاً .

(١) سورة الحجرات ٧.

(٢) سورة غافر ٥٠.

الثالث والثلاثون : قانون الكفر حاجز للدعاء والمسألة ، فهم في لهو وكثرة أسفار.

الرابع والثلاثون : قانون استجابة الله عز وجل لدعاء المؤمنين .
الخامس والثلاثون : قانون حضور دعاء المسلم عند الله عز وجل .
السادس والثلاثون : قانون الدعاء لأمر الدنيا والآخرة .
السابع والثلاثون : قانون التوثيق السماوي لأدعية المؤمنين .
الثامن والثلاثون : قانون بيان القرآن لسنخية الأدعية في أمور الدنيا والآخرة ، كما ورد قبل ثلاث آيات ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١).

التاسع والثلاثون : قانون الإستجابة أعم من موضوع الدعاء وذات السؤال.

الأربعون : قانون الدعاء مرآة الإيمان ، ومظهر اليقين .
الواحد والأربعون : قانون الدعاء مصداق التوكل على الله .
الثاني والأربعون : قانون الدعاء واقية من الشيطان وإغوائه .
الثالث والأربعون : قانون الإلحاح بالدعاء والتحلي بالصبر عند الدعاء ابتداء واستدامة وعدم العجلة فيه ، وسرعة الإنصراف عنه .
الرابع والأربعون : قانون ساعات الحياة الدنيا وعاء زماني للدعاء والمسألة سواء في الصلاة أو خارجها ، وفي حال الرخاء أو الشدة .
الخامس والأربعون : قانون الدعاء عبادة .
السادس والأربعون : قانون حرمة الإمتناع عن الدعاء .
السابع والأربعون : قانون سخط الله عز وجل على الذين يستكبرون عن الدعاء ، ويمتنعون عن أداء الفرائض العبادية .
الثامن والأربعون : قانون الدعاء غنيمة وباب لقضاء الحوائج .

(١) سورة آل عمران ١٩٤.

التاسع والأربعون : قانون توارث أجيال المؤمنين من الملل المختلفة لما وعد الرسل الناس وإتخاذ هذا التوارث صبغة القانون .

الخمسون : قانون خزي الذين كفروا يوم القيامة ، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

الواحد والخمسون : قانون مجئ الرسل بالوعد من الله عز وجل للمؤمنين بالنجاة في مواطن الآخرة.

الثاني والخمسون : قانون تصديق كل رسول للرسول الذين جاءوا قبله .

الثالث والخمسون : قانون كل رسول جاء بالوعد من عند الله بالجنة والثواب العظيم على الإيمان .

الرابع والخمسون : قانون سلامة القرآن من الزيادة أو النقصنة أو التحريف.

الخامس والخمسون : قانون آية السياق فقاها.

السادس والخمسون : قانون الدعاء واقية وحرز .

السابع والخمسون : قانون اليقين بأن الله عز وجل لا يخلف الميعاد ، فاذا وعد ببشارة وثواب ورحمة فلا بد من تحققها.

الثامن والخمسون : قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل صادق فيما يعد عباده.

التاسع والخمسون : قانون السماع العام لنداء الإيمان.

الستون : قانون التضاد بين الإيمان والإقامة في النار يوم القيامة .

الواحد والستون : قانون التقوى واقية من النار .

الثاني والستون : قانون عجز الناس عن إحصاء كثرة مصاديق اللطف

الإلهي على العباد مجتمعين ومتفرقين .

الثالث والستون : قانون كل آية رحمة .

الرابع والستون : قانون جمع الآية القرآنية لوجوه متعددة من اللطف الإلهي .

الخامس والستون : قانون ذات تلاوة القرآن وهل تلاوة المسلم للقرآن من اللطف الإلهي بالمسلم الجواب نعم .

السادس والستون : قانون ذات تلاوة القرآن هداية للذات والغير .

السابع والستون : قانون شمول الناس جميعاً باللطف الإلهي .

الثامن والستون : قانون كل آية رحمة من الله .

التاسع والستون : قانون كل آية لطف من الله عز وجل .

السبعون : قانون الجزاء الحسن على الإيمان .

الواحد والسبعون : قانون الكفر قاطع للنعم ، فلا تستديم معه نعمة .

الثاني والسبعون : قانون ذم القرآن للذين ماتوا على الكفر وعبادة

الأوثان .

الثالث والسبعون : قانون إغاضة التنزيل لأبناء الذين كفروا ممن بقوا على

ملتهم

الرابع والسبعون : قانون الملازمة بين الكفر وسوء المهاد في الآخرة .

الخامس والسبعون : قانون كثرة الأسفار اختبار .

السادس والسبعون : قانون الكفر مانع من استمرار النعم .

السابع والسبعون : قانون الآية القرآنية سلاح للهداية والرشاد .

الثامن والسبعون : قانون الآية القرآنية أمضى من السيف .

التاسع والسبعون : قانون ترغيب الآية القرآنية بالتوبة .

الثمانون : قانون الكفر ظلم للنفس .

الواحد والثمانون : قانون انقطاع نعم الدنيا .

الثاني والثمانون : قانون إنعدام صفة الدوام عن أي متاع في الدنيا .

الثالث والثمانون : قانون الكفر مانع من استدامة النعم .

الرابع والثمانون : قانون البلاء العاجل للذين كفروا .

الخامس والثمانون : قانون ذات الدنيا متاع .

السادس والثمانون : قانون جعل الكفر الدنيا متاعاً قليلاً ، ليكون متاعاً في متاع.

السابع والثمانون : قانون الكفر ماحق للنعم .

الثامن والثمانون : قانون الكفر سبب لزوال النعم .

التاسع والثمانون : قانون المبادرة إلى الإيمان سبب لدوام النعم ، وبالشكر تدوم النعم .

التسعون : قانون كثرة أسفار الذين كفروا استدراج لهم .

الواحد والتسعون : قانون كل آية قرآنية إنذار للذين كفروا.

الثاني والتسعون : قانون تعجيل الكفر بزوال النعم.

الثالث والتسعون : قانون ذات النعم وسلبها أمران بيد الله عز وجل.

الرابع والتسعون : قانون كل آية قرآنية من جوامع الكلم.

الخامس والتسعون : قانون جوامع الكلم في القرآن من اللامتناهي.

السادس والتسعون : قانون متاع قليل ، لتختزل أيام سفر ولهو الذين كفروا بقلّة متاع زائل .

السابع والتسعون : قانون مأوى الذين كفروا النار .

الثامن والتسعون : قانون الملازمة بين الكفر والمتاع القليل ، فالتلبس بالكفر يجعل زينة الحياة الدنيا متاعاً زائلاً سريعاً.

التاسع والتسعون : قانون كل آية قرآنية من مصاديق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العامة للناس كافة .

المائة : قانون التضاد بين المؤمن والكافر من حيث الإنتفاع من النعم ، إذ يتخذها المؤمن وسيلة للصالح ومحاربة الفساد في الدنيا ، وإدخالها للأجر والثواب في الآخرة .

الواحد بعد المائة : قانون أيام الذين كفروا متاع قليل .

الثاني بعد المائة : قانون شأن وسطوة الذين كفروا متاع قليل .

الثالث بعد المائة : قانون التمايز بين المؤمنين والذين كفروا في الحياة

الدنيا بشكر المؤمنين الله عز وجل على النعم.

الرابع بعد المائة : قانون الكفر ماحق لنعمة الثقلب في البلاد .
الخامس بعد المائة : قانون كفر الإنسان سبب لحرمان ذريته من ذات
النعمة التي رزقه الله .

السادس بعد المائة : قانون الكفر تسريع لزوال النعمة .
السابع بعد المائة : قانون قلة متاع الذين كفروا في الحياة الدنيا .
الثامن بعد المائة : قانون ذم الكفر دعوة للإيمان .
التاسع بعد المائة : قانون الآية القرآنية تذكير بعالم الحساب .
العاشر بعد المائة : قانون كل عاقل يسعى للنجاة من النار .
الحادي عشر بعد المائة : قانون صلاة الخوف تخفيف وحاجة .
الثاني عشر بعد المائة : قانون الحياة الدنيا مناسبة وفرصة للتوبة والإنابة .
الثالث عشر بعد المائة : قانون بؤس الكفار في مواطن الآخرة .
الرابع عشر بعد المائة : قانون وهو لو دارت الكلمة القرآنية بين كونها
عربية أو أعجمية فالأصل هو عربيتها لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ﴾^(١) .

الخامس عشر بعد المائة : القانون العام بقصر الآيات المكية ، وقلة
كلماتها .

السادس عشر بعد المائة : قانون الإنذار القرآني بالتوبة والإنابة .
السابع عشر بعد المائة : قانون إنتفاع الناس من الوعيد القرآني بالتوبة
والإنابة .
الثامن عشر بعد المائة : قانون آية الإنذار مادة للإحتجاج على الذين
كفروا .

التاسع عشر بعد المائة : قانون الوعيد للذين كفروا تثبيت للمسلمين في
مقامات الإيمان .

العشرون بعد المائة : قانون ذم آية البحث للذين كفروا حرب على النفاق ، ودعوة عامة للتنزه عنه .

الواحد والعشرون بعد المائة : قانون الجزاء بالحسنى للذين استجابوا لله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله وأداء الفرائض العبادية.

الثاني والعشرون بعد المائة : قانون كراهة طول الأمل.

الثالث والعشرون بعد المائة : قانون انتفاع عامة الناس من فيوضات وأحكام الآية القرآنية.

الرابع والعشرون بعد المائة : قانون عاقبة المتاع.

الخامس والعشرون بعد المائة : قانون تمتع الذين كفروا بالنعم ، وهذه النعم هبة من عند الله .

السادس والعشرون بعد المائة : قانون نصر الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعلوم الغيب .

السابع والعشرون بعد المائة : قانون الإيمان عصمة من الافتتان والغواية.

الثامن والعشرون بعد المائة : قانون مستحدث وهو أن الخطاب الخاص إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا أريد منه عامة المسلمين فإن فيه خصيصة وهي الوظائف الرسالية الخاصة بالعصمة الشخصية ، والأخذ بيد المسلمين والمسلمات للإمتثال لمضمون الخطاب الخاص الذي هو عام في حكمه .

التاسع والعشرون بعد المائة : قانون الإستدراج .

الثلاثون بعد المائة : قانون الموضوع أعم من اللفظ.

الواحد والثلاثون بعد المائة : قانون الكفر قاطع لكثرة الأسفار.

الثاني والثلاثون بعد المائة : قانون ترقب زوال النعمة عن الكافرين.

الثالث والثلاثون بعد المائة : قانون الحضور اليومي للقرآن بين الناس .

الرابع والثلاثون بعد المائة : قانون تجدد الإنذار القرآني كل يوم .

الخامس والثلاثون بعد المائة : قانون إستحضار الناس للإنذار القرآني في

الوجود الذهني .

السادس والثلاثون بعد المائة : قانون التدبر العام بالإنذار القرآني .
 السابع والثلاثون بعد المائة : قانون غرور وإغواء الذين كفروا .
 الثامن والثلاثون بعد المائة : قانون المتاع القليل .
 التاسع والثلاثون بعد المائة : قانون كثرة الأسفار حجة .
 الأربعون بعد المائة : قانون التضاد بين الإستجابة والمتاع القليل .
 الواحد والأربعون بعد المائة : قانون كل آية قرآنية دعوة للتوبة والإنابة .
 الثاني والأربعون بعد المائة : قانون الكفر ضلالة .
 الثالث والأربعون بعد المائة : قانون قرآني حاضر في الدنيا وهو رد دعاء
 الذين كفروا .

الرابع والأربعون بعد المائة : قانون الكفر برزخ دون الدعاء .
 الخامس والأربعون بعد المائة : قانون حرمة جعل الأصنام واسطة
 وشفيعاً إلى الله .

السادس والأربعون بعد المائة : قانون الإعجاز في السنة النبوية .
 السابع والأربعون بعد المائة : قانون إعجاز السنة الذاتي .
 الثامن والأربعون بعد المائة : قانون كثرة الأسفار وسيلة .
 التاسع والأربعون بعد المائة : قانون الدخول في الإسلام نجاة في
 النشأتين .

الخمسون بعد المائة : قانون وحدة تنزيل الكتب السماوية .
 الواحد والخمسون بعد المائة : قانون كل الكتب السماوية التي نزلت
 على الرسل هي من عند الله عز وجل .

الثاني والخمسون بعد المائة : قانون الآية القرآنية تأديب وتعليم
 للمسلمين ، ومنه ذكر الكتب السماوية السابقة بلفظ الكتاب لإرادة اتحادها
 في الموضوع والحكم .

الثالث والخمسون بعد المائة : قانون لا ينزل من السماء إلا كلام وأمر
 ومشية الله .

الرابع والخمسون بعد المائة : قانون نار الآخرة حتم .

الخامس والخمسون بعد المائة : قانون التلبس بالكفر سبب الخزي في الآخرة سواء من الأولين أو الآخرين .

السادس والخمسون بعد المائة : قانون سكن الملائكة في السماء .

السابع والخمسون بعد المائة : قانون السلم المجتمعي التلقائي في المدينة بتهذيب القرآن والسنة النبوية للنفوس ، وإصلاح المجتمعات ، ونبذها للعنف والغزو والثأر والنهب والسلب .

الثامن والخمسون بعد المائة : قانون من خصائص الأنبياء وهو الدعوة إلى الله في الأماكن العامة .

التاسع والخمسون بعد المائة : قانون نداء الرسالة العام للإسلام .

الستون بعد المائة : قانون صيرورة أسواق مكة بعد البعثة مرآة للتقوى بصلاح النفوس وصحة المعاملات والإبتعاد عن الغش والخداع .

الواحد والستون بعد المائة : قانون الملازمة بين الإيمان والمسألة .

الثاني والستون بعد المائة : قانون لا يغفر الذنوب إلا الله عز وجل .

الثالث والستون بعد المائة : قانون الكفر يؤدي إلى النار .

الرابع والستون بعد المائة : قانون تقوى الله تؤدي إلى الجنة .

الخامس والستون بعد المائة : قانون جعل آيات القرآن عالم الآخرة حاضراً في الوجود الذهني .

السادس والخمسون بعد المائة : قانون انصات الناس طوعاً وانطباعاً

لآيات القرآن ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

السابع والستون بعد المائة : قانون مخاطبة آيات القرآن للعقول .

الثامن والستون بعد المائة : قانون طرد آيات القرآن الغفلة عن الناس ،
 قال تعالى ﴿ نَحْنُ نُقْصِّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
 وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾^(١).
التاسع والستون بعد المائة : قانون الملازمة بين الكفر والخسارة والعذاب
الأخروي .

السبعون بعد المائة : قانون الملازمة بين التقوى والنعيم الأخروي .
الواحد والسبعون بعد المائة : قانون الدنيا مع الكفر متاع قليل .
الثاني والسبعون بعد المائة : قانون إقامة الذين كفروا في نار جهنم في
الآخرة .
الثالث والسبعون بعد المائة : قانون مطرقة منكر ونكير.
الرابع والسبعون بعد المائة : قانون التضاد بين الكفر والإيمان في الماهية
والجزاء .

الخامس والسبعون بعد المائة : قانون الإيمان ﴿ تَجَارَةً لَّنِ بُيُوتٍ ﴾^(٢) وخير
محض في النشاطين .
السادس والسبعون بعد المائة : قانون تقوى الله مدد في الصبر .
الثامن والسبعون بعد المائة : قانون تقوى الله واقية من الإنذار بتقلب
الذين كفروا في البلاد.
التاسع والسبعون بعد المائة : قانون السلامة من الإغترار بالذين كفروا
من تقوى الله.

الثمانون بعد المائة : قانون سرعة زوال النعم من المال والجاه عن الذين
كفروا ، بينما نعمة الإيمان هي الأسمى وهي باقية ولا تستلزم مالا أو جاهاً .
الواحد والثمانون بعد المائة : قانون عدم إستدامة النعمة مع الكفر.

(١) سورة يوسف ٣.

(٢) سورة فاطر ٢٩.

الثاني والثمانون بعد المائة : قانون عدم حيلولة التلاوة دون الربط بين الآيات في المعنى والدلالة .

الثالث والثمانون بعد المائة : قانون ذات تلاوة القرآن فقاها وارتقاء في سلم المعارف .

الرابع والثمانون بعد المائة : قانون نصر الله انتقاص لمتاع الذين كفروا .

الخامس والثمانون بعد المائة : قانون عالم الآخرة مرآة للحياة الدنيا .

السادس والثمانون بعد المائة : قانون ترتب النجاة لكل لإنسان على

اجتنابه الكفر الكفر والجحود ، وبالهداية إلى سبل الإيمان والرشاد.

السابع والثمانون بعد المائة : قانون الإنذار بعث على التقوى.

الثامن والثمانون بعد المائة : قانون تزايد عدد المسلمين مع تقادم الأيام

والسنين .

التاسع والثمانون بعد المائة : قانون تحلي المسلمين والمسلمات بالصبر.

التسعون بعد المائة : قانون بعث الخوف في قلوب الكفار.

الواحد والتسعون بعد المائة : قانون قبح الإنتفاع من النعم من منازل

الكفر والجحود .

الثاني والتسعون بعد المائة : قانون عاقبة الكفر الخلود في النار .

الثالث والتسعون بعد المائة : قانون ندب الناس إلى العمل الصالح

والسعي إلى الجنة.

الرابع والتسعون بعد المائة : قانون كل آية قرآنية رحمة للناس جميعاً .

الخامس والتسعون بعد المائة : قانون الآية القرآنية رحمة للإنس والجن.

السادس والتسعون بعد المائة : قانون الآية القرآنية رحمة في الدنيا وفي

الآخرة .

السابع والتسعون بعد المائة : قانون حضور الآية القرآنية مع تاليها في

القبر وعالم البرزخ .

الثامن والتسعون بعد المائة : قانون ذكر المؤمنين لله عز وجل عن قيام

وقعود واضطجاع على نحو يومي متجدد .

التاسع والتسعون بعد المائة : قانون التفكير في صنع وخلائق الله ذكر وعبادة.

المائتان : قانون الإمتناع عن الشكر لله جحد.

الواحد بعد المائتان : قانون ذكر الجنة باعث للصلاح.

الثاني بعد المائتان : قانون من الإرادة التكوينية ، وهو الخير والنعم العظيمة التي أعدها الله للأبرار الذين يطيعونه في الدنيا.

الثالث بعد المائتين : قانون الجمع بين كل آيتين رحمة عامة بالناس .

الرابع بعد المائتين : قانون الجمع بين كل آيتين من القرآن مدرسة لاستنباط المسائل والأحكام .

الخامس بعد المائتين : قانون بعث الجمع بين كل آيتين من القرآن الشوق في النفوس للتوبة والإنابة .

السادس بعد المائتين : قانون حاجة علم التفسير للجمع بين كل آيتين من القرآن.

السابع بعد المائتين : قانون انتفاء التعارض بين آيات القرآن .

الثامن بعد المائتين : قانون الجمع بين كل آيتين دعوة يومية متجددة للهداية والصلاح .

التاسع بعد المائتين : قانون الجمع بين آية البشارة وآية الإنذار بعث للنفرة في النفوس من الكفر ، وترغيب للناس للإيمان .

العاشر بعد المائتين : قانون انتشار الإسلام بالحجة والبرهان وآيات القرآن وليس بالسيف .

الحادي عشر بعد المائتين : قانون الثناء على المتقين .

الثاني عشر بعد المائتين : قانون البشارة بالجنة باعث على الإيمان ، وإخلاص الطاعة لله عز وجل .

الثالث عشر بعد المائتين : قانون الملازمة بين تقوى الله والصلاح ، فيجتهد المؤمن بطاعة الله.

الرابع عشر بعد المائتين : قانون التباين في العاقبة.

الخامس عشر بعد المائتين : قانون الآية القرآنية مدد وعون في النشاطين.
السادس عشر بعد المائتين : قانون اجتماع الدعوة للإيمان مع الإنذار في القرآن .

السابع عشر بعد المائتين : قانون قبح اختيار الكفر .
الثامن عشر بعد المائتين : قانون التباين والتضاد بين حال الذين كفروا وحال المؤمنين في الآخرة.

التاسع عشر بعد المائتين : قانون انتفاء الوسط بين دخول الجنة ودخول النار ، قال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾^(١).

العشرون بعد المائتين : قانون من يدخل الجنة ثواباً يكون خالداً فيها ولا يخرج منها أبداً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

الواحد والعشرون بعد المائتين : قانون الآخرة دار الحساب والجزاء .
الثاني والعشرون بعد المائتين : قانون تقوى الله والخشية منه حاجة للفرد والجماعة .

الثالث والعشرون بعد المائتين : قانون الثناء على المتقين ، ودلالة هذا الثناء على حب الله عز وجل لهم .

الرابع والعشرون بعد المائتين : قانون الملازمة بين تقوى الله وبين الخلود في الجنان.

الخامس والعشرون بعد المائتين : قانون نعم الجنة لا تقضى أبداً ، قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٣).

(١) سورة الحشر ٢٠.

(٢) سورة يونس ٦٢.

(٣) سورة الحجر ٢١.

السادس والعشرون بعد المائتين : قانون إنعدام الفترة في نعيم الجنة .
السابع والعشرون بعد المائتين : قانون الصلاة اليومية مدرسة فقاهاة ،
 قال تعالى ﴿كَلَّا إِن كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيْنِ﴾^(١).
الثامن والعشرون بعد المائتين : قانون صيرورة الوقائع بآيات القرآن حقاً
 وصدقاً .

التاسع والعشرون بعد المائتين : قانون الملازمة بين الصلاة وعمارة
 الأرض .

الثلاثون بعد المائتين : قانون الملازمة بين الإيمان والصلاة .
الواحد والثلاثون بعد المائتين : قانون ملازمة الصلاة لعمارة الأرض ،
 فقد تعاهد آدم وحواء الصلاة وجعلها تركة للأبناء .

الثاني والثلاثون بعد المائتين : قانون مخاطبة آيات القرآن للعقول .
الثالث والثلاثون بعد المائة : قانون ما عند الله عز وجل خير للمؤمنين
 الذين يعملون الصالحات .

الرابع والثلاثون بعد المائتين : قانون الهجرة أمان من الإفتتان .
الخامس والثلاثون بعد المائتين : قانون كل آية قرآنية تتضمن الإناس
 سواء في منطوقها أو مفهومها .

السادس والثلاثون بعد المائتين : قانون توجه الأبرار بالدعاء (ربنا) لما
 فيه من معاني التوحيد .

السابع والثلاثون بعد المائتين : قانون تنزه الأبرار عن إيذاء الآخرين .
الثامن والثلاثون بعد المائتين : قانون إعراض الأبرار عمن يؤذيهم ،
 والصفح عنه .

التاسع والثلاثون بعد المائتين : قانون ملازمة الأبرار لمنازل رضوان الله .
الأربعون بعد المائتين : قانون وجود أمة من الأبرار في كل زمان .
الواحد والأربعون بعد المائتين : قانون الموت ليس عدماً محضاً .

من الردود الكريمة على عدد من أجزاء هذا السفر المبارك

- ١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
- ٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
- ٣- سيادة رئيس مجلس القضاء الأعلى / العراق .
- ٤- سيادة مستشار الأمن القومي السيد قاسم الأعرجي .
- ٥- الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب.
- ٦- سعادة أ.د. رئيس جامعة ديالى .
- ٧- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل / المملكة العربية السعودية .
- ٨- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان / الجمهورية السودانية.
- ٩- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية / المدينة المنورة.
- ١٠- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
- ١١- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر / الجمهورية الجزائرية .
- ١٢- سعادة أ.د. رئيس جامعة البصرة / العراق.
- ١٣- سعادة أ.د. رئيس جامعة القادسية / العراق.
- ١٤- سعادة أ.د. رئيس جامعة الكوفة / العراق
- ١٥- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا / المملكة الأردنية الهاشمية.
- ١٦- كلية الإمام الاوزاعي للدراسات الإسلامية/ بيروت.

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ / ٥
١٤٠٠ / ٨

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد،.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم.

نتضرع إلى الله العلي القدير أن يلهمكم العلم النافع وان يجعله في ميزان حسناتكم.

وشكر الله لكم حسن عملكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر
محمود
(الدكتور) محمد سيد طنطاوي

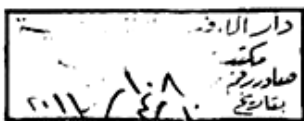
في: ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس □

٦/١٩

بسم الله الرحمن الرحيم



المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،

فإنه ليسعدني أن أتقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من من الجزء الثاني والثمانين.

وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ. د. علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية



جمهورية العراق
مجلس القضاء الأعلى

سماحة الشيخ صالح الطائي "المحترم"

تحية طيبة

إشارة إلى كتابكم المرقم (١٧/٧٢٨٥) المؤرخ في ٢٠١٧/١٢/١٧.

تلقينا ببالف الإعتزاز إهداءكم نسخة من كتابكم الموسوم (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء التاسع والخمسين بعد المائة، نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية.

مع التقدير

القاضي

فائق زيدان

رئيس مجلس القضاء الأعلى

٢٠١٧/١٢/٢١

Republic of Iraq
Prime Ministers
National Security Advisory



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رئاسة الوزراء
مستشارية الأمن القومي

العدد: ٢٢٥١
التاريخ: ٢٠٢١ / ١١ / ٦

مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي (دامت بركاته)

السلام عليك عليكم ورحمة الله وبركاته

ببالغ الإمتنان والغبطة تلقينا هديتكم الكريمة (الجزء السادس عشر بعد المائتين) من التفسير المبارك شاكرين حسن معالجتكم لهذا الموضوع المهم ونشد على عضدكم لتقدموا للأمة كل ما ينفعهم وينير بصيرتهم ويجلي الرين عن قلوبهم ليفهموا كتاب الله كما أراد سبحانه أن يفهموه ويعملوا بأحكامه ليكون لهم في الدنيا، مرشدا وفي الآخرة شفيعا. ونضع أنفسنا وامكاناتنا لخدمة هذا المجهود المبارك سائلين المولى القدير أن يوفقكم لكل خير.

مع خالص الدعاء

اخوكم

قاسم الاعرجي

مستشار الامن القومي



Council Of Arab Economic Unity
Subsidiary to Arab League
Union of The Arab Historians
General Secretary



مَجْلِسُ الْوَحْدَةِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتَاوِيغِ لِمَجْمَعَةِ الدَّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ
اِتِّحَادُ الْمَوْرِخِيْنَ الْعَرَبِ
الْاَمَانَةُ الْعَامَّةُ

العدد : ٨٩ / ث
التاريخ : ٤ رمضان ١٤٤٣
الموافق : ٢٠٢٢ / ٤ / ٥

إلى / سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :
وأسال الله تعالى أن يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم أنه سميع مجيب الدعاء
تسلمت مع بالغ الشكر والتقدير والإمتنان والإعتزاز اهداءكم لنا الجزء الواحد
والثلاثين بعد المائتين من تفسيركم للقرآن وهو بعنوان (آيات السلم محكمة غير
منسوخة) ، وأن هذا الإنجاز يعبر عن مستوى ما متعكم به الله تعالى من امكانات
متميزة في الإبداع الفكري والعلمي في مجال تفسيركم للقرآن الكريم ، ولم اقرأ أو
اسمع أن هنالك منجزاً في تفسير القرآن العظيم بمثل ما قدمتموه ، وأني لاعجز
عن التعبير عن مدى اعجابي واحترامي وتقديري لما جباكم به الله تعالى من
امكانية علمية فريدة ومتميزة .

داعياً الله تعالى لكم بموفور الصحة والسعادة والأجر الفضيل من أجل تقديم
المزيد من العطاء لخدمة الإسلام والمسلمين في زمن شح به العطاء والإنتاج الفكري
الإسلامي ، دعائي من الله تعالى لكم بمزيد من الصحة والعافية ومزيد من الإنتاج
الرائع المتميز .

وسلامي للعائلة العزيزة جميعاً الذين وفروا لك أجواء هذا العمل العلمي
التميز وجزاكم الله خير الجزاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



الأستاذ الدكتور محمد جاسم المضهذاني

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

العميد / رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي

والنقراة العلمي للدراسات العليا



Republic of Iraq
Ministry of Higher Education &
Scientific of Research
University of Diyala



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
مكتب رئيس الجامعة

No.:
Date:

العدد ٨٠
التاريخ ٢٠٢٣ / ١ / ١١



سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

تلقينا بكل تقدير وامتنان اهدائكم نسخة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء الثالث
والأربعون بعد المائتين ، وتقدم بخالص الشكر والعرفان على هذا الاهداء ، داعياً الله العلي
التقدير ان يمدكم بعونه وتوفيقه ، وان يسدد خطاكم ويكمل اعمالكم بالنجاح انه سميع مجيب .
ومن الله التوفيق


أ.د. عبد المنعم عباس كريم

ع / رئيس جامعة ديالى
٢٠٢٣ / ١ / ١٠

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة الإسلامية العالمية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
{ ٠٣٧ }

الموضوع:

فضيلة الشيخ / صالح الطائي
مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن
وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
ص.ب. ٢١١٦٨ مملكة البحرين
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد
تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١
وتاريخ ٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم الإيمان
في تفسير القرآن - الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.
يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على
إهتمامكم المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى
مكتبة الجامعة للإطلاع عليها، سائلا المولى جلت قدرته للجميع
التوفيق والسداد.
وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين الساعاتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

المرمرة: ج ك/م ١٧/م ٣/ج
التاريخ: 2016/8/16م

السادة/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا ، وتغمرنا السعادة بالإصدارات التي تتوالى إلينا بانتظام من مكتب المرجع الديني في (معالم الإيمان في تفسير القرآن) والذي كان آخر هذه الإصدارات (الجزء السادس والثلاثين بعد المائة) والذي تشرفنا بإستلامه بموجب خطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصادر في ٢٠١٦/٧/١٣م، وذلك إثراءاً للمعرفة في مجال تفسير آيات القرآن، خدمة للباحثين والمهتمين بأمر التفسير القرآني، والتي أضحت متاحة في الأقسام المختصة بالمكتبات الأكاديمية في الجامعات ومراكز البحوث وجامعة كردفان تحظى بأعداد وافرة منها في مكتبها المركزية.

ختاماً لكم الشكر والعرفان على هذا الصنيع، نفعلنا الله به، وأثابكم عليه خير الجزاء .

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبد الله عجب الدور
مدير الجامعة



الرقم: ١١٤٦ / ١ / ١٣٢
التاريخ: ١٠ / ٢ / ١٤٣٦ هـ
الملاحظات:
الموضوع:



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وزارة التعليم العالي
إمارة المنطقة الشرقية
مكتب المصروف
(٠٣٢)

سلمه الله

معالي الشيخ / صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

فأسأل الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تحياتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د / عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديري

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد : ٢٩٢ / ١
التاريخ : ٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م
١٤٣٨ / ١ / ١٠ هـ

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء
الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز
وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.
ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين
رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



رئاسة الجامعة

قمتظينة نفي: 2015/03/25

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

قمتظينة

رقم 498... / رج / 2014

إلى السيد المحترم / الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني

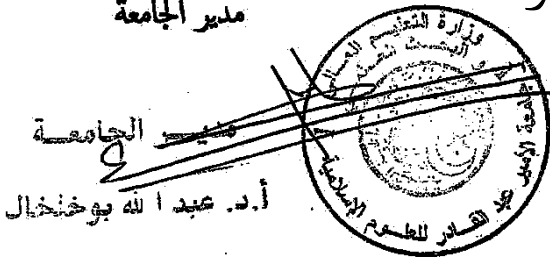
تحية طيبة وبعد :

تلقينا نحن أ.د. / عبدالله بوخلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في تفسير
القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلقاة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا
نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة



مدير الجامعة

أ.د. عبدالله بوخلخال

Ministry of Higher Education &
Scientific Research
Basra University
Depr. Of Public Relations & Media



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة البصرة
قسم العلاقات العامة والإعلام

العدد: ٢٤١٢٧٧
التاريخ: ٢٠٢٤/٤/٢٣

إلى // الشيخ عبد الله الشيخ صالح الطائي المحترم
مدير مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
م // شكر على إهداء

تحية طيبة ...

إشارة إلى كتابكم ذي العدد (٢٣ / ٤ / ١٩) في
٢٠٢٣ / ٣ / ٢٩

ببالغ الإعتراز والتقدير تسلمنا إهداءكم القيم لنا نسخة
من الجزء السادس والأربعين بعد المائتين من (معالم
الإيمان) ... نستثمر هذه الفرصة لنعبر عن شكرنا
وتقديرنا لهذا الإهداء مؤكدين سعادتنا الدائمة بالجهود
المتميزة ، متمنين دوام التواصل والعطاء خدمة لعراقنا
العزیز.

مع التقدير ...

الأستاذ الدكتور

سعد شاهين حمادي

رئيس الجامعة

Republic of Iraq
Ministry Of Higher Education
and Scientific Research
University of Al-Qadisiya
Chief of University Office



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية
مكتب رئيس الجامعة

Ret:

Date:

العدد: ١٥٦٦ / ٢٠١٥

التاريخ: ١٩ / ٢ / ٢٠١٥

إلى / مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة ...

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير الجزء السابع بعد المائة من التفسير وهو
القسم الأول من تفسير (أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك
الأيام نداولها بين الناس) شاكرين لكم اهداءكم متمنين لكم مزيداً من
الإرتقاء والأزدهار والتطور.

... مع التقدير

٢
١

أ.د. أحسان كاظم شريف القرشي

رئيس الجامعة

٢٠١٥/٢/٢٠

Ministry of Higher Education
and Scientific Research
**UNIVERSITY OF
K U F A**
President's Office



وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مكتب رئيس الجامعة

Ref. :

Date: / /

((بجيشنا والحشد الشعبي وقوات البيشمركة العراق أقوى))
إلى / سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) المحترم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

ببالغ الإمتنان والتقدير تسلمنا نسخة من مؤلفكم القيم الموسوم (معالم الإيمان في تفسير القرآن) بجزئه العشرين بعد المائة وإننا وإذ تقدم لكم بالشكر والإمتنان على مبادرتكم الطيبة، فأنا نبتهل للباري جل في علاه أن يوفق سماحتكم لما يحبه ويرضاه، ومنه العون والسداد.

مع أسى آيات تقديري واحترامي...

أ. د. عقيـل عبد ياسين
رئيس جامعة الكوفة
٢٠١٥ / ٨ / ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref. _____

Date _____

الرقم ٨١٦٠:٨١٦٩ / ٢٠١٦

التاريخ ٢٠١٦ / ٥ / ٢٦

الموافق ٢٠١٦ / ٥ / ٢٦

سبادة الأُمّ الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر واعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢)
تأريخ ٢٠١٢/٥/٢٦م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في
الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

واني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم
هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن
يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم
والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعامة

بسم الرحمن الرحيم

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

بيروت في ٩/ ربيع الأول/ ١٤٤٠هـ

الموافق ٢٤/ ١١/ ٢٠١٨م

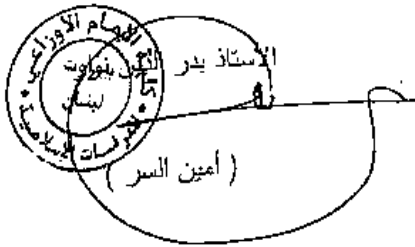
سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتقدم كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية بأطيب تمنياتها،
وتشكركم على الجزء (١٧١) الذي وصلنا من جانبكم من كتاب: "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" والذي يتضمن قراءة في آيتين من القرآن بما يدل
على أن النبي (ص) كان لا يسعى إلى الغزو ولم يقصده ولم يدع إليه.
أملين الإستمرار في إرسال الأجزاء التي ستصدر منها مستقبلاً،
شاكرين لكم حسن تعاونكم الدائم معنا وداعين الله تعالى أن يوفقنا وإياكم
لما فيه خير الإسلام والمسلمين.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



المحتويات

المقدمة.....	٣
قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾	١٢
الأعراب واللغة	١٢
في سياق الآيات	١٢
الوجه الأول : صلة آية البحث بالآية السابقة ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾	١٢
لماذا متاع قليل	١٤
تأسيس علم الآخرة.....	١٦
إنذار الذين كفروا	١٧
قلة كلمات الآيتين	١٧
الوجه الثاني : الصلة بين آية البحث بالآية قبل السابقة	١٨
آية السياق نعمة عامة.....	٢٤
النسبة بين الإستجابة والوعد	٢٥
قانون الإستجابة على الفور	٢٨
الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾	٢٩
الصلة بين خاتمتي الآيتين	٣١

٣٤	قلة كلمات الآيتين
٣٥	دلالة صيغة الجمع (وَلَا تُخْزِنَا)
٣٧	لماذا الواو في ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾
٣٩	قانون الإيمان واقية من الخزي
٣٩	قانون نزول الآية خزي للذين كفروا
٤١	(ربنا) دعاء مستقل
٤٢	الدعاء لغة واصطلاحاً
٤٥	بين الدعاء وطلب الرزق
٤٦	آداب الدعاء
٤٩	التأمين على الدعاء
٥١	نعمة الدعاء
٥٣	بحث عرفاني
٥٥	التضاد بين الوعد والوعيد
٥٦	لماذا ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾
٥٧	لفظ (الكتاب)
٥٨	قانون آية السياق فقاهاة
٥٩	علم المناسبة

- الوجه الرابع : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِياً يُنَادِى
لِلْإِيْمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ
الْأَبْرَارِ﴾. ٦٠.....
- التباين بين الإيمان والكفر ٦٠.....
- الشهادة العامة على النداء ٦٢
- قانون السماع العام لنداء الإيمان ٦٣
- تقدير ﴿سَمِعنا مُنَادِياً﴾ ٦٤.....
- نداء اللجوء ٦٥
- الشهادة العامة على النداء ٦٦
- قانون كل آية رحمة ٦٧
- الزجر عن الإرتداد ٦٨
- إعجاز الآية الذاتي ٦٩
- إعجاز الآية الغيري ٧١.....
- وجوه المتاع ٧٢
- آية البحث موعظة ٧٣.....
- الآية سلاح ٧٤
- بين الآية والسيف ٧٧.....
- قانون الكفر ظلم للنفس ٧٨.....

٨٠.....	الهجرة أمن عام
٨٣.....	مفهوم الآية
٨٤.....	قانون انقطاع نعم الدنيا
٨٥.....	إفاضات الآية
٨٦.....	علم التضاد في أثر ونتائج المعركة عند المسلمين وعند الكفار
٩١.....	الآية لطف
٩٢.....	الآية بشارة
٩٤.....	الآية إنذار
٩٥.....	الصلة بين أول وآخر الآية
٩٧.....	من غايات الآية
٩٨.....	جوامع الكلم
١٠٠.....	علم التقدير
١٠١.....	التفسير
١٠١.....	قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾
١٠٣.....	الابتداء بالصفة
١٠٥.....	انقطاع النعم
١٠٧.....	علم المناسبة
١٠٩.....	النفع العام من آية البحث

- بحث بلاغي ١١٠
- شواهد قلة المتاع ١١٢
- قانون صلاة الخوف تخفيف وحاجة ١١٥
- كيفية صلاة الخوف ١١٨
- إسلام ثُمَامَة بن أثال ١١٩
- قوله تعالى ﴿ثُمَّ﴾ ١٢٣
- قانون بؤس الكفار في مواطن الآخرة ١٢٥
- من معاني (ثم) ١٢٧
- قوله تعالى ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ١٢٩
- أسماء النار في القرآن ١٣٠
- علم المناسبة ١٣٤
- قوله تعالى ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ١٣٦
- علم المناسبة ١٣٨
- التباين والتضاد يوم القيامة ١٤٠
- التضاد في الجزاء ١٤١
- الحوض ١٤٤
- قانون كراهة طول الأمل ١٤٥
- قانون عاقبة المتاع ١٤٦

١٤٨	 بحث بلاغي
١٥٠	 موضوعية الآية القرآنية
١٥١	 الآية من علم الغيب
١٥٢	 تمتع الكفار قليل
١٥٣	 من مصاديق قلة المتاع
١٥٥	 هل تختص آية البحث بأيام التنزيل
١٥٦	 عصمة النبي محمد (ص) في حديث النفس
١٥٧	 بحث منطقي
١٥٨	 العطف الموضوعي
١٥٩	 لماذا ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾
١٦٢	 المراد من القلب
١٦٢	 علة عدم الإغترار
١٦٣	 قافلة أمية بن خلف
١٦٤	 قانون الإستدراج
١٦٨	 إنقطاع أسفار الذين كفروا
١٧٠	 قانون الكفر قاطع لكثرة الأسفار
١٧١	 تأمر قريش ضد النبي (ص) وأصحابه
١٧٤	 قانون ترقب زوال النعمة عن الكافرين

- ١٧٥ قانون غرور وإغواء الذين كفروا
- ١٧٩ قانون المتاع القليل
- ١٨٠ قانون كثرة الأسفار حجة
- ١٨٢ عاقبة أسفار الكافرين
- ١٨٤ قانون التضاد بين الإستجابة والمتاع القليل
- ١٨٦ قانون الكفر ضلالة
- ١٨٨ التضاد بين السنة النبوية والإرهاب
- ١٩٠ قانون الإعجاز في السنة النبوية
- ١٩٢ الفرق بين السنة والعام والحول والحجة
- ١٩٣ قانون كثرة الأسفار وسيلة
- ١٩٦ المراد من الكتاب الذي أنزل من قبل
- ١٩٨ المراد من كلام الله
- ١٩٩ عجالة المشركين في معركة بدر
- ٢٠١ قانون نار الآخرة حتم
- ٢٠٢ خلق الجنة والنار بشارة وإنذار
- ٢٠٤ تسمية حجة الوداع
- ٢٠٥ قدوم وفد بني تميم
- ٢١٠ الدعوة في الأسواق

- قانون الملازمة بين الإيمان والمسألة ٢١٥
- النسبة بين النداء للإيمان و﴿أَنْ آمَنُوا﴾ ٢١٦
- قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ الآية ١٩٨ ٢١٩
- الإعراب واللغة ٢١٩
- في سياق الآيات ٢٢١
- الوجه الأول : صلة آية البحث بالآية السابقة ٢٢١
- التضاد بين النعيم والجحيم في الآخرة ٢٢٤
- قانون مطرقة منكر ونكير ٢٢٥
- الوجه الثاني : صلة آية البحث بالآية قبل السابقة ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ٢٣١
- إعجاز الجمع بين النهي والإستدراك ٢٣٥
- دلالة التضاد بين الذم والمدح ٢٣٦
- قانون الإنذار بعث على التقوى ٢٣٧
- مسائل في الجمع بين الآيتين ٢٣٨
- قانون بعث الخوف في قلوب الكفار ٢٣٩
- الدعوة لإختيار النعيم ٢٤٢

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا
أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الثَّوَابِ ﴾ ٢٤٣

بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ٢٤٤

قانون ذكر الجنة باعث للصالح ٢٤٥

الجمع بين الآيتين من القرآن ٢٤٨

النسبة بين الذين آمنوا والمتقين ٢٤٩

قانون الشاء على المتقين ٢٥٠

إعجاز الآية الذاتي ٢٥٢

إعجاز الآية الغيري ٢٥٤

قانون التباين في العاقبة ٢٥٥

الآية سلاح ٢٥٧

قانون الآية القرآنية مدد وعون في النشاطين ٢٥٨

مفهوم الآية ٢٥٩

إفاضات الآية ٢٦٢

الآية لطف ٢٦٣

- ٢٦٤ الآية بشارة
- ٢٦٦ رومان فتان القبور
- ٢٦٨ تعقب منكر ونكير
- ٢٦٩ الآية إنذار
- ٢٧١ الصلة بين أول وآخر الآية
- ٢٧٥ دلالة صيغة الجمع (جنات)
- ٢٧٦ من غايات الآية
- ٢٧٨ التفسير
- ٢٧٨ قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾
- ٢٧٩ قوله تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
- ٢٨٠ قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾
- ٢٨١ قوله تعالى ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾
- ٢٨٢ سؤال الوفاة مع الأبرار
- ٢٨٤ هلاك أبرهة وجنوده مقدمة لبعثة النبي محمد (ص)
- ٢٨٦ قانون الملازمة بين الصلاة وعمارة الأرض
- ٢٨٩ المراد من أولي الألباب
- ٢٩١ مخاطبة العقول
- ٢٩٢ ذم المقالات الباطلة

٢٩٦	بحث روائي
٢٩٨	قانون الهجرة أمان من الإفتتان
٣٠٠	علم الإيناس في الآية القرآنية / علم جديد
٣٠٢	مصدق للإيناس
٣٠٤	نفحات الإستدراك في آية البحث
٣٠٦	خصائص آدم عليه السلام
٣٠٨	ذكر قريش في القرآن
٣٠٩	قوله تعالى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾
٣١٢	بحث بلاغي
٣١٤	قوانين الجزء ٢٦٨
٣٣٠	من الردود الكريمة على عدد من أجزاء هذا السفر المبارك

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٦٩٩ لسنة ٢٠٢٤

طُبِعَ هَذَا الْجُزْءُ عَلَى نَفَقَةِ
الْأَمِيرِ الشَّيْخِ غَانِمِ الشَّيْخِ دُرِّ الْفَيَاضِ